آلهــة المريــخ

إدجار رايس بوروز

- Author : Edgar Rice Burroughs
- Title: THE GODS OF MARS
- Translated by: Shohrat Al Alem
- First edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

- المؤلف: إدجار رايس بوروز
- العنوان: آلهة المريخ
- ترجمة: شهرت العالم
- الطبعة الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

أفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ٣٩٦٣
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 153 - 0

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

إدجار رايس بوروز

آلهـة المريـخ

رواية

ترجمة
شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

بوروز، إدجار رايس.

إدجار رايس بوروز : آلهة المريخ – ترجمة: شهرت العالم

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2018

336 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 3963 / 2018

الترقيم الدولي 0 – 153 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء (روايات)

2 – بوروز، إدجار رايس

مقدمة المؤلف

مرت اثنا عشر عامًا منذ أن أخذت جثمان عمي الرائع، كابتن جون كارتر من فرجينيا، بعيدًا عن أعين الرجال لأضعه في تلك المقبرة الغريبة في جبانة ريتشموند القديمة.

كثيرًا ما فكرت في التعليمات العجيبة التي تركها لي بشأن بنية قبره الفريد، لا سيما توجيهاته بوضع جثمانه في نعش مفتوح، واختيار آلية للتحكم في مزلاج باب القبو الضخم، لا يمكن فتحها إلا من الداخل.

مرت اثنا عشر عامًا منذ أن قرأت المخطوط الرائع الذي تركه هذا الرجل الفريد. هذا الرجل الذي لا يتذكر مرحلة طفولته ولا يمكنه حتى تخمين عُمره؛ فقد كان دائم الشباب، ومع ذلك أجلس جِد جدي فوق ركبته لتدليله. هذا الرجل الذي أمضى عشر سنوات على كوكب المريخ، وقاتل من أجل رجال برسوم[١] الخُضر كما قاتل ضدهم، وقاتل من أجل الرجال الحُمر وضدهم وفاز بالجميلة ديجاه ثوريس،

(١) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom – المترجمة.

أميرة هيليوم[٢]، زوجة له، وظل لما يقرب من عشر سنوات أميرًا في بيت تاردوس مورس، جيداك[٣] هيليوم.

مرت اثنا عشر عامًا منذ العثور على جثته فوق المنحدر الذي يقع أمام بيته المُطل على نهر هدسون. وكثيرًا ما تساءلت خلال تلك السنوات الطويلة ما إذا كان جون كارتر قد مات بالفعل، أو ما إذا كان يجوب مرة أخرى قيعان البحر الميت لذلك الكوكب المُحتضر؛ وما إذا كان قد عاد إلى برسوم ليجد أنه تمكن من فتح تلك البوابات المتجهمة لمصنع الغلاف الجوي في الوقت المناسب لإنقاذ ملايين لا تُعد ولا تُحصى يموتون اختناقًا في ذلك اليوم الذي ولى منذ زمن بعيد، ثم اندفع ثانية بلا رحمة عبر ٤٨ مليون ميل في الفضاء نحو كوكب الأرض. تساءلت عما إذا كان قد وجد أميرته ذات الشعر الأسود وابنه الصغير الذي كان يحلم به، ينتظران عودته في حدائق تاردوس مورس الملكية.

أو ربما وجد أنه وصل متأخرًا، فعاد مرة أخرى إلى وفاة حية فوق عالم ميت؟ أو ... هل مات حقًّا، ولم يعُد أبدًا إلى كوكبه الأم، كوكب الأرض، ولا إلى كوكبه الحبيب، كوكب المريخ؟

كنت ضائعًا في تكهنات لا طائل منها، في أمسية شديدة الحرارة بشهر أغسطس، عندما سلمني بِن العجوز – خادمي – برقية. فتحتها وقرأت:

---

(٢) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/ المريخ http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium – المترجمة.

(٣) جيداك: ما يعادل الإمبراطور http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak – المترجمة.

«قابلني غدًا في فندق رالي ريتشموند».

«جون كارتر».

أخذت أول قطار إلى ريتشموند في فترة مبكرة من صباح اليوم التالي، وخلال ساعتين كنت أدخل غرفة الفندق التي يشغلها جون كارتر.

نهض لتحيتي، وابتسامة الترحيب الودية القديمة تضيء وجهه الوسيم. لم يكبر في العُمر ولا لدقيقة واحدة، بل كان كما هو... مقاتل في الثلاثين من عمره، ممشوق القوام، وفي صحة جيدة. تشرق عيناه الرماديتان متوهجة، ولا توجد أي خطوط على وجهه سوى تلك الدالة على العزم والشخصية الحديدية التي كانت موجودة دائمًا عندما تذكرته أول مرة، أي ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا.

«حسنًا يا ابن أخي»، قال مُرَحِّبًا، «هل تشعر كأنك ترى شبحًا، أم تعاني تأثير الإكثار من شراب العم بن؟».

فقلت: «أعتقد أنه الشراب، فأنا أشعر أنني في حالة جيدة، ولكن ربما تأثرت من مجرد رؤيتك مرة أخرى. هل عُدت إلى المريخ؟ أخبرني. وماذا عن ديجاه ثوريس؟ هل وجدتها في حالة جيدة، وتنتظرك؟».

«نعم، لقد ذهبت إلى برسوم مرة أخرى؛ لكنها قصة طويلة، طويلة جدًّا بحيث يصعب أن أقصها عليك خلال هذه الفترة القصيرة قبل أن أعود. لقد عرفت السر، يا ابن أخي، ويمكنني اجتياز الفراغ غير المطروق حسب إرادتي، ذهابًا وإيابًا بين كواكب لا حصر لها. لكن قلبي دائمًا في برسوم، وما دام قلبي هناك في حفظ أميرتي المريخية، أشك أنني سأترك

ثانية هذا العالم المُحتضِر الذي أصبح بمثابة حياتي».

«وقد جئت الآن لأن محبتي لك دفعتني أن أراك مرة أخرى قبل أن تنتقل نهائيًّا إلى تلك الحياة الأخرى التي لن أعرفها أبدًا. فعلى الرغم من أنني مُت ثلاث مرات، وسوف أموت مرة أخرى الليلة، فلا يمكنني أن أعرف الموت كما تعرفه أنت».

«بل يجهله مثلنا أيضًا الثيرنيون(٤) الذين يتسمون بالغموض ويتمتعون بالحكمة في برسوم؛ فهم أتباع تلك العبادة القديمة التي كان يُعزى إليها لعدد لا يُحصى من العصور معرفة سر الحياة والموت، ويعيشون في معاقلهم المنيعة عند سفوح جبال أوتز. لقد تمكنت من إثبات ذلك، على الرغم من أنني كدت أن أفقد حياتي خلال هذه العملية؛ لكنك سوف تقرأ كل شيء في المذكرات التي كتبتها خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة منذ عودتي إلى كوكب الأرض».

ربت بيده فوق حافظة منتفخة على مائدة بجواره، يسند كوعه عليها.

«أعرف أنك مُهتم ومُقتنع، وأعرف أن العالَم مهتم أيضًا، على الرغم من أنهم لن يقتنعون بذلك لسنوات عديدة؛ نعم، لعصور عديدة، لصعوبة فهم الأمر. فتقدُّم رجال كوكب الأرض لم يصل حتى الآن إلى إمكانية إدراك الأشياء التي كتبتها في تلك المذكرات».

«يمكنك أن تعطيهم ما تشاء من هذه المذكرات، ما تعتقد أنه لن يضرهم، لكن دون أن تشعر بالضيق إذا ضحكوا عليك».

(٤) الثيرنيون أو الثيرن: هم عِرق مريخي أبيض البشرة وأصلع، يرتدون باروكات شقراء، ويتمتعون بقوى عقلية خارقة http://barsoom.wikia.com/wiki/Thern – المترجمة.

مشيت معه في تلك الليلة إلى المقبرة. وعند باب المدفن، استدار نحوي وضغط على يدي.

قال: «وداعًا يا ابن أخي. ربما لن أراك مرة أخرى، لأنني أشك في قدرتي على ترك زوجتي وابني ما داما على قيد الحياة، وفترة الحياة في برسوم تمتد غالبًا لما يزيد على ألف عام».

دخل المدفن، تأرجح الباب الكبير ببطء. عاد المزلاج الثقيل إلى مكانه، وطقطق القِفل منغلقًا. ومنذ ذلك الحين، لم أرَ كابتن جون كارتر من فرجينيا.

وها هي قصة عودته إلى المريخ، كما استقيتها من كتلة كبيرة من المذكرات التي تركها لي فوق مائدة غرفته بالفندق في ريتشموند.

هناك الكثير الذي تركته؛ والكثير الذي لم أجرؤ على سرده؛ لكنكم ستجدون قصة بحثه للمرة الثانية عن ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، أكثر روعة مما اشتمل عليه مخطوطه الأول الذي قدمته منذ فترة قصيرة إلى عالَم متشكك، وحيث تابعنا رحلة المقاتل الفيرجيني عبر قيعان البحر الميت تحت أقمار كوكب المريخ.

إدجار رايس بوروز

(١)

رجال النبات

عندما وقفت على المنحدر أمام كوخي في تلك الليلة الباردة في مطلع شهر مارس ١٨٨٦، حيث يتدفق نهر هدسون النبيل كطيف رمادي صامت لنهر ميت، شعرت مرة أخرى بذلك التأثير القهري الغريب لإله الحرب، المريخ المحبوب، الذي ناشدته بأذرع ممدودة لعشر سنوات طويلة موحشة أن يحملني مرة أخرى إلى حبي المفقود.

لم أشعر بهذه الجاذبية التي لا تقاوَم لإله مهنتي منذ تلك الليلة في مارس ١٨٦٦، عندما وقفت خارج كهف في أريزونا، وجسدي يرقد هامدًا بلا حياة ملفوفًا في لفائف الموت على كوكب الأرض.

وقفت ويداي ممدودتان نحو عين النجم العظيم الحمراء، وقفت أصلي راجيًا عودة تلك القوة الغريبة التي سحبتني مرتين عبر اتساع الفضاء، وقفت أصلي كما صليت لألف ليلة من قبل خلال السنوات العشر الطوال التي بقيت فيها أنتظر وآمل.

وفجأة اجتاحني وخز الغثيان، وتراخت حواسي، وتهاوت ركبتاي، وتأرجحت وأنا أسقط على الأرض عند حافة المنحدر مصابًا بدوار.

وعلى الفور شعرت بصفاء ذهني، واستدعت ذاكرتي تلك الصورة الحية لأهوال كهف أريزونا الشبحي. ومرة أخرى، كما حدث في تلك الليلة البعيدة، رفضت عضلاتي الاستجابة لإرادتي. ومرة أخرى، حتى هنا على ضفاف نهر هدسون الهادئ، سمعت الحفيف والأنين المروع لذلك الشيء المخيف الذي كان يترصدني ويهددني من تجاويف الكهف المظلمة. بذلتُ نفس الجهد الجبار الخارق للتغلب على هذا الخدر الغريب الذي انتابني، ومرة أخرى سمعت تلك النقرة الحادة، كأنما سلك مشدود يتمزق فجأة؛ ووقفت عاريًا ومتحررًا بجوار الجسد المحدق بلا حياة، الذي كان حتى وقت قصير نابضًا بشريان الحياة الدافئ لجون كارتر.

وبنظرة فراق، حولت عيني مرة أخرى نحو المريخ رافعًا يديَّ نحو أشعته المتوجهة، وانتظرت.

لم يطل انتظاري؛ فما إن استدرت مرة أخرى، حتى وجدتني انطلق بسرعة الفِكر عبر الفراغ المرعب أمامي. مررت بنفس لحظة البرد القارص والظلام المطلق التي خبرتها منذ عشرين عامًا، ثم فتحت عيني في عالم آخر، تحت أشعة شمس حارة تنفذ خلال فتحه صغيرة في قبة الغابة الهائلة التي أرقد على أرضها.

بيد أن المشهد الذي رأته عيناي لم يكن مريخيًّا على الإطلاق، فشعرت أن قلبي ينخلع من مكانه حيث انتابني خوف مفاجئ من أن يكون مصيري القاسي قد قذف بي إلى كوكب آخر غريب.

ولم لا؟ فماذا يرشدني خلال امتداد الفضاء اللانهائي غير المطروق

بين الكواكب؟ وماذا يضمن أنني أنا لم أندفع نحو نجم بعيد لنظام شمسي آخر، كما اندفعت نحو المريخ؟

أنا راقد الآن فوق مرجة عشب قصير أحمر اللون، ويمتد أمامي بستان من أشجار غريبة وجميلة، مُغطاة بأزهار ضخمة فائقة الجمال، ومملوءة بطيور رائعة لا صوت لها. وقد أطلقت عليها اسم طيور لأن لديها أجنحة، لكن العين البشرية لم تقع أبدًا على مثل هذه الأشكال المتفردة التي لا تنتمي إلى كوكب الأرض.

كانت النباتات تماثل تلك التي تغطي مروج الممرات المائية الكبرى لدى المريخيين الحُمر، لكن الأشجار والطيور كانت تختلف عن أي شيء رأيته من قبل على المريخ. كما رأيت من خلال الأشجار البعيدة مشهدًا غير مريخي على الإطلاق: مشهد بحر مفتوح، تلمع مياهه الزرقاء تحت الشمس المتوهجة.

وما إن نهضت لاستكشاف المزيد، حتى واجهت نفس الكارثة السخيفة التي واجهتني عندما حاولت السير لأول مرة في ظروف المريخ. فانخفاض الجاذبية على هذا الكوكب الصغير، فضلًا عن انخفاض ضغط الهواء في جو مخلخل إلى حد كبير، لم يتح لعضلاتي سوى القليل من المقاومة، بحيث إن المجهود العادي لمجرد النهوض رفعني عدة أقدام في الهواء، وقذفني لأسقط على وجهي فوق العشب الناعم الرائع في هذا العالم الغريب.

على أن هذه التجربة أكدت أنني ربما وصلت إلى موقع مجهول على كوكب المريخ، وهذا ممكن؛ فخلال إقامتي لعشر سنوات على هذا

الكوكب لم أستكشف سوى مناطق قليلة نسبيًّا من مساحته الشاسعة.

نهضت مرة أخرى ضاحكًا؛ لأني نسيت، وسرعان ما أتقنت ثانية فن مواءمة عضلاتي مع هذه الظروف المتغيرة.

مشيت ببطء أسفل المنحدر التدريجي نحو البحر، ولاحظت مظهر المروج والأشجار الذي يشبه الحديقة. كان العشب مقصوصًا وممتدًّا كالبساط مثل المروج الإنجليزية القديمة، وبدت الأشجار نفسها مشذبة بعناية إلى ارتفاع موحد يبلغ حوالي خمس عشرة قدمًا عن الأرض، بحيث إذا التفت المرء ببصره في أي اتجاه يبدو مظهر الغابة من على بعد قصير كغرفة شاسعة ذات سقف مرتفع.

أقنعتني كل هذه الأدلة على الزراعة الدقيقة والمنهجية بأنني محظوظ لأن دخولي إلى المريخ هذه المرة الثانية أوصلني إلى موقع شعب متحضر، وعندما أجدهم سيمنحونني الاحترام والحماية التي أستحقها كأمير في بيت تاردوس مورس.

وخلال توجهي نحو البحر، أثارت أشجار الغابات إعجابي العميق. فجذوعها الضخمة، التي يبلغ قطر بعضها مائة قدم، تشهد على ارتفاعها المذهل الذي لا يمكنني سوى تخمينه؛ إذ لم أتمكن عند أي نقطة من اختراق أوراقها الكثيفة العلوية لأكثر من ستين أو ثمانين قدمًا.

وبقدر ما يمكنني أن أصل ببصري عاليًا، رأيت السيقان والفروع والأغصان في غاية السلاسة والتشذيب المصقول كأحدث بيانو أمريكي الصنع. كانت أخشاب بعض الأشجار سوداء كالأبنوس، بينما تلمع الأشجار القريبة منها، ربما في ضوء الغابة الخافت واضحة وبيضاء

كأجود أواني الخزف الصيني؛ أو أنها كانت، مرة أخرى، زرقاء أو قرمزية أو صفراء أو من اللون الأرجواني الغامق.

وكانت أوراق الشجر بهيجة ومتنوعة مثلها مثل الجذوع، بينما يصعب وصف الأزهار التي تتجمع فوقها بأي لغة من لغات كوكب الأرض، بل ربما تتحدى في الواقع لغة الآلهة.

عندما اقتربت من حدود الغابة، رأيت أمامي رقعة واسعة من الأرض العشبية تقع بين البستان والبحر المفتوح. وعندما هممت للخروج من ظلال الأشجار، التقت عيناي بمشهد ألغى جميع تصوراتي الرومانسية والشاعرية حول جمال المنظر الطبيعي الغريب.

امتد البحر على يساري بقدر ما يمكن أن تصل العين، ولا يوجد أمامي سوى خط مبهم قاتم يشير إلى شاطئه الآخر؛ بينما يقع على يميني نهر جبار يتسم بالاتساع والهدوء والمهابة، ويتدفق بين الضفاف القرمزية ليصب في البحر الهادئ أمامي.

وعلى بُعد قليل من النهر، ترتفع منحدرات عمودية جبارة من نفس قاعدة انطلاق النهر.

على أن هذه الأدلة الرائعة والملهمة لعظمة الطبيعة لم تكن هي التي خطفت انتباهي فورًا بعيدًا عن جمال الغابة؛ بل كان مشهد عشرات من الأشخاص يتحركون ببطء نحو المرج العشبي القريب من ضفة النهر الهائل.

كانت أشكالهم غريبة وبشعة، تختلف عن أي شيء سبق أن رأيته

على كوكب المريخ. على أن مظهرهم كان يبدو عن بُعد أنهم أشبه بالرجال. بدا طول أكبرهم، يتراوح بين ١٠–١٢ قدمًا عند وقوفهم منتصبين، بحيث يتناسب الطول مع الجذع والأطراف السفلية مثل رجال كوكب الأرض تمامًا.

ومع ذلك، كانت أذرعهم قصيرة للغاية. ومن حيث وقفت، بدا جسم الواحد منهم كجسم الفيل، ويتحرك حركة متموجة متعرجة كالثعبان كأنما دون هيكل عظمي على الإطلاق، أو إذا كانت هناك عظام فهي فقارية من حيث طبيعتها.

وخلال مشاهدتي لهم من خلف جذع شجرة ضخمة، تحرك أحد هذه المخلوقات ببطء في اتجاهي، مشاركًا في المهمة التي بدت شغلهم الشاغل، وهي تمرير أيديهم غريبة الشكل على سطح المرج لغرض لم أتمكن من تحديده.

رأيته جيدًا عندما اقترب مني. وعلى الرغم من أنني أصبحت في وقت لاحق أفضل معرفة بهذا النوع من الكائنات، يمكنني القول إن مجرد نظرة سريعة واحدة لهذا التشوه الفظيع للطبيعة، تكفي تمامًا لتأكيد رغبتي في أن أتمكن من التحليق طليقًا. إن أسرع طيار في بحرية هيليوم لا يمكنه أن يحملني بعيدًا بسرعة كافية عن هذا المخلوق البشع.

كان جسده خاليًا من الشَّعر، ولونه أزرق غريبًا كالغول، باستثناء شريط عريض أبيض يحيط بعينه الوحيدة الجاحظة: عين بيضاء ميتة بكل مكوناتها – الحدقة، والقزحية، والمُقلة.

وكان أنفه عبارة عن ثقب خشن مستدير ينفث غضبًا، يقع في وسط

وجهه الفارغ؛ ثقب لا يشبه أي شيء يمكنني التفكير فيه، إلا جرح سببته رصاصة حديثة الإطلاق، ولم يبدأ بعد في النزف.

وأسفل هذه الفتحة الكريهة، كان الوجه فارغًا تمامًا إلى الذقن؛ إذ لم أتمكن من اكتشاف فم هذا الشيء.

أما الرأس، باستثناء الوجه، فهو مُغطى بكتلة متشابكة من شعر أسود كالفحم، يبلغ طوله حوالي ثماني أو عشر بوصات؛ وتماثل كل شعرة في ضخامتها حجم دودة الأرض. وعندما يُحرك هذا الشيء عضلات رأسه، يبدو غطاء رأسه الفظيع هذا متلويًا متموجًا وزاحفًا حول الوجه المخيف كأنما لكل شعرة منفصلة حياة مستقلة.

كان الجسم والساقان يماثلان نظائرهم البشرية على نحو ما صاغته الطبيعة؛ كما كانت القدمان أيضًا بشريتين من حيث الشكل، ولكن بأبعاد وحشية: يبلغ طولها ثلاثة أقدام من الكعب حتى أخمص القدم، ومسطحة للغاية وعريضة جدًّا.

اكتشفت، عندما اقترب مني، أن حركاته العجيبة -تحريك يديه الغريبتين على سطح العشب- هي نتيجة لطريقته الغريبة في التغذية؛ حيث يجز النباتات الطرية بمخالبه التي تشبه موس الحلاقة، ثم يمتصها بفميه -الذي يقع كل منهما في كف إحدى يديه- عن طريق حلقه الشبيه بالذراع.

وبالإضافة إلى الملامح التي وصفتها، يمتلك الوحش ذيلًا ضخمًا يبلغ طوله حوالي ستة أقدام، ومستدير تمامًا عند موقع التحاقة بالجسد، لكنه يصبح نصلًا مسطحًا رفيعًا في نهايته التي تتخذ مع الأرض زاوية قائمة.

بيد أن السمة الأكثر بروزًا حتى الآن لهذا المخلوق اللافت للنظر هي نسختاه المتماثلتان الصغيرتان، التي تتدلى كل منهما من إحدى إبطيه ويبلغ طول الواحدة حوالي ست بوصات. كانتا معلقتين من جذع صغير يبدو أنه ينمو من قمم رؤوسهم تحديدًا إلى حيث يرتبطان بجسمه.

هل هما طفلاه الصغيران، أم مجرد أجزاء من مخلوق مُركّب ... لا أعرف.

خلال تفحصي لهذا المسخ الغريب، زاد اقتراب القطيع مني وهو يتغذى، فرأيت الآن أن العديد منهم لديهم هذه العينات الصغيرة ومع ذلك فهي لا تتدلى منهم جميعًا؛ كما لاحظت أيضًا أن أحجام هؤلاء الصغار تختلف بين ما يبدو براعم صغيرة غير مفتوحة يبلغ قطرها بوصة واحدة إلى مراحل مختلفة من النمو، وصولًا إلى مخلوق كامل النمو والتشكيل يتراوح طوله من عشر إلى اثنتي عشرة بوصة.

كان يتغذى مع القطيع العديد من الصغار الذين لم تزد أحجامهم كثيرًا عن الصغار المُلحقين بآبائهم؛ وقد تدرج القطيع من صغار بهذا الحجم إلى بالغين بحجم ضخم.

وعلى الرغم من منظرهم المخيف، لم أتمكن من تحديد ما إذا يجب أن أخاف منهم؛ فلم يكن يبدو أنهم مجهزون جيدًا للقتال. وعندما أوشكت على الخروج من مخبئي والكشف عن نفسي أمامهم، لأتبين تأثير رؤية رجل عليهم، انطلقت صرخة عويل غريبة من ناحية المنحدرات على يميني، وألغت لحسن حظي قراري المتهور.

فقد كنت عاريًا وغير مسلح، ولذا ربما كانت نهايتي لتصبح سريعة

ورهيبة على أيدي هذه المخلوقات القاسية إذا كان لدي وقت لتنفيذ قراري بالظهور. مع انطلاق الصرخة، استدار كل فرد في القطيع نحو اتجاه صدور الصوت؛ وفي اللحظة نفسها ارتفعت كل شعرة ثعبانية على رؤوسهم عموديًّا، كأنما كل منها عبارة عن كائن حي واع ينظر أو يستمع إلى مصدر العويل أو معناه. وقد ثبت في الواقع أن هذا صحيح؛ إذ إن هذا النمو الغريب على جماجم رجال النبات في برسوم يمثل ألف أُذن لهذه المخلوقات البشعة – البقايا الأخيرة للجنس الغريب الذي انطلق من شجرة الحياة الأصلية.

تحولت كل الأعين على الفور نحو فرد بعينه في القطيع؛ شخص ضخم ومن الواضح أنه الزعيم. أصدر صوت خرير غريبًا من فم يوجد في راحة إحدى يديه، وبدأ في الوقت نفسه يتحرك بسرعة نحو المنحدر، ويتبعه القطيع بأكمله.

لفتت نظري سرعتهم وطريقة حركتهم، فهم يتحركون بقفزات كبيرة تصل إلى عشرين أو ثلاثين قدمًا، وتشبه كثيرًا طريقة الكانجارو.

تصورت أنهم يتحركون متتابعين، بيد أنهم كانوا يختفون بسرعة. لذا، وتوخيًا للحذر، انطلقت في أعقابهم عبر المرج بقفزات مذهلة تفوقت حتى عليهم؛ فعضلات رجل رياضي من كوكب الأرض تسفر عن نتائج رائعة في ظل ظروف انخفاض ضغط الجاذبية والهواء على المريخ.

قاد طريقهم مباشرة إلى منبع النهر عند قاعدة المنحدرات. وعندما اقتربت إلى هذه النقطة، وجدت المرج مليئًا بصخور ضخمة، يبدو

واضحًا أن آثار الزمن أزاحتها من الجرف الشاهق أعلاه.

ولذا اقتربت كثيرًا لمعرفة سبب الاضطراب، قبل أن ينكشف المشهد أمام نظرتي المذعورة. صعدت فوق صخرة كبيرة، ورأيت قطيع رجال النبات يحيط بمجموعة صغيرة من أربعة أو خمسة رجال ونساء برسوم الخُضر.

لم يعُد لدي شك أنني على المريخ بالفعل، فها هم أفراد الجماعات الوحشية التي تسكن قيعان البحر الميت والمدن المهجورة في هذا الكوكب المحتضر.

ها هم الذكور العظماء فارعو الطول بكل جلال طول قامتهم المهيب؛ وها هي أنيابهم البيضاء اللامعة تبرز من الفك الأسفل الضخم، وصولًا إلى نقطة قريبة من مركز جباههم؛ وأعينهم الأفقية الجاحظة التي ينظرون بها إلى الأمام أو إلى الخلف، أو إلى أي من الجانبين دون أن يُديروا رؤوسهم؛ وآذانهم الغريبة التي تشبه الهوائيات ترتفع من قمة جباههم؛ والزوج الإضافي من الأذرع التي تمتد من منتصف المسافة بين الكتفين والوركين.

لقد عرفتهم على الفور، حتى من دون البشرة الخضراء اللامعة والحلي المعدنية التي تشير إلى القبائل التي ينتمون إليها؛ فأين يمكن أن يتكرر أشباههم في جميع أنحاء الكون؟

ضمت المجموعة رجلين وأربع إناث، ودلت حليهم على انتمائهم لجماعات مختلفة. وهو الأمر الذي أثار حيرتي الشديدة؛ لأن مختلف جماعات برسوم الخُضر في حرب مميتة دائمة مع بعضهم بعضًا، ولم

أشهد أبدًا مريخيين خُضرًا ينتمون إلى جماعات مختلفة يرتبطون مًعا في أي شيء غير قتال دموي، باستثناء تلك الواقعة التاريخية الوحيدة عندما جمع تاركاس تاركاس من ثارك(٥) مائة وخمسين ألف محارب أخضر من عدة جماعات في مسيرة إلى مدينة زودانجا سيئة المصير؛ لإنقاذ ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، من براثن ثان كوسيس.

لكنهم يقفون الآن ظهرًا بظهر، يواجهون بأعين متسعة في ذهول تجليات العداء الواضح من عدو مشترك.

كان الرجال والنساء مسلحين بسيوف طويلة وخناجر، وليس لديهم أي أسلحة نارية، وإلا لكانوا سرعان ما أجهزوا على رجال النبات البشعين في برسوم.

انقض الآن زعيم رجال النبات على المجموعة الصغيرة بأسلوب في الهجوم لافت للنظر وفعال، تكمن قوته في غرابته. ولأن علوم المحاربين الخُضر لا تضم دفاعات في مواجهة هذه الطريقة الفريدة في الهجوم، فسرعان ما تبينت أنها طريقة غير مألوفة لهم كما كانت المسوخ التي يواجهونها غير مألوفة لهم أيضًا.

هجم رجل النبات من على بُعد اثني عشر قدمًا من المجموعة، ثم ارتفع بقفزة هائلة فوق رؤوسهم مباشرة. كان يرفع ذيله القوي جانبًا، وأنزله خلال مروره فوقهم في اكتساح هائل سحق جمجمة محارب أخضر كأنها قشرة بيضة.

---

(٥) ثارك: جماعة المريخيين الخُضر http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query =Thark – المترجمة.

تحرك القطيع المخيف الآن بسرعة مذهلة متحلقًا حول زمرة الضحايا صغيرة العدد. وكانت قفزاتهم وصيحاتهم الجبارة، التي تنطلق كالأزيز من أفواههم الغريبة، محسوبة جيدًا لإرباك وإرهاب فرائسهم، بحيث عندما قفز اثنان منهم في وقت واحد من الجانبين، لم يلق اكتساح ذيولهم القوية البشعة أي مقاومة، ومات بخِسة اثنان من المريخيين الخُضر.

لم يتبق الآن سوى محارب واحد وامرأتين، وبدا أن ثلاثتهم سيموتون خلال بضع ثوان أيضًا بالسيف القرمزي.

ولكن مع هجوم اثنين آخرين من رجال النبات، فإن المحارب الذي أصبح الآن مستعدًّا بعد خبرة الدقائق القليلة الماضية، قام بأرجحة سيفه الطويل القوي عاليًا وسدد ضربة نحو الأجساد الضخمة المندفعة نحوه فأصاب أحدهما بقطع حاد من الذقن إلى الفخذ.

بيد أن الثاني سدد ضربة واحدة بذيله القاسي، مما أدى إلى سحق جسدي المرأتين وسقوطهما على الأرض.

وعندما شاهد المحارب الأخضر سقوط آخر رفاقه، وأدرك في الوقت نفسه أن القطيع بأكمله يهاجمه كتلة واحدة، اندفع بجرأة لمواجهتهم وسيفه الطويل يتأرجح على نحو مرعب، كثيرًا ما رأيت الرجال من جنسه يمارسونه ببراعة في حربهم الشرسة الدائمة تقريبًا بينهم.

ظل المحارب يسدد الضربات يمينًا ويسارًا إلى أن شق مسارًا مفتوحًا عبر رجال النبات المتقدمين، ثم بدأ في سباق مجنون نحو الغابة – المأوى الذي كان يأمل بوضوح أن يجد فيه ملاذًا آمنًا يلجأ إليه.

اتجه نحو ذلك الجزء من الغابة الذي يتاخم المنحدرات. وهكذا أخذ السباق المجنون القطيع بأكمله بعيدًا عن الصخرة التي رقدت خلفها مختبئًا.

عندما شاهدت القتال النبيل الذي خاضه المحارب العظيم في مواجهة هذه الصعاب الهائلة، خفق قلبي إعجابًا به، وتصرفت حسبما تعودت، أي اعتمادًا على دوافعي أكثر منه على مناقشة ناضجة؛ فانطلقت على الفور من وراء الصخرة التي تأويني، وقفزت بسرعة في اتجاه أجساد المريخيين الخُضر الأموات، وقد تشكلت لدي بالفعل خطة عمل جيدة.

أوصلتني عدة قفزات كبيرة إلى الموقع المطلوب، وبعد لحظات قليلة كنت أخطو خطوات واسعة في مطاردة سريعة للوحوش البشعة التي كانت تقترب بسرعة من المحارب الهارب. أمسكت في يدي هذه المرة بسيف طويل قوي، وشهوة الدم القديمة للمقاتل تتدفق في قلبي، والضباب الأحمر يحوم أمام عيني، وشعرت أن شفتي تستجيبان لقلبي في تلك الابتسامة القديمة التي كانت تميزني دائمًا في خضم بهجة المعركة.

لم أصل في الوقت المناسب رغم سرعتي؛ إذ لحقوا بالمحارب الأخضر بعد أن قطع نصف المسافة إلى الغابة. وهو يقف الآن وظهره إلى صخرة، في حين توقف القطيع مؤقتًا، يهسهسون ويصرخون حوله.

ونظرًا لأن لكل منهم عينًا واحدة في وسط رأسه، وكل أعينهم تحولت نحو فريستهم، لم يلحظوا اقترابي الصامت. وبالتالي انقضضت عليهم بسيفي الطويل العظيم وقتلت أربعة منهم، وبعدها فقط أدركوا وجودي بينهم.

تراجعوا للحظة أمام هجومي الهائل، وفي الوقت نفسه انتهز المحارب الأخضر هذه الفرصة وقفز إلى جانبي، وهو يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا على نحو لم أشهد أحدًا يفعله من قبل سوى محارب واحد. وبضرباته الدائرية الكبيرة، التي اتخذت شكل الرقم ٨ حوله، أخذ نصله الحاد يمر خلال اللحم والعظم والمعادن كما لو كانت بمثابة هواء رقيق، ولم يتوقف إلا بعد أن أجهز على أي خصم حي واجهه.

وخلال انشغالنا بالمذبحة، ارتفعت فوقنا من على بُعد تلك الصرخة الحادة الغريبة التي سمعتها من قبل، واستدعت القطيع للهجوم على ضحاياهم. ارتفعت مرارًا وتكرارًا، لكننا كنا منشغلين تمامًا في مواجهة المخلوقات الشرسة القوية حولنا بحيث يصعب علينا محاولة للبحث، حتى بأعيننا، عن صاحب تلك الصرخات المروعة.

أخذت الذيول الكبيرة تضربنا في غضب محموم؛ وجرحت مخالبهم الشبيهة بالأمواس أطرافنا وأجسادنا؛ وتلوثنا من الرأس إلى القدم بسائل أخضر لزج، مثل السائل المتسرب من سحق يرقة فراشة؛ فكل جرح أو طعنة من سيوفنا الطويلة كان يغمرنا بهذه المادة التي تسري بلزوجة بطيئة -بدلًا من الدماء- في شرايين رجال النبات.

وما إن شعرت بثقل أحد الوحوش الكبيرة على ظهري، وغُرزت مخالبه الحادة في جسدي، حتى واجهت إحساسًا مخيفًا بشفاه رطبة تمص دماء الحياة من الجروح التي لا تزال المخالب تتشبث بها.

كنت مشتبكًا مع مخلوق شرس يحاول الوصول إلى حلقي من الأمام، بينما كان اثنان آخران، واحد من كل جانب، يجلداني بذيليهما بشراسة.

كان المحارب الأخضر منخرطًا في قتاله، وشعرت بأن الصراع غير المتكافئ يمكن أن ينتهي. لكن زميلي الضخم اكتشف محنتي بعد فترة قصيرة، وتملص ممزقًا نفسه من أولئك الذين يحيطون به، وأبعد المعتدي عن ظهري بضربة واحدة من نصله؛ وما إن تخففت من هذا العبء، حتى لم أواجه صعوبات تُذكر في مواجهة الآخرين.

ما إن أصبحنا معًا، حتى وقفنا ظهرًا بظهر مستندين على الصخرة الكبيرة، وهو ما حال دون قفز المخلوقات فوقنا لتسديد ضرباتهم القاتلة. كنا دون ريب أندادًا لهم ما داموا على الأرض ولا يقفزون، ولذا أحرزنا تقدمًا كبيرًا في قتل من تبقى منهم، إلى أن جذبت انتباهنا مرة أخرى صيحات العويل الحادة فوق رؤوسنا.

ألقيت هذه المرة نظرة إلى أعلى، فرأيت على مسافة بعيدة فوقنا شرفة طبيعية صغيرة في مواجهة الجرف، يقف فيها مخلوق غريب بهيئة رجل يصدر صيحات إشاراته الحادة، بينما يلوح بإحدى يديه في اتجاه مصب النهر كأنما يشير إلى شخص ما هناك، ويشير بيده الأخرى نحونا.

إن لمحة خاطفة في الاتجاه الذي ينظر إليه كانت كافية لأن أدرك أهدافه، وأن تملأني في الوقت نفسه بالرهبة من مخاوف شديدة؛ إذ كان يتدفق نحونا من جميع الاتجاهات عبر المرج، من خارج الغابة ومن الأرض المنبسطة عبر النهر التي تقع على مسافة بعيدة، مائة خط مختلف لمخلوقات تقفز بوحشية مثل تلك المخلوقات التي نواجهها الآن، وبصحبتهم وحوش جديدة غريبة تركض بسرعة هائلة، تتحرك منتصبة أحيانًا ثم على أربع في أحيان أخرى.

«سيكون موتًا عظيمًا»، قلت لرفيقي. «انظر!».

ابتسم، وهو يلقي نظرة سريعة في الاتجاه الذي أشرت إليه.

وأجاب: «على الأقل سنموت ونحن نقاتل، وكما يجب أن يموت المحاربون العظام، جون كارتر».

جاءت كلماته بعد أن انتهينا للتو من آخر خصومنا المباشرين، واستدرت مندهشًا عندما سمعت اسمي.

وأمام عيني المندهشة، رأيت أعظم رجال برسوم الخُضر؛ أكثر رجال الدولة بصيرة، وأعتى جنرالاتها، إنه صديقي العظيم الطيب تارس تاركاس، جيداك ثارك.

* * *

(٢)

معركة الغابة

لم نجد أنا وتارس تاركاس وقتًا لتبادل الخبرات ونحن نقف هناك أمام صخرة كبيرة وتحيط بنا جثث مهاجمينا البشعين؛ فقد كان يتدفق من جميع اتجاهات الوادي الفسيح تيار جارف من مخلوقات مرعبة، استجابة للدعوة العجيبة التي أطلقها ذلك الشخص الغريب القابع على مسافة فوقنا.

صاح تارس تاركاس: «تعال، علينا أن نصل إلى المنحدرات. هناك يكمن أملنا الوحيد للهروب حتى وإن كان مؤقتًا؛ فقد نجد كهفًا أو نتوءًا ضيقًا يمكننا منه أن ندافع عن أنفسنا إلى الأبد في مواجهة هذا الحشد المتعدد غير المسلح».

ركضنا معًا عبر المرج القرمزي، وضبطت سرعتي بحيث لا أتجاوز سرعة رفيقي الأبطأ. ربما علينا أن نقطع ثلاثمائة ياردة بين صخرتنا والمنحدرات، ثم نبحث عن مأوى مناسب لمواجهة تلك الأشياء المرعبة التي تطاردنا.

كانوا يلحقون بنا سريعًا. وعندئذ صاح تارس تاركاس طالبًا مني أن أسرع إلى الأمام وأكتشف، إن أمكن، الملاذ الذي ننشده. كان اقتراحه

جيدًا، إذ يمكننا بذلك توفير بضع دقائق ذات قيمة. استعنت بكل ما أمكنني من عضلات كوكب الأرض، وقطعت المسافة المتبقية بيني وبين المنحدرات بقفزات جبارة أوصلتني في لحظة إلى قاعدة المنحدرات.

ترتفع المنحدرات عموديًّا مباشرة من المرج المستوي تقريبًا في الوادي. وعلى عكس جميع المنحدرات الأخرى تقريبًا التي رأيتها من قبل، لم أجد هناك أي تراكمات لحطام ساقط، مما جعل صعودي عسيرًا إلى حد ما. كانت الصخور المتناثرة التي سقطت من أعلى تستقر على العشب أو تُدفن فيه جزئيًّا، وهي العلامة الوحيدة على حدوث تحطم سابق لكومة الصخور الضخمة الشاهقة.

أول فحص سريع قمت به لسطح المنحدرات أثار في قلبي نذر الشر، إذ لم أجد مكانًا يمكنني أن أستشف منه أي إشارة ضعيفة لمجرد موطئ قدم على الجرف الشاهق، إلا حيث وقف ذلك المُنادي الغريب يطلق الدعوة الصارخة.

اختفى قاع المنحدر على يميني بين كثافة أوراق أشجار الغابة، التي انتهت عند سفحه، وارتفعت أوراقها الرائعة إلى ألف قدم في مواجهة صرامة الأشجار المجاورة المنيعة.

امتد الجرف على اليسار، دون انقطاع واضح، عبر الوادي الفسيح، إلى أن اختفى في خطوط عريضة لمجموعة من الجبال الهائلة التي تحيط بالوادي وتطوقه من جميع الاتجاهات.

ويبدو أن مسار النهر تعرج على بُعد ربما يصل إلى ألف قدم، عند قاعدة المنحدرات مباشرة. ونظرًا لعدم وجود أي فرصة ولو بعيدة

للهروب في هذا الاتجاه، فقد حولت انتباهي مرة أخرى نحو الغابة.

ارتفعت المنحدرات فوقي بحوالي خمسة آلاف قدم. لم تكن الشمس فوقها تمامًا، ولاح لون المنحدرات أصفر باهتًا في ظلها. وكانت تقطعها، هنا وهناك، خطوط وبُقع باللونين الأحمر الداكن والأخضر، وأحيانًا مساحات متباعدة من الكوارتز الأبيض.

كانت في مجملها رائعة الجمال، وأخشى أنني لم أنظر إليها بعين تُقدرها بصفة خاصة عند أول تفحصي لها.

فقد كنت مستغرقًا فيها كمجرد وسيلة للهرب. وهكذا عندما طافت نظرتي سريعًا مرة أخرى على هذه الرقعة الشاسعة بحثًا عن صدع أو فجوة، شعرت فجأة بالكراهية تجاهها كما يشعر السجين بالاشمئزاز من جدران زنزانته القاسية المنيعة.

كان تارس تاركاس يقترب مني سريعًا، وفي أعقابه حشد فظيع أكثر سرعة.

يبدو الآن أنها الغابة أو لا شيء. كنت على وشك الإشارة إلى تارس تاركاس ليتبعني في ذلك الاتجاه، عندما مرت الشمس فوق قمة الجرف ومست أشعتها الساطعة سطحه المعتم، فتوهجت مليون بقعة ضوء متلألئة من الذهب المصقول، والأحمر المتوهج، ودرجات الأخضر الفاتح والأبيض اللامع - أروع مشهد وأكثرها إلهامًا يمكن أن تقع عليه عين بشرية.

كان سطح الجرف بأكمله -كما أثبت بشكل قاطع تفحصي اللاحق-

مملوءًا بعروق وبقع من الذهب الخالص بحيث يُعطي مظهر جدار متين من هذا المعدن الثمين، باستثناء المواضع التي تتخللها بروزات من الياقوت، والزمرد، وصخور الألماس- وهي إشارة ضعيفة ومغرية لثروات هائلة غير معروفة، مدفونة عميقًا تحت هذا السطح الرائع.

على أن أكثر ما أثار انتباهي في لحظة تلألؤ سطح الجرف بفِعل أشعة الشمس، هو البقع السوداء العديدة التي تبدو عالية الآن بوضوح شديد عبر الجدار الرائع القريب من أعلى الغابة، وتمتد على ما يبدو أدناه ووراء الفروع.

أدركت على الفور أنها الفتحات المظلمة لكهوف الدخول عبر الجدران الصلبة - تبدو سُبُلًا ممكنة للهرب أو ملاذًا مؤقتًا، إذا أمكننا الوصول إليها.

لم يكن هناك سوى طريق واحد، يمر خلال الأشجار الضخمة الشاهقة على يميننا. كنت أعرف أن بإمكاني تسلقها، لكن تارس تاركاس، بجسده الضخم ووزنه الكبير، ربما يجدها مهمة تتجاوز بسالته أو مهارته؛ فالمريخيون في أحسن الأحوال لا يجيدون التسلق. لم أشهد أبدًا من قبل على سطح هذا الكوكب القديم بأكمله تلالًا أو جبالًا يتجاوز ارتفاعها أربعة آلاف قدم فوق قيعان البحر الميت؛ ولما كان يصعدون عادة إلى قمتها تدريجيًّا، فلم تكن تُمثل سوى فرص قليلة لممارسة التسلق. كما أن المريخيين لم يقتنصوا أبدًا حتى تلك الفرص؛ لأنهم يجدون دومًا مسارًا ملتويًا حول قاعدة أي ربوة، وهم يفضلون اتباع هذه المسارات عن اتباع طرق أقصر ولكن أكثر صعوبة.

ومع ذلك، لم يكن أمامنا شيء آخر سوى محاولة تسلق الأشجار المجاورة للجرف، بغية الوصول إلى الكهوف العلوية.

أدرك الثاركي على الفور الإمكانيات والصعوبات التي تكتنف هذه الخطة، ولكن ما من بديل؛ فانطلقنا بسرعة نحو الأشجار الأقرب إلى الجرف.

اقترب منا الآن مطاردونا المثابرون إلى حد أنه بدا من المستحيل على الإطلاق أن يصل جيداك ثارك إلى الغابة قبلهم، كما لم تكن هناك أي إرادة كبيرة في الجهود التي يبذلها تارس تاركاس؛ فرجال برسوم الخُضر لا يلجأون إلى الهروب، ولم أشهد أبدًا من قبل أيًّا منهم يهرب من الموت مهما كان الشكل الذي يواجهه به. وتارس تاركاس هو أشجع الشجعان، كما أثبت آلاف المرات؛ نعم، عشرات الآلاف من المرات في عدد لا يُحصى من المعارك المميتة مع الرجال والوحوش. ولذلك كنت أعرف أن هناك سببًا آخر وليس الخوف من الموت وراء هروبه؛ لأنه يعرف أن قوة أكبر من كبرياء أو الشرف هي حافزي للهروب من هذه الكائنات التدميرية الشرسة. في حالتي كان الحب – حب ديجاه ثوريس؛ لكنني لم أستطع فهم سبب حب الثاركي المفاجئ الكبير للحياة؛ لأنهم يسعون غالبًا إلى الموت أكثر من الحياة – هؤلاء الناس القساة، غريبو الأطوار، الذين يعيشون بلا حب، وبلا سعادة.

بيد أننا وصلنا إلى ظلال الغابة بعد فترة، بينما انطلق وراءنا أسرع المطاردين، أحد عمالقة رجال النبات، الذي يمد مخالبه كي يتمكن من تثبيت أفواهه الماصة للدماء في أجسادنا.

لقد كان متقدمًا عن أقرب رفيق له بمائة ياردة، ولذا دعوت تارس تاركاس أن يصعد فوق شجرة كبيرة تلمس سطح الجرف بينما أقتل مطارده، مما يعطي الثاركي الأقل رشاقة فرصة للوصول إلى الفروع العلوية قبل أن يدركنا الحشد بأكمله ويضيع ما تبقى من إمكانية للهروب.

لكنني اعتمدت، دون تقدير عادل، على مكر خصمي المباشر أو سرعة زملائه في قطع المسافة التي تفصلهم عني.

وعندما رفعت سيفي الطويل لقتل هذا المخلوق بطعنة النهاية، توقف ولم يهاجمني. وعندما انخفض سيفي في الهواء دون إلحاق أذى، دفع ذيله الكبير سيفي بقوة ذراعه وألقاني من قدمي إلى الأرض. وفي لحظة كان الوحش جاثمًا فوقي، لكنني أمسكت بمجسات اللمس في كلتا يديه قبل أن يتمكن من إحكام أفواهه البشعة على صدري وحلقي.

كانت عضلات رجل النبات ثقيلة وقوية، لكن عضلاتي ورشاقتي الكبيرة لانتمائي لكوكب الأرض، علاوة على قبضتي الخانقة المميتة، كان يمكن أن تمنحني -كما أعتقد- نصرًا في نهاية المطاف؛ هذا إن كان لدينا وقت لمناقشة مزايا براعتنا النسبية. على أننا كنا نجاهد ونكافح عند الشجرة التي يتسلقها تارس تاركاس بصعوبة شديدة، ولمحت فجأة من فوق كتف خصمي أن سرب المطاردين الكبير أصبح الآن على وشك الوصول والهجوم.

وأخيرًا رأيت طبيعة الوحوش الأخرى التي صاحبت رجال النبات استجابة للاستدعاء الغريب من الرجل الذي يقف على سطح الجرف. كانت أفظع مخلوقات المريخ - القرود البيضاء الكبيرة في برسوم.

كنت أعرفهم وأعرف أساليبهم تمامًا من خلال تجاربي السابقة على المريخ. ويمكنني القول إن القرود البيضاء هم أكثر سكان هذا العالم الغريب ترويعًا وفظاعة، وغرابة، وبشاعة، بما يجعلني أقرب إلى معرفة الإحساس بالخوف.

وأعتقد أن سبب هذا الشعور الذي تولده هذه القرود داخلي يرجع إلى تشابهها الملحوظ من حيث الشكل برجال كوكب الأرض، مما يعطيهم مظهرًا بشريًّا شديد الغرابة مع اقترنه بحجمهم الضخم.

يبلغ طول الواحد منهم خمسة عشر قدمًا، ويسيرون منتصبين على قدميهم الخلفيتين. ومثلهم مثل المريخيين الخُضر، لديهم مجموعة وسيطة من الأذرع في منتصف المسافة بين أطرافهم العليا والسفلى. أعينهم شديدة التقارب، لكنها ليست بارزة كأعين رجال المريخ الخُضر؛ وآذانهم عالية، لكن موقعها جانبي أكثر من موقع آذان الرجال الخُضر؛ بينما أنوفهم البارزة وأسنانهم تشبه كثيرًا نظيرتها لدى الغوريلا الأفريقية على كوكب الأرض. وينمو على رؤوسهم كومة هائلة من الشعر الخشن.

حدقت من فوق كتف عدوي في أعينهم وأعين رجال النبات المرعبين؛ ثم في موجة قوية من الزمجرة، والزجر، والصراخ، وخرخرة الغضب، انقضّوا نحوي – ومن بين جميع الأصوات التي هاجمت أذني وأنا أسقط تحتهم، كانت أبشعها خرخرة رجال النبات المروعة.

وعلى الفور انغرست أنياب قاسية ومخالب حادة في جسدي؛ وثبتت شفاه باردة ماصة نفسها فوق شراييني. كافحت لتحرير نفسي؛ وعلى الرغم من أنني كنت مثقلًا بأجسادهم الضخمة فوقي، فقد نجحت

في النهوض على قدمي وأنا قابض على سيفي الطويل، ومُقلصًا قبضتي عليه حتى يمكنني استخدامه كخنجر، فأوقعت الفوضى بينهم ووقفت للحظة متحررًا.

إن ما استغرق مني دقائق في كتابته، قد حدث في بضع ثوان. شهد تارس تاركاس محنتي خلال تلك الفترة وقفز من الفروع السفلي التي وصل إليها بجهد شاق؛ وما إن طرحت خصومي المباشرين أرضًا، حتى قفز الثاركي العظيم إلى جانبي وقاتلنا مرة أخرى ظهرًا بظهر، كما فعلنا مئات المرات من قبل.

هاجمتنا القرود الشرسة مرارًا وتكرارًا، وأبعدناهم بسيوفنا مرارًا وتكرارًا. كانت ذيول رجال النبات الكبيرة تجلدنا بقوة هائلة وهم يهاجموننا من اتجاهات مختلفة، أو يقفزون بخفة كلاب الصيد فوق رؤوسنا؛ لكن كل هجوم كان يواجه سيفين لامعين في أيدي من اشتهرا لعشرين عامًا بأنهما أفضل من عرفهما المريخ؛ إذ كان تارس تاركاس وجون كارتر اسمين يحب المقاتلون في عالم الحرب الكلام عنهما.

ولكن حتى أفضل المبارزين في عالم المقاتلين لا يمكنهم الاستمرار إلى الأبد ضد هذه الأعداد الساحقة من الوحوش الشرسة الهمجية التي لا تعرف معنى الهزيمة إلى أن يصل النصل البارد إلى قلوبهم ويوقفها عن الخفقان؛ وهكذا، اضطررنا للتراجع خطوة خطوة. وقفنا مطولًا مستندين إلى الشجرة العملاقة التي اخترناها للصعود، ومع اشتداد الهجمات واحدة تلو الأخرى، تراجعنا ثانية، إلى أن اضطررنا للتراجع إلى منتصف الطريق حول قاعدة الجذع الهائل الضخمة.

كان تارس تاركاس في الصدارة، وفجأة سمعته يطلق صيحة ابتهاج.

قال: «هنا يوجد مأوى لشخص واحد على الأقل، جون كارتر». ألقيت نظرة ورأيت فتحه يبلغ قطرها حوالي ثلاثة أقدام تقع أسفل قاعدة الشجرة.

صحت قائلًا: «لندخل معًا، تارس تاركاس»؛ لكنه قال إنه لن يدخل؛ لأن حجمه كبير بالنسبة للفتحة الصغيرة، بينما يمكنني أن أنزلق داخلها بسهولة.

«سيموت كلانا إذا بقينا في الخارج، جون كارتر؛ هذه فرصة ضئيلة لأحدنا. انتهزها، ويمكنك أن تعيش لتنتقم لي. ليس مُجديًا أن أحاول شق طريقي داخل فتحه صغيرة، وهذا الحشد من الشياطين يحيط بنا من جميع الجوانب».

أجبته: «إذن نموت معًا، تارس تاركاس، لأنني لن أذهب أولًا. بل سأدافع عن هذه الفتحة بينما تدخل، ثم ستتيح لي قامتي الأصغر أن أنزلق داخلها معك قبل أن يتمكنوا من منعي».

كنا نقاتل بشراسة ونحن نتحدث جملًا متقطعة، تتخللها جروح وضربات وحشية من أعدائنا المحتشدين.

وافق أخيرًا، فهذا هو السبيل الوحيد أمامنا لينجو أحدنا من أعداد مهاجمينا المتزايدين، إذ لا يزالون يحتشدون من جميع الاتجاهات عبر الوادي الواسع.

قال: «إنها طريقتك دائمًا، جون كارتر، أن تكون حياتك هي آخر ما

تفكر فيه، وهي أيضًا طريقتك أن تقود حياة الآخرين وأفعالهم، بما ينطبق حتى على أعظم الجيداك الذين يحكمون برسوم».

بدت على وجهه الصلب القاسي ابتسامة قاتمة، إذ اضطر وهو أعظم جيداك في برسوم إلى الانصياع لما يمليه مخلوق من عالم آخر... رجل لا يتمتع بنصف مكانته.

ثم قال: «إذا فشلت، جون كارتر، عليك أن تعرف أن الثاركي القاسي عديم الرحمة، الذي علمته معنى الصداقة، سوف يخرج ليموت بجوارك».

أجبته: «كما تشاء يا صديقي، ولكن أسرع الآن، ادخل أولًا بينما أغطي انسحابك».

تردد قليلًا عند هذه الكلمة، فلم ينسحب أبدًا من قبل في حياته كلها - وهي حياة من القتال المتواصل - إلا أمام عدو ميت أو مهزوم.

استعجلته قائلًا: «أسرع، تارس تاركاس، أو ستحيق بنا هزيمة بلا طائل؛ فلا يمكنني أن أمنعهم بمفردي إلى الأبد».

عندما هبط إلى الأرض لشق طريقه داخل الشجرة، تكالبت كل مجموعة الشياطين البشعة فوقي وهي تعوي. كان نصل سيفي اللامع يتحرك يمينًا ويسارًا، يتلون الآن بالأخضر من السائل اللزج لرجل النبات، والآن بالأحمر من الدم القرمزي للقرد الأبيض الكبير؛ لكنه ينطلق دائمًا من خصم إلى آخر، مترددًا لجزء من الثانية لشُرب دماء الحياة من بعض القلوب المتوحشة.

وهكذا قاتلت كما لم أقاتل أبدًا ضد هذه الكائنات المخيفة. ولا أعرف حتى الآن كيف صمدت عضلات الإنسان أمام ذلك الانقضاض المروع، وذلك الوزن الهائل لأطنان من اللحم تندفع مقاتلة بشراسة.

ضاعفت تلك المخلوقات جهودها لتنال مني، خشية أن نتمكن من الهرب منها. وعلى الرغم من أن الأرض حولي كانت مكدسة بكومة عالية من رفاقهم الموتى والمحتضرين في الرمق الأخير، فقد نجحوا أخيرًا في هزيمتي وبدأت أسقط تحتهم للمرة الثانية اليوم، ومرة أخرى شعرت بتلك الشفاه الماصة الشنيعة تنغرس في لحمي.

ولكن قبل سقوطي مباشرة، شعرت بأيد قوية تمسكني من الكاحلين، وفي الثانية التالية تجرني إلى المأوى داخل الشجرة. كان صراعًا عنيفًا امتد للحظة بين تارس تاركاس ورجل ضخم من رجال النبات الذي تشبث بصدري في عناد، لكنني تمكنت الآن من الوصول إلى سيفي الطويل أسفله وفتكت به بطعنة قوية اخترقته.

رقدت لاهثًا على الأرض داخل تجويف الشجرة، وأنا ممزق وأنزف من جروح شديدة كثيرة، بينما يدافع تارس تاركاس عن فتحة التجويف ضد الغوغاء الغاضبين في الخارج.

استمر عواؤهم ساعة حول الشجرة. وبعد بضع محاولات للوصول إلينا، اقتصرت جهودهم على الصيحات والصرخات الترويعية، والهدير الفظيع من جانب القرود البيضاء الكبيرة، وخرخرة رجال النبات المخيفة التي لا توصف.

غادروا بعد فترة طويلة، تاركين مجموعة منهم لمنع هروبنا. يبدو

أن مغامرتنا كان مقدرًا لها أن تسفر عن حصارنا، والنتيجة الوحيدة التي يمكن أن تنتظرنا هي الموت جوعًا؛ فحتى إذا أمكننا الخروج خلسة بعد حلول الظلام، فإلى أين في هذا الوادي المجهول العدائي يمكن أن نأمل أن تتجه خطواتنا نحو هروب ممكن؟

عندما توقفت هجمات أعدائنا واعتادت أعيننا على شبه الظلام داخل مأوانا الغريب، انتهزت الفرصة لاستكشاف هذا المأوى.

يصل قُطر تجويف الشجرة إلى حوالي خمسين قدمًا، واستنتجت من أرضيته المسطحة الصلبة أن سكانًا آخرين سبق لهم استخدامه قبلنا. وعندما رفعت عيني نحو السقف لمعرفة ارتفاعه، رأيت فوقي توهجًا لضوء خافت.

هناك فتحه علوية. إذا أمكننا الوصول إليها، قد نأمل في الوصول إلى كهوف الجرف. اعتادت عيني تمامًا الآن على الضوء الداخلي الخافت. وخلال متابعتي الاستكشافية، وجدت الآن سلمًا خشنًا في الجانب الآخر من الكهف.

صعدت السلم بسرعة، ووجدت جزءه العلوي مرتبطًا بجزئه السفلي عبر سلسلة من قضبان أفقية خشبية تمتد عبر باطن جذع الشجرة الذي أصبح الآن ضيقًا كالبئر. لقد وُضِعت هذه القضبان واحدة فوق الأخرى على مسافة ثلاثة أقدام تقريبًا من بعضها بعضًا، لتُشكل سلمًا نموذجيًّا يرتفع عاليًا بقدر ما يمكنني أن أرى.

هبطت إلى الأرض مرة أخرى، وتحدثت مع تارس تاركاس عن اكتشافي بالتفصيل؛ فاقترح أن أواصل الارتفاع مُستكشفًا إلى أعلى قدر

يمكنني الوصول إليه بأمان، بينما يتولى هو حراسة المدخل ضد أي هجوم محتمل.

أسرعت أعلى السلم لاستكشاف البئر الغريب، ووجدت أن السلم ذا القضبان الأفقية يرتفع دائمًا فوقي بقدر ما يمكن أن ترى عيناي، وكلما صعدت تنامى الضوء القادم من أعلى ليصبح أكثر وأكثر إشراقًا.

واصلت الصعود لمسافة خمسمائة قدم كاملة، حتى وصلت بعد فترة طويلة إلى الفتحة الموجودة في الجذع وتسمح بدخول الضوء. كان قطرها يماثل تقريبًا قطر فتحة المدخل عند قاعدة الشجرة، وتفتح مباشرة على فرع مُسطح كبير، يشهد سطحه البالي على استخدامه المستمر منذ فترة طويلة كطريق لبعض المخلوقات للدخول إلى هذا البئر والخروج منه.

لم أغامر بالخروج إلى الفرع خشية أن يكتشفوني وتتوقف جهودنا للتراجع في هذا الاتجاه؛ لكني هرعت بخطواتي عائدًا إلى تارس تاركاس.

سرعان ما وصلت إليه، والآن يصعد كلانا السلم الطويل نحو الفتحة أعلاه.

صعد تارس تاركاس أولًا، وعندما وصلت إلى أول قضيب أفقي سحبت السلم لأعلى ورائي وسلمته له، وقد حمله مائة قدم لأعلى حيث ثبته بأمان بين أحد القضبان وجانب البئر. وعلى نفس المنوال، أزحت القضبان الأدنى خلال مروري بها، بحيث سرعان ما يصبح باطن الشجرة خاليًا من أي وسيلة ممكنة للصعود لمسافة مائة قدم من القاعدة؛ وبالتالي

استبعدنا أي مطاردة ممكنة والهجوم علينا من الخلف.

وقد عرفنا لاحقًا أن هذا التدبير الوقائي أنقذنا من مأزق خطير، وكان في نهاية المطاف وسيلة خلاصنا.

عندما وصلنا إلى الفتحة في القمة، أشار تارس تاركاس إلى أحد الجوانب التي يمكنني المرور منها للاستكشاف، نظرًا لأن وزني أقل ورشاقتي أكبر، ولذا فأنا أصلُح أكثر لشق هذا الطريق المحفوف بالمخاطر عبر هذا المسار الدوار المعلق.

كان الفرع الذي وجدت نفسي فوقه يرتفع بزاوية طفيفة نحو الجرف. وعندما واصلت، وجدت أنني أنهيت بضعة أقدام فوق نتوء ضيق يبرز من سطح الجرف عند مدخل كهف ضيق.

وعندما اقتربت من طرف بعيد من الفرع ونحيل نسبيًّا، وجدته يميل تحت تأثير وزني، إلى أن تمكنت في ظل هذا الخطر أن أتوازن عند طرفه الخارجي، وهو يتأرجح بلطف على مستوى النتوء على مسافة بضعة أقدام.

وعلى بعد خمسمائة قدم أدناي، كان يرقد البساط القرمزي المشرق للوادي؛ وعلى مسافة خمسة آلاف قدم تقريبًا فوقي، رأيت السطح الهائل اللامع للمنحدرات فائقة الجمال.

لم يكن الكهف الذي واجهته يشبه تلك الكهوف التي رأيتها من أسفل، وكان يقع أعلى بكثير، ربما بألف قدم. لكنه، بقدر علمي، كان جيدًا لغرضنا؛ ولذا عدت إلى الشجرة من أجل تارس تاركاس.

تحركنا معًا كالديدان عبر المسار الملتوي، وعندما وصلنا إلى نهاية الفرع وجدنا أن ثقلنا مجتمعًا ضغط بشدة على الفرع بحيث أصبح مدخل الكهف الآن بعيدًا جدًّا فوقنا على نحو يصعب معه أن نتمكن من الوصول إليه.

وأخيرًا اتفقنا على أن يعود تارس تاركاس على طول الفرع، تاركًا الحزام الجلدي الطويل لعتاده الحربي معي، وعندما يرتفع الفرع إلى مسافة تتيح لي دخول الكهف سأدخله، وعندما يبدأ تارس تاركاس طريق عودته، سأقوم بإنزال الحزام له ثم أرفعه إلى الجزء الآمن من الحافة.

قمنا بذلك دون أي حوادث مؤسفة، وسرعان ما وجدنا أنفسنا معًا على حافة شرفة دائرية صغيرة، ذات إطلالة رائعة على وادٍ، يمتد أسفلنا.

وبقدر ما يمكن أن تصل العين، كان مشهد الغابة البديعة والمرجة القرمزية يطوق البحر الصامت، وترتفع المنحدرات المخيفة الرائعة حارسة ذلك كله. تصورنا أننا نرى مئذنة مطلية بالذهب تلمع في الشمس وسط قمم الأشجار المموجة البعيدة، لكننا سرعان ما نبذنا هذا الفكرة على اعتبار أنها مجرد هلوسة تولدت من رغبتنا الكبيرة في اكتشاف المواقع التي يتردد عليها الرجال المتحضرون في هذه البقعة الجميلة، وإن كانت محظورة.

على ضفة النهر أسفلنا، كانت القرود البيضاء الكبيرة تلتهم آخر بقايا رفاق تارس تاركاس السابقين، بينما ترعى قطعان كبيرة من رجال النبات في دوائر ممتدة الاتساع حول المرجة التي أبقوا عليها مقصوصة مثل المروج العشبية الملساء.

ولمعرفتنا أن الهجوم من الشجرة غير مرجح الآن، صممنا على استكشاف الكهف الذي كانت لدينا كل الأسباب للاعتقاد أنه ليس سوى استمرار للمسار الذي اجتزناه بالفعل، والآلهة وحدها تعرف إلى أين يقود، ولكن من الواضح تمامًا أنه يقود بعيدًا عن هذا الوادي المملوء بالوحشية الشرسة.

ومع تقدمنا وجدنا نفقًا بأبعاد متناسبة مُقتطعًا من الجرف الصلب. ترتفع جدرانه حوالي عشرين قدمًا فوق الأرض، ويبلغ عرضه حوالي خمسة أقدام، وسطحه مقوس. لم تكن لدينا أي وسيلة لإشعال ضوء، ولذا تلمسنا طريقنا ببطء في الظلام المتزايد. ظل تارس تاركاس لامسًا أحد الجدارين بينما تلمست أنا الجدار الآخر، وشبكنا أيدينا حتى نحول دون أن نتحرك في تجوالنا نحو مسارات متباعدة وننفصل أو نضيع في متاهة معقدة وملتوية.

لا أعرف مدى ما اجتزناه في النفق بهذه الطريقة، لكننا الآن نواجه عائقًا يسد طريق تقدمنا. كان يشبه الحاجز أكثر منه نهاية مفاجئة للكهف؛ فلم يكن مبنيًّا بمادة الجرف، وإنما من شيء يشبه الخشب شديد الصلابة.

تحسست بصمت على سطحه بيدي، وشعرت بالزر الذي يشير عادة في المريخ إلى باب، مثل مقبض الباب على كوكب الأرض.

ضغطت عليه بلطف، ولسعادتي شعرت بالباب ينفتح أمامي ببطء، وفي اللحظة التالية كنا ننظر إلى شقة ذات إضاءة خافتة، كانت -بقدر ما أمكننا أن نرى- غير مأهولة.

هزت الباب دون ضجة، فتأرجح وهو ينفتح واسعًا، دخلت وتبعني

الثاركي الضخم، إلى الغرفة. وقفنا للحظة صامتين نحدق حول الغرفة، وجعلتني ضوضاء طفيفة خلفي أستدير بسرعة، حيث رأيت لدهشتي، الباب ينغلق بنقرة حادة كأنما بيد غير مرئية.

وعلى الفور انطلقت نحو الباب لفتحه مرة أخرى، فشيء ما في حركة إغلاقه الغريبة، فضلًا عن التوتر وصمت الغرفة المحسوس تقريبًا، كان ينذر بشر كامن يختبئ في هذه الغرفة الصخرية في باطن المنحدرات الذهبية.

خدشت بأصابعي عبثًا في المدخل العنيد، بينما سعت عيناي دون جدوى بحثًا عن نسخة مكررة من الزر الذي أتاح لنا الدخول.

وعندئذ، جلجل من شفاه غير مرئية رنين ضحكة قاسية ساخرة خلال المكان المقفر.

❋ ❋ ❋

(٣)

الغرفة الغامضة

بعد لحظات من توقف دوي الضحكة الفظيعة خلال الغرفة الصخرية، وقفتُ وتارس تاركاس في توتر وصمت مترقب. ولكن لم ينبعث أي صوت آخر في السكون، ولم نشهد أي تحرك على الإطلاق في نطاق رؤيتنا.

ضحك تارس تاركاس طويلًا بهدوء، على طريقة جنسه الغريب في مواجهة أي شيء رهيب أو مرعب. ليس ضحكًا هستيريًّا، وإنما بالأحرى تعبير صادق عن المتعة التي يستمدونها من الأشياء التي تثير اشمئزاز رجال كوكب الأرض وتحرك دموعهم.

لقد رأيتهم مرارًا وتكرارًا يتدحرجون على الأرض في نوبات جنون من المرح، يتعذر السيطرة عليها، عندما يشهدون سكرات موت النساء والأطفال الصغار تحت التعذيب في ذلك الاحتفال الشيطاني لدى المريخيين الخُضر- المباريات الكبرى.

نظرت إلى الثاركي ورأيت ابتسامة على شفتيه، فهنا حقًّا كانت هناك حاجة ماسة لوجه مبتسم أكثر من ذقن مرتجف.

سألته: «ماذا تستنتج من هذا كله؟ في أين مكان شيطاني نحن؟».

نظر لي مندهشًا.

وقال مكررًا: «أين نحن؟ أتقول لي، جون كارتر، أنك لا تعرف أين أنت؟».

«كل ما يمكنني تخمينه أننا في برسوم. لكن وجودك ووجود القرود البيضاء الكبيرة يجعلني أستبعد حتى هذا التخمين؛ فالمشاهد التي رأيتها اليوم تختلف عن أشياء برسوم الحبيبة كما عرفتها من عشر سنوات طوال، بمثل ما تختلف عن عالم مسقط رأسي.

«كلا، تارس تاركاس، لا أعرف أين نحن»

«أين كنت منذ أن فتحت بوابات مصنع الجو الجبارة منذ سنوات، بعد أن مات الحارس وتوقفت المحركات وكانت برسوم كلها تحتضر، إضافة إلى من مات بالفعل من الاختناق؟ لم نعثر حتى على جثمانك أبدًا، على الرغم من أن رجال عالَم برمته ظلوا يبحثون عنك لسنوات، وعلى الرغم من أن جيداك هيليوم وحفيدته، أميرتك، رصدت مكافآت سخية إلى حد أنه حتى الأمراء من الدم الملكي انضموا إلى البحث عنك.

«وعندما فشلت جميع الجهود الرامية إلى تحديد موقعك، لم يكن هناك سوى استنتاج واحد وهو أنك اتخذت رحلة الحج الطويلة النهائية نحو نهر إيس الغامض في انتظار ديجاه ثوريس الجميلة، أميرتك، في وادي دور عند شواطئ بحر كوراس المفقود.

لم يتمكن أحد من تخمين سبب ذهابك، فأميرتك لا تزال حية...».

قاطعته قائلًا: «شكرًا للرب. لم أجرؤ على سؤالك عنها خشية أن أكون قد تأخرت في إنقاذ حياتها؛ فقد كانت ضعيفة للغاية عندما تركتها في حدائق تاردوس مورس الملكية في تلك الليلة البعيدة؛ كانت على درجة من الضعف إلى حد أنني بالكاد ما كنت آمل حينذاك أن أصل إلى مصنع الجو قبل أن تضيع مني روحها الحبيبة إلى الأبد. هي تعيش حتى الآن؟».

«تعيش، جون كارتر».

ذكّرته: «لم تقل لي أين نحن».

«نحن حيث توقعت أن أجدك جون كارتر، وأن أجد شخصًا آخر. أنت تعرف منذ سنوات عديدة قصة المرأة التي علمتني الشيء الذي تربى المريخيون الخُضر على كراهيته، المرأة التي علمتني الحُب. وتعرف التعذيب القاسي والموت الفظيع اللذين جلبهما لها حُبها على يد الوحش تال هاجوس.

«كنت أعتقد أنها تنتظرني عند بحر كوراس المفقود.

وأنت تعرف أيضًا أن رجلًا من عالم آخر، أنت جون كارتر، قد علمت هذا الثاركي القاسي معنى الصداقة؛ وكنت أعتقد أنك أنت أيضًا تجوب وادي دور الخالي من الهموم.

وهكذا، كنتما أنتما الاثنان أكثر من أشتاق إليهما عند نهاية الحج الطويل الذي يتعين أن أتخذها في يوم ما. ونظرًا لانقضاء الوقت الذي كانت تأمل خلاله ديجاه ثوريس أن تأتي مرة أخرى إلى جانبها –فقد

حاولت دومًا الاعتقاد أنك عدت مؤقتًا إلى كوكبك- فقد أطلقت العنان لاشتياقي الهائل وبدأت منذ شهر الرحلة، التي يشهد يومنا هذا على نهايتها. هل تدرك الآن أين أنت، جون كارتر؟»

سألته: «هل هذا هو نهر إيس، الذي يصب في بحر كوراس المفقود في وادي دور؟».

أجابني: «هذا هو وادي الحب والسلام والراحة، الذي يتوق كل برسومي منذ زمن سحيق إلى الحج إليه في نهاية حياة من الكراهية والقتال وإراقة الدماء. هذا هو الفردوس، جون كارتر».

كانت نبرة صوته باردة وساخرة؛ فلم تكن مرارته تعكس سوى خيبة الأمل الرهيبة التي يعانيها. وربما كان سبب غياب أي مظهر تعبيري لدى الثاركي يرجع إلى خيبة الأمل المخيفة تلك، وإلى هذا النسف لآماله وتطلعاته في حياة طويلة، وإلى هذا الاجتثاث لتقاليد عريقة قديمة، ربما كانت لتعذُر ظهور أي مظاهر لدى الثاركي.

وضعت يدي على كتفه.

قلت: «أنا آسف»، فلم يكن هناك أي شيء آخر يمكنني قوله.

«يمكنك أن تفكر، جون كارتر، في هذه البلايين التي لا تُعد ولا تُحصى من سكان برسوم الذين يتخذون طواعية رحلة الحج إلى هذا النهر القاسي منذ بداية الزمن، وفقط ليقعوا في براثن تلك المخلوقات الرهيبة الشرسة التي هاجمتنا اليوم.

هناك أسطورة قديمة تقول إن رجلًا أحمر عاد في يوم ما من ضفاف

بحر كوراس المفقود، عاد من وادي دور، عبر نهر إيس الغامض. وتقول الأسطورة إنه نطق كُفرًا مخيفًا بروايته عن المتوحشين البشعين الذين يسكنون واديًا مملوءًا بالمحبة المدهشة، متوحشين ينقضون على كل برسومي عندما ينهي رحلة حجه ويفترسونه على ضفاف البحر المفقود حيث كان يتطلع إلى العثور على الحب والسلام والسعادة. لكن القدماء قتلوا الكافر، حيث تقضي التقاليد بقتل من يعود من حضن نهر الغموض.

«لكننا نعلم الآن أنه لم يكن كافرًا، وأن الأسطورة حقيقية، وأن الرجل لم يقل سوى ما رآه. ولكن، ماذا يفيدنا هذا، جون كارتر؛ فإذا نجحنا حتى في الهروب، ألن يتعاملون معنا أيضًا بوصفنا كفارًا؟ نحن بين يقينية حيونات الثوات[٦] الوحشية وحقيقة حيوانات الزيتيدار[٧] المجنونة – ولا يمكننا الهرب من أي منهما».

أجبته: «كما يقول رجال كوكب الأرض، تارس تاركاس، نحن بين الشيطان والبحر العميق». ولم أتمكن من منع ابتسامة على مأزقنا.

---

(٦) الثوات: حيوان مريخي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام، ولديه أربعة أرجل على كل جانب، وذيله عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري؛ وفمه مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. وهو خال تمامًا من الشعر، ولون بشرته هو الرمادي الذي تشوبه الزُرقة. أما بطنه فلونه أبيض، ويتدرج لون سيقانه بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولًا إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامه. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر، مما يسهم أيضًا في تحركه دون ضوضاء؛ وهو الأمر الذي يُشكل، إضافة إلى تعدد سيقانه، سمة مميزة لحيوانات المريخ http://barsoom.wikia.com/wiki/Thoat – المترجمة.

(٧) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات الجر الثقيلة حيث يُستخدمه المريخيون غالبًا في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجر المركبات الضخمة .http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar – المترجمة.

«لا يوجد شيء يمكننا القيام به، دعنا نأخذ الأمور كما تأتي، ويمكنك على الأقل أن تشعر بالرضا لمعرفة أن أيًّا كان من يقتلنا سوف يُحصي في نهاية المطاف أعدادًا من قتلاه أكبر كثيرًا مما سيحصل عليه في المقابل. فالقرود البيضاء، أو رجال النبات، أو البرسوميون الخُضر أو الحُمر -أي من كان سيتمكن من قتلنا في النهاية- سوف يعرف مدى ما تكلفه من أرواح لقتل جون كارتر، أمير بيت تاردوس مورس، وتارس تاركاس، جيداك ثارك، في وقت واحد».

لم يسعني سوى الضحك على فكاهته المتجهمة، وشاركني في إحدى تلك الضحكات النادرة التي تتسم بمتعة حقيقية؛ وهي أحد سمات هذا القائد الثاركي الشرس التي تُميزه عن الآخرين من جنسه.

وأخيرًا صاح قائلًا: «ولكن ماذا عنك، جون كارتر، إذا لم تكن هنا طوال هذه السنوات فأين كنت، وكيف وجدتك هنا اليوم؟».

أجبته: «لقد عدت إلى كوكب الأرض. بقيت لعشر سنوات طوال، بحساب سنوات كوكب الأرض، أُصلي وأتمنى اليوم الذي يحملني مرة أخرى إلى كوكبكم هذا المتجهم القديم، الذي مع كل تقاليده القاسية والفظيعة، أشعر تجاهه برابطة من التعاطف والحب أكبر حتى من تلك التي تربطني بالعالم الذي ولدت فيه.

بقيت لعشر سنوات متحملًا الموت حيًّا نتيجة عدم اليقين والشك بشأن ما إذا كانت ديجاه ثوريس قد عاشت، والآن ولأول مرة خلال تلك السنوات تُستجاب صلواتي وينزاح الشك من على كاهلي وأجد نفسي، ويا لغرابة قدري القاسي، مُلقًى في بقعة صغيرة من برسوم

حيث لا يلوح أي مهرب؛ وإذا وجدت مهربًا، فسيكون بتكلفة تخمد إلى الأبد بصيص الأمل الأخير الذي أتشبث به لرؤية أميرتي مرة أخرى في هذه الحياة – وأنت شهدت اليوم بأي عجز بائس يتوق رجل إلى حياة مادية في الآخرة.

قبل أن أراك بمجرد نصف ساعة وأنت تقاتل رجال النبات، كنت أقف تحت ضوء القمر على ضفاف نهر واسع على الشاطئ الشرقي لأجمل بقاع كوكب الأرض. لقد أجبتك يا صديقي. هل تصدقني؟».

«أصدقك»، أجاب تارس تاركاس، «على الرغم من عدم قدرتي على الفهم».

خلال حديثنا كنت أبحث بعيني داخل الغرفة. كان طولها ربما مائتي قدم ونصفًا من حيث الاتساع، مع ما بدا مدخلًا في وسط الجدار يقع مباشرة في مقابل المدخل الذي دخلنا من خلاله.

كان المكان محفورًا من مادة الجرف، التي تبدو كالذهب المعتم في ظل الضوء الخافت الذي يشع من مصدر ضوء ضئيل من الراديوم يقع في منتصف السقف وينتشر عبر أبعاد المكان الكبيرة. كما تتناثر هنا وهناك أسطح مصقولة من الياقوت والزمرد والماس، كمساحات على ذهب الجدران والسقف. أما الأرضية، فهي من مادة أخرى شديدة الصلابة، وبالية من كثرة الاستخدام بحيث أصبحت بنعومة الزجاج. وباستثناء البابين، لم أتمكن من تمييز أي علامة على الفتحة الأخرى. ونظرًا لأن الباب الذي عرفناه كان مغلقًا أمامنا، فقد اقتربت من الباب الآخر.

ما إن مددت يدي للبحث عن زر التحكم، حتى رنت ثانية تلك

الضحكة القاسية الساخرة، وكانت قريبة جدًّا مني هذه المرة بحيث إنني تراجعت للخلف لاإراديًّا، وشددت قبضتي بأقصى طاقتها على مقبض سيفي الكبير.

وعندئذ ردد صوت أجوف من الزاوية البعيدة للغرفة الكبيرة مترنمًا: «ليس هناك أمل، ليس هناك أمل؛ الموتى لا يعودون، الموتى لا يعودون؛ ولن يُبعث الموتى. لا تأمل، فليس هناك أمل».

تحولت أعيننا على الفور نحو مصدر الصوت، لكننا لم نتمكن من رؤية أحد على مرمى البصر. ويجب أن أعترف أن قشعريرة باردة أخذت تسري على طول عمودي الفقري، وتصلب الشعر القصير في قاعدة رأسي وارتفع، كما يحدث لشعر رقبة الكلب عندما ترى عيناه في الليل تلك الأشياء الخارقة للطبيعة التي تخفى عن نظر الرجل.

سرت مسرعًا نحو الصوت الحزين، لكنه توقف قبل أن أصل إلى الجدار الآخر، ثم انبعث من الطرف الآخر للغرفة صوت آخر حاد وثاقب.

صرخ الصوت قائلًا: «حمقى! حمقى! أتتصورون أن بإمكانكم هزيمة قوانين الحياة والموت الأبدية؟ أتريدون الاحتيال على إيسوس الغامضة، إلهة الموت، ولا تعطونها مستحقاتها العادلة؟ ألم يأخذكم مبعوثها الجبار، نهر إيس القديم، في حضنه الداكن ويحملكم بناء على طلبكم إلى وادي دور؟

أتتصورون أيها الحمقى أن إيسوس ستتخلى عن حقها؟ أتتصورون أن بإمكانكم الهرب من المكان الذي لم تهرب منه روح واحدة عبر جميع

العصور التي لا تُعد ولا تُحصى؟

عودوا من الطريق الذي جئتم منه، إلى الوجوه الرحيمة لأطفال شجرة الحياة أو الأنياب اللامعة للقرود البيضاء الضخمة، فهناك تكمن النهاية السريع من المعاناة؛ لكنكم ستكابدون في سبيل غرضكم المتهور شق طرق متاهات المنحدرات الذهبية في جبال أوتز، والمرور عبر أسوار قلاع الثيرن المقدسين المنيعة، وعلى طول طريقكم سيدرككم الموت بأكثر أشكاله رعبًا- موت رهيب إلى حد أن الثيرن المقدسين أنفسهم، الذين يدركون الحياة والموت، سيديرون عيونهم لتجنُّب وحشيته ويغلقون آذانهم لتجنُّب سماع صرخات ضحاياه البشعة.

عودوا أيها الحمقى من الطريق الذي جئتم منه».

ثم تفجرت الضحكة الفظيعة من جزء آخر من الغرفة.

قلت وأنا أستدير نحو تارس تاركاس: «شيء شديد الغرابة».

سألني: «ماذا سنفعل؟ لا يمكننا أن نقاتل الهواء. ربما أفضل العودة ومواجهة أعداء يمكنني أن أشعر بنصلي وهو ينغرز في أجسادهم، وأعرف أنني أبيع حياتي غاليًا قبل أن ينتهي بي المطاف إلى النسيان الأبدي الذي يبدو من الواضح أنه هو الخلود الأكثر عدلًا والأكثر رغبة الذي يحق للمرء الفاني أن يأمل فيه».

أجبته: «إذا لم يكن بإمكاننا أن نقاتل الهواء، كما تقول تارس تاركاس، فلا يمكن من ناحية أخرى أن يقاتلنا الهواء. لقد واجهت في حياتي آلاف المحاربين الأشداء والسيوف الحادة وتغلبت عليهم، ولن

تجعلني الرياح أتراجع؛ ولا يجوز أنت تفعل أيها الثاركي».

أجاب المحارب الأخضر: «لكن الأصوات غير المرئية قد تنبعث من مخلوقات غير مرئية وخفية، تستخدم سيوفًا غير مرئية».

صحت قائلًا: «هذا هراء، تارس تاركاس، فتلك الأصوات تأتي من كائنات حقيقية مثلك أو مثلي. وتتدفق في عروقها دماء الحياة، التي ربما يمكن إراقتها بنفس السهولة مثل دماءنا. أما عن كونها غير مرئية بالنسبة لنا، فهذا أفضل دليل في رأيي على أنها كائنات فانية؛ ولا تتحلى حتى بالشجاعة. أتعتقد، تارس تاركاس، أن جون كارتر سوف يفر من أول صيحة يطلقها عدو جبان لا يجرؤ على الخروج إلى العلن ومواجهة نصل قوي؟».

تحدثت بصوت عال بحيث سمعني دون شك خصومنا المحتملون، فقد كنت مجهدا من هذا الفشل الذريع المرهق للأعصاب. كما تبادر إلى ذهني أيضًا أن العملية برمتها ليست سوى خطة لتخويفنا من العودة مرة أخرى إلى وادي الموت الذي هربنا منه، وإيهامنا أن المخلوقات الوحشية هناك يمكن أن تجهز علينا بسرعة.

ساد الصمت لفترة، ثم صدر فجأة صوت خافت حذر من ورائي جعلني أستدير فجأة لأرى حيوان البانث متعدد الأرجل يتسلل متلويًا نحوي.

والبانث حيوان مفترس شرس، يطوف في التلال المنخفضة المحيطة ببحار المريخ القديم الميتة. وهو مثل جميع الحيوانات المريخية أصلع تقريبًا، إلا من شعر كثيف خشن كبير -كالأسد- حول رقبته السميكة.

جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشرة أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراء هائلة وجاحظة وتضيف لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع.

خلال تسلله نحوي كان يضرب بذيله القوي جانبيه الأصفرين؛ وعندما أدرك أنني اكتشفته، أصدر هديره المرعب الذي غالبًا ما يُجمّد فريسته إلى شلل مؤقت في اللحظة التي ينقض فيها مهاجمًا.

وهكذا شرع في اندفاعه بكتلته الضخمة نحوي، لكن صوته الجبار لم يصبني بشلل الرعب، بل واجه سلاحي الفولاذي البارد بدلًا من لحمي اللين الذي فغر فكيه القاسيين باتساع لالتهامه.

وخلال لحظة سحبت نصلي من قلب هذا الأسد البرسومي الضخم بعد أن همد، واستدرت نحو تارس تاركاس وفوجئت لرؤيته يواجه وحشًا مماثلًا.

ما إن أجهز على خصمه بسرعة، حتى استدرت -كأنما بفعل غريزة عقلي الباطن حارسي- فرأيت وحشًا آخر من قاطني براري المريخ الهمجيين يقفزون عبر الغرفة في اتجاهي.

ومن تلك اللحظة ولمدة ساعة تقريبًا، تعاقب هجوم تلك المخلوقات القبيحة علينا واحدًا بعد الآخر، قافزين من الهواء الخالي حولنا.

كان تارس تاركاس راضيًا؛ فهذا شيء ملموس يمكنه جرحه وطعنه

بنصله الكبير، بينما شعرت من جانبي أن هذا التحول كان تحسنًا ملحوظًا أفضل كثيرًا من مجرد أصوات غريبة تصدر من شفاه غير مرئية.

لم يكن هناك أي شيء خارق للطبيعة في أعدائنا الجدد، وهو ما تجلى واضحًا من عوائهم من الغضب والألم عندما شعروا بالفولاذ الحاد يفتك بهم، فضلًا عن الدماء الحقيقية التي أخذت تتدفق من شرايينهم المقطوعة لموتهم موتًا حقيقيًّا.

لاحظت خلال فترة هذا التنمر الجديد أن الوحوش لا تظهر إلا عندما ندير ظهورنا؛ فنحن لم نشهد مطلقًا أي منهم يتجسد من الهواء، كما أنني لم أفقد للحظة قدراتي العقلية الممتازة بحيث أنخدع ولو مرة واحدة بالاعتقاد بأن الوحوش جاءت إلى الغرفة بأي طريقة أخرى غير مدخل خفي مُغلق بإحكام.

من بين حلي عتاد تارس تاركاس الجلدي - وهي طريقة الملبس الوحيدة التي يرتديها المريخيون، إضافة إلى غطاء الرأس الحريري وأغطية الحرير والفراء للحماية من البرد بعد حلول الظلام - كانت هناك مرآة صغيرة بحجم مرآة اليد التي تستخدمها النساء، وكانت معلقة على ظهره العريض في منتصف المسافة بين كتفيه ووسطه.

وما إن وقف ينظر إلى خصمه الذي سقط الآن، حتى وقعت عيناي على هذه المرآة ورأيت على سطحها اللامع صورة مشهد جعلني أهمس:

«لا تتحرك، تارس تاركاس! لا تُحرك أي عضلة من عضلاتك!».

لم يسألني عن السبب، لكنه وقف كصورة منحوتة، بينما ظلت عيني

تراقب ذلك الشيء الغريب الذي كان يعني لنا الكثير.

ما رأيته كان حركة سريعة لجزء من الجدار ورائي. كان يدور مستندًا إلى محاور، ويدور معه جزء من الأرضية يقع أمامه مباشرة. كأنك قمت بتثبيت بطاقة زائر من نهايتها فوق دولار فضي وضعته مسطحًا على مائدة، بحيث إن حافة البطاقة تقسم سطح العملة تمامًا.

تُمثل البطاقة الجزء الدوار من الجدار، ويُمثل الدولار الفضي جزء الأرضية. وكلاهما مثبت بإحكام داخل أجزاء الأرضية والجدار المتجاورة، بحيث يصعب ملاحظة وجود أي صدع أو شق في ضوء الغرفة الخافت.

كشف اكتمال نصف الاستدارة عن وحش هائل يجلس فوق ذلك الجزء من الأرضية الدوارة التي تقع على الجانب الآخر، قبل أن يبدأ الجدار في التحرك. وعندما توقفت حركة هذا القسم، أصبح الوحش في مواجهتي وكل منا في جانب – كان الأمر في منتهى البساطة.

على أن أكثر ما أثار اهتمامي هو أن الفتحة التي نتجت عن دوران القسم لنصفه قد أظهرته. كانت غرفة كبيرة، جيدة الإضاءة، تضم العديد من الرجال والنساء مقيدين بالسلاسل إلى الجدار، وأمامهم رجل شرير الوجه، بشرته ليست حمراء كرجال المريخ الحُمر، ولا خضراء كالرجال الخُضر، لكنه أبيض، مثلي، ولديه كتلة كبيرة من الشعر الأصفر المتدفق؛ ومن الواضح أنه يتولى توجيه وتشغيل حركة المدخل السري.

كان السجناء وراءه من المريخيين الحُمر. ومقيد بالسلاسل معهم عدد من الوحوش الشرسة مثل تلك التي هاجمتنا، وعدد آخر على نفس

الدرجة من الشراسة.

استدرت بقلب مستريح إلى حد كبير لمواجهة عدوي الجديد.

قلت لرفيقي: «راقب جدار الغرفة ناحيتك، تارس تاركاس، فهم يُطلقون الكائنات الوحشية علينا من خلال المداخل السرية في الجدار». كنت قريبًا جدًّا منه، وتحدثت هامسًا حتى لا يكتشف جلادونا أنني عرفت سرهم.

لم يهاجمونا طوال مدة بقائنا متواجهين؛ وهكذا اتضح لي تمامًا أن تلك القواطع كانت مثقوبة على نحو ما بحيث يمكنهم مراقبتنا منها.

وبعد فترة طرأت في ذهني خطة عمل. اقتربت من تارس تاركاس، وكشفت له خطتي هامسًا مع إبقاء عيني مركزة على ناحيتي من الغرفة.

أبدى الثاركي العظيم موافقته على اقتراحي، ووفقًا لخطتي بدأ يتراجع للوراء في اتجاه الجدار الذي أواجهه، بينما أتقدم أنا ببطء أمام الثاركي.

عندما وصلنا إلى مسافة حوالي عشرة أقدام من المدخل السري أوقفت رفيقي، وطلبت منه محذرًا أن يبق بلا حركة على الإطلاق إلى أن أعطيه الإشارة المتفق عليها. ثم أسرعت مُديرًا ظهري إلى الباب الذي أكاد أن أشعر من خلاله بأعين جلادينا المحتملين المشتعلة المؤذية.

وعلى الفور سعيت بعيني إلى المرآة المعلقة على ظهر تارس تاركاس، وفي اللحظة التالية كنت أراقب عن كثب ذلك القسم من الجدار الذي يقذف بأهواله الوحشية علينا.

لم أنتظر طويلًا، إذ بدأ الآن السطح الذهبي يتحرك بسرعة. وما إن بدأ في الحركة، حتى أعطيت الإشارة إلى تارس تاركاس، وانطلقنا في وقت واحد نحو النصف المنحسر من الباب الدائري. وبالطريقة نفسها، اندفع الثاركي وقفز نحو الفتحة التي أحدثها القسم المتأرجح.

حملتني قفزة واحدة إلى الغرفة المجاورة، وجلبتني وجهًا لوجه مع الشخص الذي سبق أن رأيت وجهه القاسي. كان في مثل طولي تقريبًا، وعضلاته قوية، ويشبه في كل التفاصيل الخارجية رجال كوكب الأرض بشكل دقيق.

كان مُعلقًا إلى جانبه سيفًا طويلًا، وسيفًا قصيرًا، وخنجرًا، وأحد مسدسات الراديوم المدمرة الشائعة في المريخ.

لم أكن مسلحًا في واقع الأمر سوى بسيف طويل. وبالتالي، وفقًا لقوانين وأخلاقيات المعركة في أي مكان على برسوم، يجب ألا يقابلني سوى سلاح مماثل أو أقل. ولكن يبدو أن هذه القاعدة لا تسري على الحس الأخلاقي لعدوي؛ فقد سحب مسدسه قبل أن أكاد ألمس الأرضية بجانبه، بيد أن ضربة من سيفي الطويل أطارت المسدس من قبضته قبل أنه يتمكن من إطلاقه.

وعلى الفور سحب سيفه الطويل، وهكذا تساوت أسلحتنا وشرعنا بجدية في واحدة من أصعب المعارك التي خضتها من قبل.

كان مبارزًا رائعًا، ومن الواضح أنه متمرس؛ بينما أنا لم أمسك قبل صباح هذا اليوم بمقبض سيف لعشر سنوات طوال.

لكني لم أستغرق وقتًا طويلًا لأستعيد مهاراتي القتالية بسهولة؛ ففي خلال بضع دقائق بدأ الرجل يدرك أنه التقى أخيرًا بنظير له.

تلون وجهه غضبًا لما وجد سيفي الحارس منيعًا، بينما كان الدم يتدفق من عشرات الجروح الطفيفة على وجهه وجسمه.

قال وهو يصدر صوتًا كالهسهسة: «من أنت أيها الرجل الأبيض؟ يبدو واضحًا من لون بشرتك أنك من العالم الخارجي ولست من برسوم. وأنت لست منا».

كانت عبارته الأخيرة بمثابة سؤال.

جازفت بتخمين جامح: «ماذا لو كنت من معبد إيسوس؟».

قال مصيحًا: «أنت في حماية الإلهة إذن»، ووجهه يتحول إلى اللون الأبيض تحت الدماء التي أصبحت تغطي وجهه الآن تقريبًا.

لم أكن أعرف كيف أواصل ما قلته، لكنني أبعدت الفكرة بحرص لاستخدامها في المستقبل إذا ما اقتضت الظروف. ولأن كل ما عرفه عني أنني من معبد إيسوس، فقد أشار رده إلى وجود رجال مثلي هناك، وأن هذا الرجل إما يخشى سكان المعبد أو يحمل لأشخاصهم أو سلطتهم تبجيلًا بحيث ارتعد من مجرد التفكير في الضرر والإذلال الذي أنزله على أحدهم.

على أن طبيعة شغلي الشاغل معه حاليًا مختلفة ولا تتطلب أي قدر كبير من التفكير المجرد؛ أي المطلوب أن أضع سيفي بين ضلوعه، وقد نجحت في ذلك خلال عدة ثوان، وليس على الفور.

شاهد السجناء المقيدون بالسلاسل القتال في صمت متوتر؛ لم يصدر صوت في الغرفة عدا أصوات تصادم سيوفنا المتقاتلة، ودبيب أقدامنا العارية، وبضع كلمات همسنا بها لبعضنا بعضًا من خلال أسناننا المطبقة بإحكام، بينما واصلنا مبارزتنا المميتة.

وعندما سقط جسد خصمي كتلة هامدة على الأرض، انطلقت صرخة تحذير من إحدى السجينات.

صاحت: «دُر! دُر! إنه خلفك!». استدرت مع سماعي أول نبرة في صرختها المدوية، ووجدت نفسي في مواجهة رجل ثان من نفس جنس الرجل الراقد أمام قدمي.

لقد تسلل الرجل خلسة من ممر مظلم، وكاد أن ينقض فوقي بسيفه المرفوع قبل أن أراه. لم يكن تارس تاركاس على مرأى مني، وكان اللوح السري في الجدار الذي دخلت منه قد أُغلِق.

كم تمنيت أن يكون بجانبي الآن! لقد قاتلت بشكل مستمر تقريبًا لساعات طوال؛ ومررت بتجارب ومغامرات تستنزف حيوية أي رجل، هذا بالإضافة إلى أنني لم آكل ولم أنم لما يقرب من أربع وعشرين ساعة.

قاتلت إلى حد الاستنفاد، وللمرة الأولى من سنوات أتساءل حول قدرتي في التعامل مع خصم. لم يكن أمامي سوى الاشتباك بسرعة وشراسة؛ فقد كان خلاصي الوحيد يكمن في إبعاده عبر هجومي العنيف – فلم أكن آمل في الفوز بمعركة طال أمدها.

لكن الواضح أن الرجل كان لديه تصور آخر؛ إذ تراجع وتصدى

وتجنب وتفادى، إلى أن استنفدني تمامًا خلال الجهد الذي بذلته في محاولة القضاء عليه.

كان مبارزًا بارعًا، أفضل من عدوي السابق. ويجب أن أعترف أنه قادني إلى مطاردة بارعة، اقتربت في النهاية من جعلي أحمق مثيرًا للشفقة - وشخصًا ميتًا في الصفقة.

شعرت بتزايد ضعفي، إلى أن بدأت الكائنات تصبح ضبابية أمام عيني، وأنا أترنح وأتخبط كنائم أكثر مني مستيقظ؛ وبعدها قام بخطوته المفاجئة الصغيرة التي كادت أن تفقدني حياتي.

جعلني أتراجع بحيث وقفت أمام جثة زميله، ثم هاجمني فجأة بحيث اضطررت للتراجع والسقوط على الجثمان؛ وعندما اصطدم به كعبي، طرحتني قوة جسدي إلى الوراء عبر الرجل القتيل.

اصطدم رأسي بالرصيف الصلب بضربة مدوية، ولها وحدها أدين بحياتي؛ إذ أنعشت ذهني وأثار الألم أعصابي، بحيث أصبحت الآن قادرًا على تمزيق عدوي إلى قِطع بيدي العاريتين، وأعتقد حقًّا أنني كان يجب أن أفعل، إلا أن يدي اليمنى لمست قطعة من معدن بارد وأنا أرفع جسدي من الأرض.

تماثل أيدي الرجل المقاتل أعين الشخص العادي عند أدائه لوظيفته، وهكذا لم أكن في حاجة إلى النظر أو التفكير لأعرف أنه مسدس الرجل القتيل، وأنه لا يزال في موقعه حيث أسقطته من قبضته- والآن أصبح في حوزتي.

كان الرجل الذي أسقطتني حيلته يقفز نحوي، ورأس نصله اللامع موجه مباشرة إلى قلبي، وترن من شفتيه جلجلة قاسية وساخرة من الضحك كالتي سمعتها داخل الغرفة الغامضة.

وهكذا مات، التوَت شفتيه الرفيعتين في زمجرة ضحكته البغيضة، وانفجرت رصاصة من مسدس زميله القتيل في قلبه.

سقط جسده فوقي، بقوة اندفاعه المتهور. ويبدو أن مقبض سيفه أصاب رأسي، ذلك أنني فقدت الوعي تحت تأثير سقوط الجثة فوقي.

* * *

(٤)

ثوفيا

أعادني صوت النزاع إلى واقع الحياة مرة أخرى. لم أتمكن للحظة من تحديد البيئة المحيطة بي أو الأصوات التي أفاقتني. ومن وراء الجدار الفارغ الذي وضعت رأسي بجواره، سمعت دبيب أقدام، وزمجرة وحوش شرسة، وصليل التجهيزات المعدنية، وتنفس ثقيل لرجل.

وقفت وألقيت نظرة سريعة حول الغرفة، فوجدت استقبالًا حارًّا. كان السجناء والمتوحشون الأفظاظ مقيدين في سلاسلهم بالجدار المقابل، ويتطلعون نحوي بتعبيرات مختلفة من الفضول، والغضب العنيد، والمفاجأة، والأمل.

بدا الأمل واضحًا بجلاء على وجه الشابة المريخية الحمراء، الذي يشع وسامة وذكاء، ولعبت صرختها التحذيرية دورًا فاعلًا في إنقاذ حياتي.

كانت النمط المثالي لذلك العِرق الرائع الذي يتطابق مظهره الخارجي مع الأعراق التقية في كوكب الأرض، في ما عدا أن هذا

العِرق الأعلى من المريخيين تتخذ بشرته اللون النحاسي الذي يميل إلى الحُمرة الخفيفة. ونظرًا لأنها لم تكن ترتدي أي زينات على الإطلاق، لم أستطع حتى تخمين مكانتها في الحياة، على الرغم من أنها الآن إما سجينة أو عبدة في ظل الظروف الحالية.

مرت عدة ثوان قبل أن تثير الأصوات على الجانب المقابل من القاطع قدراتي، التي تعود ببطء إلى وضعها المرجح، ثم أدركت فجأة أن تارس تاركاس هو من تسبب في هذه الأصوات خلال ما يبدو واضحًا أنه قتال يائس مع حيوانات الرجال الهمج الوحشية.

وبصيحة تشجيع ألقيت بثقلي على الباب السري، لكنني اصطدمت بمادة المنحدرات نفسها. فبدأت في بحث محموم عن سر اللوح الدوار، لكن بحثي كان بلا جدوى. وعندما أوشكت أن أرفع سيفي الطويل في مواجهة الذهب الصلب، نادتني السجينة الشابة.

«أخفض سيفك أيها المحارب الجبار، فسوف تحتاج إليه لأغراض أخرى- لا تحطمه على معدن أخرق، يمكنك الحصول على نتيجة أفضل مع أخف لمسة إصبع ممن يعرف سره».

سألتها: «تعرفين سره إذن؟».

«نعم؛ أطلق سراحي وسأساعدك على الدخول إلى غرفة الرعب الأخرى، إذا كنت ترغب. مفاتيح أغلالي عند أول خصم قتلته. ولكن لماذا تود العودة لتواجه مرة أخرى حيوان البانث الشرس، أو أي شكل آخر من أشكال التدمير التي يطلقونها داخل هذا الفخ المرعب؟».

أجبتها: «لأن صديقي يقاتل هناك بمفرده»؛ وأسرعت نحو جثة حارس غرفة الرعب القاتمة الميت وعثرت على المفاتيح.

كانت هناك العديد من المفاتيح في حلقة بيضاوية، لكن الفتاة المريخية الجميلة انتقت بسرعة المفتاح الذي يفتح القفل الكبير في خصرها؛ وما إن تحررت، حتى أسرعت نحو اللوح السري.

بحثت الفتاة عن مفتاح آخر في الحلقة. كان هذه المرة شيئًا نحيلًا كالإبرة، أدخلته في ثقب يكاد يكون غير مرئي في الجدار. وعلى الفور تأرجح الباب على محوره، وحملني معه القسم المجاور من الأرضية التي كنت أقف عليها إلى الغرفة التي يقاتل فيها تارس تاركاس.

وقف الثاركي العظيم وظهره إلى زاوية في الجدران، بينما يواجهه في شبه دائرة حوالي نصف دزينة من الوحوش الضخمة رابضة في انتظار فتحة. كانت رؤوسهم وأكتافهم التي تغمرها الدماء تشهد على سبب حذرهم، فضلًا عن براعة مبارزة المحارب الأخضر الذي حملت بشرته اللامعة نفس الشهادة الصامتة البليغة على ضراوة الهجمات التي صمد أمامها حتى الآن.

لقد مزقت المخالب الحادة والأنياب القاسية ساقه وذراعه وصدره كالشرائط. وأصبح شديد الضعف نتيجة لجهده المتواصل وفقدان الدم، بحيث أشك أنه لولا الجدار الداعم كان يمكنه أن يقف منتصبًا. بيد أنه لا يزال يواجه خصومه القساة الأشداء بالمثابرة وشجاعة عِرقه التي لا تُقهر- كان تجسيدًا لذلك المثل القديم في قبيلته: «اترك للثاركي رأسه ويدًا واحدة، ومع ذلك سوف ينتصر».

عندما رآني أدخل، مست ابتسامة قاتمة شفتيه المتجهمتين، لكنني لا أعرف ما إذا كانت ابتسامته تدل على الارتياح أم مجرد المزاح على مشهدي، فالدماء تغطيني وحالتي فظيعة.

وما إن أوشكت الدخول إلى الصراع بسيفي الطويل الحاد، حتى شعرت بيد لطيفة على كتفي؛ فاستدرت ووجدت لدهشتي أن المرأة الشابه قد تبعتني إلى داخل الغرفة.

قالت هامسة: «انتظر، اتركهم لي»، ثم دفعتني وتقدمت دون سلاح لمواجهة حيوانات البانث المزمجرة.

عندما اقتربت منهم، قالت كلمة واحدة مريخية بنبرة منخفضة، وإن كانت آمرة. ومثل البرق انقضت عليها الوحوش الضخمة، فتصورت أنني سأراها ممزقة قبل أن أتمكن من الوصول إلى جانبها، لكن تلك الكائنات سكنت بالأحرى أمام قدميها مثل الجِراء التي تتوقع عقوبة جلد مستحقة.

تحدثت الفتاة إليهم مرة أخرى بنبرة منخفضة جدًّا، بحيث لم أتمكن من سماع أي كلمة، ثم انطلقت نحو الجانب الآخر من الغرفة وفي أعقابها الوحوش الستة الجبارة. أرسلتهم واحدًا تلو الآخر خلال اللوح السري إلى الغرفة الأخرى. وعندما مر آخرهم من الغرفة التي نقف فيها مذهولين، استدارت وابتسمت لنا، ثم مرت هي نفسها وتركتنا بمفردنا.

لم ينبس أي منا ببنت شفة للحظة، ثم قال تارس تاركاس:

«سمعت القتال خلف القاطع الذي مررت أنت من خلاله، لكنني لم أخش عليك، جون كارتر، إلى أن سمعت صوت إطلاق النار من المسدس. أعرف أن برسوم كلها لم تشهد أي رجل يمكنه أن يواجهك بأسلحة معدنية ويعيش، لكن إطلاق النار نزع ما تبقى لدي من أمل؛ لأنني أعرف أنك لا تحمل أسلحة نارية. قل لي ماذا حدث».

فعلت ما طلبه، ثم توجهنا معًا نحو اللوح السري الذي دخلت لتوي إلى الشقة من خلاله - اللوح الذي يقع في الطرف الآخر من الغرفة الذي قادت الفتاة خلاله رفاقها المتوحشين.

ولخيبة أملنا استعصى اللوح أمام كل جهد بذلناه لفتح قفله السري. وشعرنا أننا ما إن نتمكن من تجاوزه، حتى سيصبح لدينا أمل ضئيل للنجاح في الخروج إلى العالم الخارجي.

لقد أدى بنا وجود السجناء مقيدين بالسلاسل في الداخل إلى الاعتقاد أن هناك قطعًا وسيلة للهرب من المخلوقات الرهيبة التي تسكن هذا المكان الذي لا يوصف.

انتقلنا مرارًا من باب إلى باب، من اللوح الذهبي المُحير في إحدى أطراف الغرفة إلى نظيره المُحير أيضًا في طرفها الآخر.

وعندما أوشكنا على فقدان أي أمل، دار أحد الألواح بصمت نحونا، وبجانبنا كانت تقف مرة أخرى المرأة الشابة التي قادت البانث بعيدًا عنا.

سألتنا: «من أنتما؟ وما مهمتكما، وكيف تتحليان بتلك الجرأة

ومحاولة الهرب من وادي دور والموت الذي اخترتماه؟».

قلت: «لم أختر الموت يا فتاة. أنا لست من برسوم، ولم أتخذ بعد طريق الحج الطوعي إلى نهر إيس. صديقي هنا هو جيداك جميع الثاركيين، وعلى الرغم من أنه لم يُعبر بعد عن رغبته في العودة إلى عالم الأحياء، فإنني أصطحبه معي من الكذبة الحية التي أغرته بالذهاب إلى هذا المكان المخيف.

أنا من عالم آخر. أنا جون كارتر، أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم. ربما تسربت بالمصادفة بعض الشائعات عني داخل حدود مكان إقامتك الشيطاني».

ابتسمت الفتاة.

وأجابت: «نعم، لا شيء يحدث في العالم الذي تركناه ولا نعرفه هنا. لقد سمعت عنك منذ سنوات عديدة. كثيرًا ما يتساءل الثرنيون إلى أين ارتحلت ما دمت لم تأخذ وجهة الحج، ولم يمكن العثور عليك في برسوم».

قلت لها: «أخبريني من أنت، ولماذا أنت سجينة رغم ما تملكين من قوة تدل على ألفتك وسلطتك على تلك الوحوش الشرسة في هذا المكان، بما يتجاوز كثيرًا ما يمكن توقعه من سجينة أو عبدة؟».

أجابت: «أنا من العبيد. لقد بقيت عبدة لخمسة عشر عامًا في هذا المكان الرهيب. والآن بعد أن تعبوا مني وأصبحوا يخشون القوة التي منحتني إياها معرفتي بطرقهم، حكموا علي مؤخرًا بالموت الفعلي».

ارتجفت.

وسألتها: «أي موت؟».

أجابتني: «يأكل الثيرن المقدسون اللحم البشري، وإنما فقط لحم من مات بشفاه رجال النبات الماصة - اللحم الذي يُستمد منه دم الحياة المُدنس. وتحقيقًا لهذه الغاية القاسية أدانوني. كان ذلك سيحدث في غضون ساعات قليلة، لكن ظهورك تسبب في عرقلة خططهم».

سألتها: «هل كان الثرنيون المقدسون هم من شعروا بثِقل يد جون كارتر؟».

«أوه، كلا؛ أولئك الذين هزمتهم هم في مرتبة أقل من الثيرن؛ لكنهم من نفس العِرق القاسي البغيض. يلتزم الثيرنيون المقدسون بالبقاء عند المنحدرات الخارجية لهذه التلال المتجهمة، التي تواجه العالم الواسع، ومن هناك يحصدون ضحاياهم وغنائمهم.

تربط هذه الكهوف بقصور الثيرن المقدسين الفاخرة عبر متاهات من الممرات، ومن خلالها يبعثون أوامرهم إلى الثرنيين الأدنى، وجحافل العبيد، والسجناء، والوحوش الضارية - القتلة، سكان هذا العالم الذي يفتقر إلى الشمس.

ويوجد داخل هذه الشبكة الواسعة من الممرات المتعرجة والغرف التي لا تُعد ولا تُحصى، رجال ونساء ووحوش؛ الذين وُلدوا داخل هذا العالم السفلي البشع القاتم، ولم يروا ضوء النهار إطلاقًا- ولن يروه أبدًا».

ويتم الإبقاء عليهم لتقديم العطايا للعِرق الثيرني، وتزويدهم دومًا بما يفي باحتياجات رياضاتهم وقوتهم.

ودائمًا ما ينجرف حاج تعيس خارج البحر الصامت من نهر إيس البارد، ويهرب من رجال النبات والقرود البيضاء الكبيرة التي تحرس معبد إيسوس، ويقع في براثن الثيرن القاسية؛ أو، كما كان سوء حظي، يطمع فيه الثيرن المقدسون الذين يتصادف وجودهم يراقبون من شرفة فوق النهر، حيث ينحدر من باطن الجبال عن طريق منحدرات الذهب ليصب في بحر كوراس المفقود.

وبحكم العُرف، يصبح كل من يصل إلى وادي دور فريسة شرعية لرجال النبات والقرود، بينما تصبح أسلحته وحليه من نصيب الثيرن. ولكن إذا هرب أحد من سكان الوادي المرعبين ولو لساعات قليلة، يعتبره الثيرن من حقهم. ومرة أخرى، أي ثيرني مقدس يقوم بواجبه في المراقبة ويرى ضحية يشتهيها، فإنه غالبًا ما يتغاضى عن حقوق المتوحشين اللاعقلانيين في الوادي ويظفر بغنيمته بوسائل كريهة، إن لم يتمكن من الفوز بها بوسائل عادلة.

ويُقال إن بعض الضحايا المخدوعين بالخرافات البرسومية يهربون أحيانًا من براثن هذا العدد الذي لا يُحصى من الأعداء المتربصين بدربهم من لحظة خروجهم من الممر تحت الأرضي، الذي يتدفق خلاله نهر إيس لمسافة ألف ميل قبل أن يدخل وادي دور للوصول إلى جدران معبد إيسوس. أما عن المصير الذي ينتظرهم، فلا يمكن حتى للثيرن المقدسين أن يخمنوه؛ فمن مر خلال تلك الجدران

المذهبة لم يعُد أبدًا ليكشف الأسرار التي تحملها منذ بداية الزمن.

إن معبد إيسوس بالنسبة للثيرن يماثل ما يتخيله أناس العالم الخارجي عن وادي دور؛ أي المرفأ النهائي للسلام والملاذ والسعادة، الذي يذهبون إليه بعد هذه الحياة ويعيشون الخلود الأبدي وسط مباهج اللحم الذي يغري بشدة هذا العِرق من عمالقة العقل وأقزام الأخلاق».

قلت: «إذن يُعتبر معبد إيسوس فردوسًا داخل الفردوس. لنأمل أنه سيُطبق على الثيرن هناك ما يُطبقه الثيرن هنا على الآخرين».

غمغمت الفتاة: «من يدري؟».

«الثيرن، بناءً على ما قلتيه، فانون مثلنا؛ ومع ذلك أسمع دومًا حديث أهل برسوم عنهم بأقصى رهبة وتبجيل، بمثل ما يمكن أن يتحدث المرء عن الآلهة».

أجابت: «الثيرن فانون. إنهم يموتون لنفس الأسباب مثلي أو مثلك: عندما يتخذ من لا يعيش منهم فترة الحياة المخصصة، وهي ألف سنة، طريقه بقوة الأعراف في سعادة عبر نفق طويل يؤدي إلى إيسوس.

ومن المفترض أن من يموتون قبل ذلك يقضون الوقت المتبقي المخصص لهم على صورة رجال النبات. ولهذا السبب يتصور الثيرن أن رجال النبات مقدسون؛ لأنهم يعتقدون أن كل واحد من هذه المخلوقات البشعة كان ثرنيًّا في السابق».

سألتها: «وهل يموت رجل النبات؟».

«إذ مات قبل انقضاء الألف سنة من مولد الثيرني الذي خلوده متضمَّن داخله، تنتقل الروح إلى قرد أبيض كبير. ولكن إذا مات القرد قبل الموعد الدقيق لنهاية الألف سنة، فإن الروح تضيع إلى الأبد وتنتقل إلى جثة أكثر سيليان[٨] غروي ومخيف، الذي تنزلق الآلاف منه متلوية إلى بحر الصمت في ظل الأقمار المندفعة، عندما تغيب الشمس وتتحرك أشكال غريبة عبر وادي دور».

ضحك تارس تاركاس قائلًا: «إذن فقد أرسلنا اليوم العديد من الثيرن المقدسين إلى السيليان».

قالت الفتاة: «وبالتالي سيكون موتك أكثر رعبًا عندما يأتي، وسوف يأتي- لا يمكنك الهرب».

قمت بتذكيرها: «لقد نجا منه شخص منذ قرون، ويمكننا إعادة ما قام به مرة أخرى».

أجابت يائسة: «لا جدوى من المحاولة».

قلت صائحًا: «لكننا سنحاول، وسوف تأتين معنا، إذا كنت ترغبين».

«كي أموت على يد أُناسي، وأجعل ذكراي عارًا على عائلتي وأمتي؟ أمير من بيت تاردوس مورس يجب أن يعرف أفضل من أن

(٨) السيليان هو مخلوق مائي في بحر كوراس المفقود، وينشط ليلاً. http://barsoom.wikia.com/wiki/Silian- المترجمة.

يقترح شيئًا من هذا القبيل».

استمع تارس تاركاس في صمت، وكان يمكنني أن أشعر بعينيه مثبتتين بإحكام نحوي، وكنت أعرف أنه ينتظر جوابي كأنما ينتظر سماع عقوبته من رئيس هيئة المحلفين.

كانت نصيحتي للفتاة تعني نهايتنا أيضًا؛ فإذا خضعنا للخرافات القديمة قدم الدهر، علينا جميعًا البقاء ومواجهة مصيرنا بأحد الأشكال الفظيعة داخل هذه البقعة المريعة من الرعب والقسوة.

أجبت: «لدينا الحق في الهرب إن استطعنا. لن تتضرر أحاسيسنا الأخلاقية إذا نجحنا؛ فنحن نعرف أن حياة الحب والسلام الأسطورية في وادي دور السعيد ليست سوى نوع من الخداع الشرير. ونعرف أن الوادي ليس مقدسًا؛ ونعرف أن الثيرن المقدسين ليسوا مقدسين؛ وأنهم جنس فانٍ يتسم بالقسوة وتحجر القلب، ولا يعرفون عن حياة الفعلية القادمة أكثر مما نعرف».

كما لا يقتصر حقنا على أن نبذل كل جهد جدي ممكن للهرب، بل هو واجب جليل يجب ألا نتملص منه، حتى مع معرفتنا أننا سنواجه اللعنات والتعذيب على أيدي أناسنا عندما نعود إليهم.

علينا فقط أن نحمل الحقيقة إلى أولئك في الخارج. وعلى الرغم من أنني أؤكد أن احتمال أن تحظى قصتنا بالمصداقية هو احتمال بعيد، لأن الفانين يتشبثون بشدة بالافتتان الغبي بالخرافات المستحيلة، فإننا نصبح جبناء حقًّا إن تنصلنا من الواجب الواضح الذي يواجهنا.

مرة أخرى، وفي ظل أهمية شهادة العديد منا، لدينا فرصة قبولهم الحقيقة التي تحملها عباراتنا، أو على الأقل يمكننا التوصل إلى حل وسط يقضي بإرسال بعثة استقصائية للتحقق من هذه السخرية البشعة بشأن الفردوس».

صمتت الفتاة والمحارب الأخضر وهما يفكران لعدة دقائق. وكانت الفتاة هي من كسرت حاجز الصمت أخيرًا.

قالت: «لم أفكر أبدًا في هذه المسألة بهذه الطريقة. يمكنني بالفعل أن أهب حياتي ألف مرة لأنقذ روحًا واحدة من الحياة الفظيعة التي عشتها في هذا المكان القاسي. نعم، أنت على حق، وسوف أذهب معك بقدر ما يمكننا أن نصل؛ لكنني أشك في أننا سنتمكن أصلًا من الهرب».

نظرت إلى الثاركي مستفسرًا.

تحدث المحارب الأخضر قائلًا: «سواء إلى بوابات إيسوس أو إلى قاع كوراس، إلى الثلوج في الشمال أو في الجنوب، سيتبع تارس تاركاس أي مكان يقودنا إليه جون كارتر. لقد أنهيت حديثي».

صحت: «هيا إذن، علينا أن نبدأ، فنحن لا يمكن أن نكون أبعد من الهروب أكثر مما نحن عليه الآن في قلب هذا الجبل وداخل الجدران الأربعة لغرفة الموت هذه».

قالت الفتاة: «هيا إذن، ولكن دون أن تأمل في أنه لا يمكن إيجاد مكان أسوأ من هذا داخل أراضي الثيرن».

وبعد أن قالت ذلك، قامت بأرجحة اللوح السري الذي يفصلنا عن الشقة التي وجدتها فيها، ودخلناها مرة أخرى إلى الغرفة التي تضم السجناء الآخرين.

كانوا في مجموعهم عشرة من المريخيين الحُمر، رجالًا ونساءً، وعندما شرحنا خطتنا بإيجاز قرروا الانضمام إلينا، على الرغم من أن انضمامهم كان مصحوبًا بقدر لا بأس به من الشكوك بأنهم على هذا النحو قاموا بإغواء القدر بمعارضتهم للخرافات القديمة، مع أن كلًّا منهم كان يعرف من خلال تجربته القاسية زيف هذه البنية بأكملها.

ثوفيا، الفتاة التي حررتها أولًا، سرعان ما أطلقت سراح الآخرين. وتوليت مع تارس تاركاس تجريد جثتي الثيرنيين من أسلحتهما، وضمت السيوف والخناجر ومسدسين من النوع الغريب المميت الذي يقوم المريخيون الحُمر بتصنيعه.

وزعنا الأسلحة بقدر ما يمكن بين أتباعنا، مع إعطاء الأسلحة النارية إلى امرأتين؛ حيث كانت ثوفيا تحمل سلاحًا.

انطلقنا سريعًا وبحذر، وكانت ثوفيا دليلنا، من خلال متاهة الممرات. عبرنا غرفًا كبيرة محفورة في معادن الجرف الصلبة، ومرقنا في ممرات متعرجة، وصعدنا منحدرات شديدة الانحدار، وكثيرًا ما كنا نخفي أنفسنا في تجاويف مظلمة عند سماع صوت وقع أقدام تقترب.

قالت ثوفيا إن مقصدنا هو مخزن بعيد يمكننا أن نجد فيه الكثير من الأسلحة والذخيرة. ومن هناك يمكنها أن تقودنا إلى قمة المنحدرات،

وعندما يتطلب الأمر ذكاء مدهشًا وقتالًا جبارًا كي ننجح في خوض طريقنا من خلال قلب معقل الثيرن المقدسين نفسه لنصل إلى العالم الخارجي.

«وحتى عندئذ أيها الأمير»، قالت صائحة، «فإن ذراع الثيرن المقدسين طويلة، وتصل إلى كل موقع في برسوم. فمعابدهم السرية مخفية في قلب كل مجتمع. أينما نذهب، إن هربنا، سنجد أن خبر وصولنا قد سبقنا، وأن الموت ينتظرنا قبل أن نلوث الهواء بخيانتنا».

مضينا ربما لساعة دون معوقات جدية، وهمست ثوفيا لي أننا نقترب من هدفنا الأول. وعندما دخلنا غرفة كبيرة وجدنا رجلًا، من الواضح أنه ثيرني.

كان يرتدي، بالإضافة إلى أغطيته الجلدية والحلي المرصعة بالجواهر، طوقًا ذهبيًّا كبيرًا حول جبينه توجد جوهرة هائلة في منتصفه تحديدًا، تماثل بدقة تلك التي رأيتها منذ عشرين عامًا على صدر الرجل الصغير العجوز في مصنع الجو.

إنها جوهرة برسوم التي لا تُقدر بثمن. لا توجد سوى جوهرتين فقط من هذا النوع، ويتم ارتداؤها كعلامة مميزة على رتبة ومركز الرجلين العجوزين اللذين كانا يتوليان مهمة تشغيل المحركات الهائلة التي تضخ الجو المصطنع من مصنع الجو الضخم إلى جميع أنحاء المريخ، هذا المصنع الذي وضع سر بواباته الجبارة في حوزتي القدرة على إنقاذ حياة عالم بأسره من الانقراض الفوري.

كان حجم الجوهرة التي يرتديها الثيرني الذي مماثلًا لحجم تلك

التي رأيتها من قبل؛ ويمكنني القول إن قطرها يبلغ بوصة. كانت تطلق تسعة أشعة مختلفة ومتميزة؛ الألوان السبع الأساسية التي يطلقها المنشور في كوكب الأرض، وشعاعين غير معروفين على كوكب الأرض، لكن جمالها الرائع لا يوصف.

عندما رآنا الثيرني، ضاقت عيناه إلى شقين مقززين.

صاح: «توقفوا! ما معنى هذا، ثوفيا؟».

أجابت الفتاة بأن رفعت مسدسها وأطلقت عليه النار مباشرة. سقط دون صوت على الأرض ميتًا.

همست قائلة: «وحش! أخيرًا انتقمت بعد كل هذه السنوات».

ثم التفتت نحوي، في رغبة لتفسير الموقف. اتسعت عيناها فجأة عندما نظرت نحوي، وبدأت تحدثني بألم غاضب.

«أيها الأمير، القدر رحيم بنا. لا يزال الطريق صعبًا أمامنا، ولكن بسقوط هذا الشيء الخسيس على الأرض، يمكننا أن نفوز بالعالم الخارجي. ألم تلحظ الشبه الواضح بين هذا الثيرني المقدس وبينك؟».

كان الرجل في الواقع بنفس قامتي بدقة، لكن عينيه وملامحه كانت مختلفة عني؛ وشعره كان كتلة من الخُصل الصفراء المتدفقة، مثل شعر الاثنين الذين قتلتهما، بينما شعري أسود وقصير.

سألت ثوفيا: «ما وجه التشابه؟ هل تريديني بشعري الأسود القصير أن أشبه كاهن هذه العبادة الشيطانية بشعره الأصفر؟».

ابتسمت، وردت على سؤالي بأن اقتربت من جسد الرجل الذي

قتلته، وجلست على ركبتيها بجواره وأبعدت الطوق الذهبي من جبهته، ولدهشتي المطلقة أزالت شعره كاملًا من رأس جثته.

نهضت، وتقدمت إلى جانبي ووضعت الشعر الأصفر المستعار فوق شعري الأسود، وتوجتني بالطوق الذهبي ذي الجوهرة الرائعة.

قالت: «يمكنك الآن أن تستخدم عتاده أيها الأمير، وأن تسير أينما شئت في عوالم الثيرن، ذلك أن ساتور ثروج كان ثرنيًّا مقدسًا من العصر العاشر، وجبارًا بين جنسه».

عندما انحنيت نحو الرجل الميت تلبية لرغبتها، لاحظت عدم نمو ولو شعره واحدة على رأسه، كان أصلع تمامًا كبيضة.

شرحت ثوفيا عند ملاحظتها لدهشتي: «كلهم هكذا منذ الولادة. إن العِرق الذي ينحدرون منه كان متوجًا بنمو وافر للشعر الذهبي، لكن العِرق الحالي أصلع تمامًا منذ عصور عديدة. على أن الشعر المستعار أصبح جزءًا من ملابسهم، ويعتبرونه جزءًا شديد الأهمية بحيث إنها مدعاة للعار الشديد أن يظهر ثيرني في الأماكن العامة من دونه».

وفي اللحظة التالية، كنت أقف مرتديًا ثوبًا ثرنيًّا مقدسًا.

وبناء على اقتراح ثوفيا، حمل اثنان من السجناء المطلق سراحهم جثة الثيرني الميت على أكتافهم وواصلنا رحلتنا نحو المخزن، الذي وصلنا إليه دون أي أحداث مؤسفة.

وهنا كانت المفاتيح التي حملتها ثوفيا من الثيرني الميت في قبو السجن بمثابة وسيلة لدخولنا الفوري إلى الغرفة، وبسرعة شديدة

تسلحنا جيدًا بالأسلحة والذخيرة.

وبحلول هذا الوقت كنت أشعر بإرهاق شديد بحيث لم أكن قادرًا على الاستمرار، فألقيت بنفسي على الأرض وطلبت من تارس تاركاس أن يحذو حذوي، وأبلغت اثنين من السجناء المطلق سراحهم القيام بمراقبة دقيقة.

وفي لحظة، كنت نائمًا.

* * *

(٥)

دهاليز الخطر

لا أعرف كم استغرقت من الوقت نائمًا على أرضية المخزن، وأعتقد أنها عدة ساعات.

أيقظتني بداية صيحات إنذار. وما إن فتحت عيني، ولم أكن حتى جمعت شتات ذهني لأدرك أين كنت، حتى دوى سيل من الطلقات النارية عبر الدهاليز والممرات تحت الأرضية في سلسلة من الأصداء تصم الآذان.

نهضت في لحظة. كان عشرات من الثيرن الأدنى مرتبة في مواجهتنا من مدخل كبير يقع في الطرف المقابل للمدخل الذي دلفنا منه إلى المخزن. وجدت جثث رفاقي ملقاة حولي، باستثناء ثوفيا وتارس تاركاس، اللذين كانا مثلي نائمين على الأرض وبالتالي نجا ثلاثتنا من أول دورة لإطلاق النيران.

عندما وقفت على قدمي، أخفض الثيرن بنادقهم الشريرة، وتغيرت وجوههم في خليط من الكدر، والذعر، والإنذار بالخطر.

وعلى الفور أدركت الأمر، وتعاملت على أساسه.

صحت بنبرات من الغضب العنيف: «ما معنى هذا؟ هل يُقتل ساتور ثروج على يد خدمه؟».

هتف أحدهم: «رحماك يا سيد العصر العاشر!»؛ بينما توجه الآخرون تدريجيًّا نحو المدخل كأنما يحاولون الهرب خلسة من حضرة الرجل القوي.

همست لي ثوفيا قائلة: «سلهم عن مهمتهم هنا».

صحت: «ماذا تفعلون هنا، أيها الزملاء؟».

«هناك اثنان من العالم الخارجي يتحركان بحرية داخل أملاك الثيرن. ونحن نطاردهم بأمر من الأب الثيرني الأعلى. أحدهم أبيض البشرة وشعره أسود، والآخر محارب أخضر ضخم»؛ وهنا ألقى الزميل لمحة شك مريبة تجاه تارس تاركاس.

قالت ثوفيا وهي تشير إلى الثاركي: «هنا، إذن، واحد منهم؛ وإذا نظرتم إلى هذا الرجل الميت بجوار الباب ستتعرفون على الآخر. وكان الأمر متروكًا إلى ساتور ثروج وعبيده البؤساء لإنجاز ما لم يقدر الثرنيون الحراس الأدنى مرتبة على القيام به - قتلنا أحدهم وأسرنا الآخر؛ ولهذا منحنا ساتور ثروج حريتنا. والآن، لغبائكم، تأتون وتقتلون الجميع ماعداي وتريدون قتل ساتور ثروج القوي نفسه».

بدا الرجال في شدة الخجل والخوف.

توجهت ثوفيا نحوي وسألتني: «أيها الرجل القوي، أليس من

الأفضل أن يلقوا هذه الجثث إلى رجال النبات، ثم يعودون أدراجهم إلى مساكنهم».

قلت: «نعم؛ قوموا بما طلبته ثوفيا».

عندما بدأ الرجال يحملون الجثث، لاحظت أن الشخص الذي انحنى لحمل جثة ساتور ثروج بدأ يتفحص عن كثب وجهه المقلوب، ثم استرق لمحة ماكرة متسللة بطرف عينه في اتجاهي.

أعتقد أنه اشتبه في شيء من الحقيقة؛ لكن صمته أوضح أنه كان مجرد شك لم يجرؤ قط على التعبير عنه.

على أنه أطلق نحوي مرة أخرى لمحة سريعة فاحصة، وهو يحمل الجثة من الغرفة، ثم سقطت عيناه ثانية على الرأس الأصلع اللامع للرجل الميت بين ذراعيه. وقد كشفت اللمحة العابرة الأخيرة التي رأيتها على وجهه، وهو يمر مبتعدًا عني خارجًا من الغرفة، عن ابتسامة انتصار ماكرة على شفتيه.

بقيت أنا وتارس تاركاس وثوفيا فقط. انتزعت دقة تصويب الثيرن القاتل من رفاقنا أي فرصة ضئيلة للفوز بالحرية المحفوفة بالمخاطر في العالم الخارجي.

وبمجرد أن اختفت نهاية الموكب البشع، حثتنا الفتاة على مواصلة رحلتنا مرة أخرى.

كما أشارت أيضًا إلى السلوك المتشكك لدى الثيرني الذي حمل جثة ساتور ثروج.

قالت: «هذا لا يبشر بالخير، يا أمير. فحتى لو لم يتجرأ هذا الزميل على اتهامك بطريق الخطأ، فهناك من هم أعلى منه ولديهم سلطة كافية للمطالبة بتمحيص أكثر دقة، وهذه يا أمير، كارثة بالفعل».

هززت كتفي. يبدو أن نتائج محنتنا يجب أن تنتهي بالموت على أي حال. انتعشت لأنني نمت، لكني ما زلت ضعيفًا من فقدان الدماء. كانت جروحي تؤلمني، وتعذر الحصول على معونة طبية. كم أتوق إلى قوة الشفاء الإعجازية من المراهم والمستحضرات السائلة الغريبة لدى نساء المريخ الخُضر. بإمكانهم علاجي تمامًا خلال ساعة واحدة.

كنت مُحبطًا. لم أشعر من قبل بمثل هذا الشعور باليأس المطلق في مواجهة الخطر. ثم تحركت على وجهي خصل شعر الثيرن المقدسين الصفراء، الطويلة المتدفقة، التي أثارها هبوب بعض الرياح.

هل الطريق إلى الحرية لا يزال مفتوحًا؟ وإذا تصرفنا في الوقت المناسب، ألا يمكننا حتى الهرب قبل أن يدق ناقوس الإنذار العام؟ يمكننا المحاولة على الأقل.

سألت: «ثوفيا، ما أول شيء سيفعله الزميل الذي ذهب؟ وكم يستغرق الوقت قبل عودته إلينا؟».

«سيتوجه مباشرة إلى الأب الثيرني الأعلى، ماتاي شانج العجوز. وقد يضطر إلى انتظار مقابلة، ولكن نظرًا لارتفاع رتبته بين الثيرن الأدنى مرتبة، فهو في الواقع مثل ثوريان(٩) بينهم، فلن يجعله ماتاي شانج ينتظر طويلًا».

---

(٩) الثوريان: هو مخلوق فريد من نوعه، ولديه قدرة عالية على التخاطر والسيطرة على العقل، فضلاً عن شبكة حسية عالية. http://masseffect.wikia.com/wiki/Thorian – المترجمة.

«ثم إذا صدق الأب الثيرني الأعلى قصته، فبعد ساعة أخرى سنرى القاعات والغرف، والساحات والحدائق، مملوءة بالباحثين عنا».

«إذن ما علينا القيام به يجب أن يتم في غضون ساعة. وما أفضل وسيلة، ثوفيا، ما أقصر طريق للخروج من متاهات مملكة الموت السفلية هذه؟».

أجابت: «نمضي مباشرة إلى الجزء العلوي من المنحدرات، يا أمير، وبعد ذلك نتجه عبر الحدائق إلى الساحات الداخلية. وهناك يكمن طريقنا داخل معابد الثيرن وعبرها إلى الفناء الخارجي. ثم الأسوار - أوه يا أمير، إنها محاولة يائسة. لا يمكن لعشرة آلاف محارب شق الطريق للحرية خارج هذا المكان الشنيع.

منذ بداية الزمن يضيف الثيرن، شيئًا فشيئًا وحجرًا بحجر، وسائل للدفاع عن معقلهم. هناك خط متواصل من التحصينات المنيعة يحيط بالمنحدرات الخارجية لجبال أوتز.

وداخل المعابد التي تكمن وراء الأسوار، يوجد مليون مقاتل على استعداد دائم. وتمتلئ الساحات والحدائق بالعبيد، والنساء، والأطفال.

لا شيء يمكنه التحرك على بعد مرمى حجر دون اكتشافه».

«إن لم تكن هناك وسيلة أخرى، ثوفيا، لماذا نسهب التفكير في الصعوبات التي تكتنفها. يجب أن نواجه تلك الصعوبات».

سأل تارس تاركاس: «أليس من الأفضل المحاولة بعد حلول

الظلام؟ فلا تبدو هناك أي فرصة نهارًا».

قالت ثوفيا: «الفرصة ليلًا أفضل قليلًا، ولكن حتى عندئذ تحظ الأسوار بحراسة قوية؛ ربما أفضل من الحراسة نهارًا. كما يقل عدد الناس في الساحات والحدائق».

سألتها: «ما الوقت الآن؟»

قالت: «كنا في منتصف الليل عندما حررتني من السلاسل. وبعد ساعتين وصلنا إلى المخزن. وهناك أنت نمت لمدة أربع عشرة ساعة. وبالتالي أعتقد أن الوقت الآن يقترب من الغروب مرة أخرى. تعال، سنذهب إلى النافذة القريبة من الجرف ونتأكد».

قادت الطريق بعد ذلك خلال ممرات متعرجة، إلى أن وجدنا أنفسنا بعد منعطف مفاجئ عند فتحت تطل على وادي دور.

على يميننا كانت الشمس تغرب، جرم سماوي أحمر ضخم، أسفل السلسلة الغربية لجبال أوتز. وأسفلنا بمسافة قصيرة، يقف الثيرني المقدس مراقبًا في شرفته. كانت عباءته الرسمية القرمزية شديدة الإحكام عليه، تحسبًا من البرد الذي يأتي فجأة مع الظلام عندما تغرب الشمس. يمتص جو المريخ قدرًا قليلًا من حرارة الشمس. فهو شديد الحرارة خلال ساعات النهار، وشديد البرودة في الليل. كما لا يعكس الغلاف الجوي الرقيق أشعة الشمس أو ينشر ضوءها كما يحدث على كوكب الأرض. لا يوجد شفق على المريخ. عندما يختفي جرم النهار السماوي العظيم وراء الأفق، يترك تأثيرًا يماثل تحديدًا ذلك التأثير الذي يُحدِثه إطفاء مصباح وحيد داخل غرفة. فمن

الضوء الساطع، يغوص المرء دون سابق إنذار في الظلام المطلق. ثم تأتي الأقمار؛ أقمار المريخ السحرية الغامضة، تندفع منخفضة مثل النيازك الضخمة أعلى سطح هذا الكوكب.

تضيء الشمس بتألق الضفاف الشرقية لبحر كوراس، والمرج القرمزي، والغابة الرائعة. شاهدنا تحت الأشجار قطعانًا كثيرة من رجال النبات وهم يأكلون. وقف الكبار على أصابع أقدامهم، وكانت ذيولهم القوية ومخالبهم تتولى تشذيب كل ورقة شجر أو غصن متاح. وعندئذ فهمت التقليم الدقيق للأشجار الذي دفعني إلى تكوين فكرة خاطئة عندما فتحت عيني أول ما وصلت على بستان وتصورت أنه ملعب لشعب متحضر.

خلال مشاهداتنا، تجولت أعيننا على نهر إيس المتموج، الذي ينبع من قاعدة المنحدرات أسفلنا. وها هو زورق يظهر من الجبل، محمل بأرواح تائهة من العالم الخارجي. هناك عشرات منهم. وجميعهم من جنس الرجال الحُمر المتحضرين والمثقفين الذين يهيمنون على المريخ.

ومثلنا، سقطت أعين المراقب على الشرفة أسفلنا على المجموعة المحكوم عليها بالهلاك. رفع رأسه، وأخذ يميل بعيدًا فوق الحاجز المنخفض الذي يحيط بموقعه الدائري، وأطلق عويله الصاخب الغريب الذي يستدعي شياطين هذا الجحيم إلى الهجوم.

وقف المتوحشون للحظة وارتفعت آذانهم يصغون، ثم تدفقوا من البستان تجاه ضفة النهر، وهم يقطعون المسافة بقفزات كبيرة خرقاء.

كانت المجموعة قد وصلت إلى اليابسة ويقفون على المرج، عندما ظهر الحشد الفظيع على مرمى أبصارهم. كان جهد الدفاع قصيرًا ودون جدوى. ثم ساد الصمت، حيث غطت المخلوقات الضخمة المثيرة للاشمئزاز أجساد ضحاياها، وغرزت عشرات من الأفواه الماصة نفسها إلى لحم فرائسها.

التفتُ بعيدًا في اشمئزاز.

قالت ثوفيا: «سرعان ما سينتهى دورهم. فالقرود البيضاء الكبيرة تحصل على اللحم عندما ينتهي رجال النبات من استنزاف الشرايين. انظروا، ها هم قادمون».

عندما أدرت عيني في الاتجاه الذي أشارت إليه الفتاة، رأيت العشرات من الوحوش البيضاء الكبيرة تركض عبر الوادي تجاه ضفة النهر. ثم غربت الشمس، وابتلعنا الظلام.

لم تضع ثوفيا الوقت، وقادتنا نحو الممر الذي يتعرج ذهابًا وإيابًا عبر المنحدرات في اتجاه السطح الذي يرتفع آلاف الأقدام عن المستوى الذي كنا فيه.

أعاقت حيوانات البانث الضخمة تقدمنا مرتين، وهي تتجول بحرية خلال الممرات. لكن ثوفيا كانت تتحدث إليهم في كل مرة بكلمة آمرة هامسة، وعندها تتسلل الوحوش المزمجرة المتجهمة مبتعدة.

قلت للفتاة مبتسمًا: «إذا كان بإمكانك حل كافة عقباتنا بسهولة

بقدرتك على التحكم في هؤلاء المتوحشين الشرسين، فلا أرى أي صعوبات في طريقنا. كيف تفعلين ذلك؟».

ضحكت، ثم انتابتها رجفة.

قالت: «لا أعرف تمامًا. عندما جئت إلى هنا أول مرة، أثرت غضب ساتور ثروج؛ لأنني رفضته. فأصدر أوامره بإلقائي في إحدى الحُفر الكبيرة بالحدائق الداخلية. كانت الحفرة مملوءة بحيوانات البانث. في بلدي، كنت معتادة على إصدار الأوامر والقيادة. شيء ما في صوتي، لا أعرف ما هو، يروع الوحوش عندما تنطلق لمهاجمتي».

«وبدلًا من أن تمزقني إلى قطع، كما كان ساتور ثروج يرغب، جثت الحيوانات أمام قدمي. استمتع ساتور ثروج وأصدقاؤه كثيرًا بهذا المشهد إلى حد أنهم أبقوا علي لتدريب المخلوقات الرهيبة والتعامل معها. أنا أعرفهم جميعًا بالاسم. يجوب العديد منهم هذه المناطق المنخفضة، وينبشون الفضلات. فالعديد من السجناء يموتون هنا في قيودهم، وتحل حيوانات البانث مشكلة التنظيف، على الأقل في هذا الصدد».

«ويتم الاحتفاظ بهذه الحيوانات في الحفر بالحدائق والمعابد التي تعلونا؛ فالثرن يخافونهم، وبسبب البانث نادرًا ما يغامرون بالنزول تحت الأرض إلا إذا استدعت مهماتهم ذلك».

خطرت لي فكرة مما قالته ثوفيا الآن.

سألتها: «لماذا لا نأخذ عددًا من البانث ونحررهم قبل أن نصعد فوق الأرض؟»

ضحكت ثوفيا.

وقالت: «هذا سوف يصرف الانتباه عنا، أنا واثقة من ذلك».

وبدأت تناديهم بصوت رخيم منخفض، كأنه شبه خرخرة. وواصلت ذلك ونحن نشق طريقنا الوعر عبر متاهة الدهاليز والغرف تحت الأرض.

سمعت الآن صوت أقدام مبطنة طرية ناعمة قريبة وراءنا، فاستدرت ورأيت زوجين من أعين كبيرة خضراء تلمع في الظلال الداكنة خلفنا. لقد تسللت خلسة نحونا، من نفق متشعب، هيئة صفراء مسمرة متلوية.

اقتحم هدير منخفض وزمجرة غاضبة آذاننا من كل جانب ونحن نمضي مسارعين، استجابت المخلوقات الشرسة واحدًا تلو الآخر لنداء سيدته.

نطقت ثوفيا بكلمة لكل منهم عند انضمامه إلينا. ومثل الكلاب جيدة التدريب، تحركت الحيوانات عبر الممرات معنا. لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظة أفواههم المليئة بالرغاوي، أو نظرات الجوع التي وجهتها نحو تارس تاركاس ونحوي.

وسرعان ما أصبحنا محاطين كلية بحوالي خمسين من تلك الحيوانات المتوحشة. سار اثنان على كل جانب من ثوفيا، كما يسير الحراس. والآن تمس الجوانب الملساء لبعض الحيوانات أطرافي العارية. كانت تجربة غريبة؛ مسار صامت تقريبًا لأقدام إنسان عارٍ

وكفوف مبطنة. كانت الجدران الذهبية مرصعة بالجواهر؛ وهناك ضوء خافت من مصابيح الراديوم الصغيرة الموجودة على مسافات كبيرة على طول السقف؛ والوحوش المفترسة الضخمة ذات العُرف، تتزاحم بهدير منخفض حولنا؛ والمحارب الأخضر القوي أطول منا جميعًا؛ وأنا متوج بإكليل ثمين أخذته من الثيرني المقدس؛ وتقود الموكب فتاة جميلة، ثوفيا.

لن أنسى ذلك.

اقتربنا الآن من غرفة كبيرة أكثر إضاءة من الممرات. أوقفتنا ثوفيا، وتسللت بهدوء نحو المدخل، وألقت نظرة محدقة، ثم أشارت لنا أن نتبعها.

كانت الغرفة مملوءة بأنواع من تلك الكائنات الغريبة التي تسكن هذا العالم السفلي؛ مجموعة غير متجانسة من الكائنات الهجين - أبناء السجناء القادمين من العالم الخارجي، مريخيين حُمر وخُضر، وجنس الثيرن الأبيض.

لقد صنع منهم استمرار حبسهم تحت الأرض كائنات غريبة؛ فهم أكثر شبهًا بالجثث عن الكائنات الحية. كثير منهم مشوهون، وآخرون مبتورون، بينما الأغلبية، كما أوضحت ثوفيا، لا يبصرون.

كانوا ممدين على الأرض، أحيانًا على نحو متداخل فوق بعضهم بعضًا في أكوام من عدة أجساد، مما أثار في ذاكرتي على الفور الصور

التوضيحية المتنافرة التي رأيتها في نسخ كتاب دانتي «الجحيم»[(١٠)]، وهل هناك مقارنة أكثر ملاءمة؟ أليس هذا جحيم حقيقي حقًّا، تسكنه أرواح مفقودة، ميتة وملعونة بما يتجاوز أي أمل؟

اخترنا طريقنا بعناية، وسرنا خلال دهليز متعرج عبر الغرفة، وحيوانات البانث الكبيرة تتشمم بجوع الفرائس المغرية المتناثرة بغزارة أمامها بلا دفاع.

مررنا عدة مرات على المداخل المفضية إلى الغرف الأخرى المأهولة بنفس الطريقة، واضطررنا مرتين أن نعبر مباشرة من خلالهم. وفي حالات أخرى وجدنا سجناء ووحوش مقيدين بالسلاسل.

سألتُ ثوفيا: «لماذا لا نرى أي ثيرني؟».

«نادرًا ما يأتي الثيرن ليلًا إلى العالم السفلي، فحيوانات البانث الكبيرة تطوف خلسة في الممرات القاتمة سعيًا لفرائسها. يخاف الثيرن من القاطنين البشعين لهذا العالم القاسي اليائس الذي أقاموه وسمحوا له بالنمو تحت أقدامهم. وأحيانًا ينقلب عليهم حتى السجناء ويمزقونهم. لا يعرف الثرني أبدًا من أي ظلال قاتمة يمكن أن ينقض قاتل على ظهره».

أما في النهار، فالوضع مختلف؛ حيث تمتلئ الممرات والغرف بحراس يمرون ذهابًا وإيابًا، ويأتي العبيد بالمئات من المعابد في أعلى إلى صوامع الحبوب وغرف التخزين. تدب الحياة في كل شيء. وأنتم

(١٠) «الجحيم»: الجزء الأول من «الكوميديا الإلهية» لدانتي في القرن الرابع عشر - المترجمة.

لم تروا هذا لأنني لم أقدكم عبر مسارات مطروقة، وإنما من خلال ممرات ملتوية يند استخدامها. ومع ذلك، قد نلتقي بثرني. فأحيانًا يجدون من الضروري أن يأتوا هنا بعد غروب الشمس. ولهذا السبب فإنني أتحرك بحذر شديد».

وصلنا إلى القاعات العلوية دون أن نُكتشف. أوقفتنا ثوفيا الآن عند سفح مطلع قصير وحاد.

قالت: «يوجد فوقنا مدخل يفتح على الحدائق الداخلية. لقد أوصلتكم إلى هذه المسافة. من هنا أمامنا أربعة أميال لنصل إلى الأسوار الخارجية، وطريقنا تكتنفه مخاطر لا حصر لها. يقوم الحراس بدوريات في الساحات، والمعابد، والحدائق. كل شبر من الأسوار نفسها يقع تحت عين أحد الحراس».

لم أفهم ضرورة وجود هذه القوة الهائلة من الرجال المسلحين حول بقعة محاطة بالغموض والخرافات، لا تجرؤ أي روح في برسوم على الاقتراب منها حتى ولو كانوا يعرفون موقعها الدقيق. وسألت ثوفيا متشككًا عن طبيعة الأعداء الذين يمكن أن يخشاهم الثيرن في قلعتهم المنيعة.

وصلنا إلى المدخل الآن، وفتحته ثوفيا.

وقالت: «إنهم يخشون قراصنة برسوم السود، يا أمير، الذين يحفظنا منهم أسلافنا الأوائل».

تأرجح الباب مفتوحًا؛ استقبلتني رائحة أشياء نابتة؛ ولمس الهواء

الليلي البارد خدودي. تشممت حيوانات البانث الكبيرة الروائح غير المألوفة، ثم اندفعت خلالنا بهدير منخفض، متدفقة عبر الحدائق تحت الضوء الخفيف للقمر الأقرب.

دوت فجأة صيحة هائلة من فوق أسطح المعابد؛ صيحة إنذار وتحذير، تنتقل من نقطة لأخرى، وتعبر إلى الشرق وإلى الغرب، من المعبد والساحة والسور، إلى أن بدت كصدى خافت على البُعد.

قفز السيف الطويل لدى الثاركي العظيم من غمده؛ وانكمشت ثوفيا فزعًا إلى جانبي.

* * *

(٦)

قراصنة برسوم السود

سألتها: «ما هذا؟».

أجابت بأن أشارت إلى السماء.

توجهت ببصري، وهناك، فوقنا، رأيت أجسامًا غامضة ترفرف عاليًا هنا وهناك فوق المعبد، والساحة، والحديقة.

وعلى الفور أصدرت هذه الكائنات الغريبة ومضات من الضوء. سمعت دويًّا لطلقات مجموعة بنادق مجتمعة، ثم ظهرت ومضات ودوي ردًّا عليها من المعبد والسور.

قالت ثوفيا: «يا أمير، إنهم قراصنة برسوم».

انخفضت مركبة اللصوص الجوية في دوائر كبيرة في اتجاه قوات الدفاع الثيرنية.

قذفت طائرة بعد الأخرى وابلًا من القذائف على حراس المعبد؛ وتحطمت طائرة تلو الأخرى عبر الهواء الرقيق وهي تتجه نحو الطائرات العابرة المراوغة.

وعندما انقض القراصنة مقتربين نحو الأرض، تدفق جنود الثيرن من المعابد إلى الحدائق والساحات. وعندما شاهدتهم في العراء عشرات الطائرات، أخذت تلقي بقذائفها من جميع الاتجاهات.

فتح الثيرن نيران الدروع المثبتة ببنادقهم، لكن الطائرات السوداء الكئيبة توافدت على نحو مطرد. كانت طائرات صغيرة في معظمها، مُصممة لتحمل رجلين أو ثلاثة. وهناك عدد قليل من الطائرات أكبر حجمًا، لكنها ظلت محلقة عاليًا تقصف بمدفعيتها المعابد.

وباندفاع منسق، من الواضح أنه استجابة لإشارة آمرة، انطلق القراصنة بتهور نحو الأرض في وسط جنود الثيرن.

وما إن لمست الطائرات الأرض، حتى قفزت المخلوقات التي بداخلها بغضب الشياطين نحو الثيرن. يا له من قتال! لم أشهد مثله من قبل أبدًا. كنت أتصور أن المريخيين الخُضر هم أشرس محاربين في الكون، لكن طريقة انقضاض القراصنة السود على خصومهم، في تخلٍّ فظيع عن حياتهم، كان يتجاوز أي شيء رأيته من قبل.

تجلى المشهد بأكمله متميزًا بحيوية، تحت ضوء قمري المريخ المجيدين اللامع. قاتل الثيرن أصحاب الشعر الذهبي والبشرة البيضاء بشجاعة يائسة في مواجهة مباشرة مع أعدائهم أصحاب البشرة الأبنوسية.

هنا، سحقت زمرة قليلة من المحاربين المقاتلين نوعًا من أشجار البيماليا[١١] الرائعة؛ وهناك، وجد السيف المنحني لرجل أسود طريقه

(١١) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ http://barsoom.wikia.com/wiki/Pimalia – المترجمة.

إلى قلب ثرني وتركه ميتًا أسفل تمثال عجيب منحوت من ياقوت مفعم بالحياة؛ وهنالك أجبر عشرة من الثيرن قرصان واحد على السقوط فوق مقعد طولي من الزمرد، سطحه مُزين بتصميمات برسومية جميلة غريبة بألوان قوس قزح ومطعمة بالماس.

وقفت أنا وثوفيا والثاركي على أحد الجوانب. لم يصل إلينا وطيس المعركة، لكن المقاتلين كانوا يميلون من حين لآخر بالقرب منا بحيث كان يمكننا تمييزهم.

أثار القراصنة السود اهتمامي كثيرًا. لقد سمعت عنهم شائعات غامضة، أكثر قليلًا من كونها أساطير، خلال حياتي السابقة على المريخ؛ ولكن لم يسبق أن رأيتهم أو تحدثت مع أي شخص رآهم.

كان من الشائع أنهم يسكنون القمر الأصغر، ونزلوا منه إلى برسوم خلال فترات طويلة. ومن المعروف أنهم يقومون بأفظع الأعمال الوحشية في المكان الذي يزورونه، وعندما يغادرون يحملون معهم الأسلحة النارية والذخائر، فضلًا عن الفتيات الصغيرات كأسيرات. وتقول الشائعات إنهم كانوا يضحون بهؤلاء الفتيات لإله رهيب في طقوس العربدة التي تنتهي بالتهام ضحاياهم.

تمتعت بفرصة ممتازة لدراستهم، فالقتال كان يأتي بأحدهم بين الفينة والفينة بالقرب من المكان الذي أقف فيه. كانت أحجامهم كبيرة، يبلغ طول الرجل ربما ستة أقدام وأكثر. وملامحهم محددة ووسيمة إلى أقصى حد؛ وأعينهم أيضًا جيدة التحديد وكبيرة، على الرغم من ضيق طفيف يعطيهم مظهرًا ماكرًا؛ وقزحية العين التي كان يمكنني أيضًا

تحديدها بواسطة ضوء القمر، كانت سوداء تمامًا، بينما كانت مقلة العين نفسها بيضاء وشديدة الوضوح. أما هيكلهم البدني، فيبدو مطابقًا لأبدان الثيرن، والرجال الحُمر، وبدني. بيد أن لون بشرتهم فقط هو ما يختلف تمامًا عنا؛ فقد كانت البشرة تشبه مظهر الأبنوس المصقول وتتسم بالغرابة، بمثل ما يمكن أن يقوله شخص جنوبي، مما يضيف ولا ينتقص من جمالهم الرائع.

ولكن، إذا كانت أجسادهم مقدسة، فإن قلوبهم، على ما يبدو، هي عكس ذلك تمامًا. لم أشهد أبدًا مثل هذه الشهوة الخبيثة للدم كهؤلاء الشياطين القادمين من الهواء الخارجي تتجلى في معركتهم المجنونة مع الثيرن.

كل شيء حولنا في الحديقة يوضح قدراتهم الشريرة، ولم يبذل الثيرن لسبب ما –لم أكن أعرفه حينذاك– أي جهد للإضرار بهم. مرارًا وتكرارًا، كان يندفع محارب أسود من أحد المعابد القريبة وهو يحمل امرأة شابة بين ذراعيه. ويتجه مباشرة نحو طائرته ويقفز داخلها، بينما رفاقه الذين يقاتلون بالقرب منه يهرعون لتغطية هروبه.

ويسارع الثيرن من جانبهم لإنقاذ الفتاة، وفي لحظة يتم ابتلاع الاثنين في دوامة غضب عارم من الشياطين التي تصرخ، ويقطعون بعضهم أربًا، مثل الشياطين المتجسدة.

ولكن يبدو أن قراصنة برسوم السود ينتصرون دائمًا؛ أما الفتاة التي أسروها خلال النزاع وخرجت منه سالمة بأعجوبة، فيحملونها بعيدًا في الظلام الخارجي إلى سطح السفينة الفضائية السريعة.

وبقدر ما يمكن أن يصل الصوت، سمعنا أصوات معارك مماثلة

لتلك التي تحيط بنا من الاتجاهين. وأخبرتني ثوفيا أن هجمات القراصنة السود تحدث عادة في وقت واحد في مجمل منطقة الثيرن التي تشبه الشريط وتحيط بوادي دور عند المنحدرات الخارجية لجبال أوتز.

عندما انحسر القتال عن موقعنا لدقيقة، توجهت ثوفيا نحوي بسؤال:

قالت «هل تدرك الآن، يا أمير، لماذا يحرس مليون محارب مناطق الثيرن المقدسين ليلًا ونهارًا؟».

«المشهد الذي نشهده الآن ليس سوى تكرار لما رأيته يحدث عشرات المرات خلال الخمسة عشر عامًا التي أمضيتها سجينة هنا. قراصنة برسوم السود يفترسون منذ زمن سحيق الثيرن المقدسين.

ومع ذلك فهم لا يصلون أبدًا بحملاتهم إلى النقطة التي يكون فيها الثيرن مهددين بالإبادة– وهو ما يمكنهم القيام به بسهولة. يبدو الأمر كما لو أنهم يستخدمون هذا العِرق الثيرني كمجرد دُمى يلعبون بها، لتلبية شهوتهم الشرسة في القتال؛ ومن هذا العِرق يجمعون حصيلة من الأسلحة والذخائر والأسرى».

سألتها: «لماذا لا يقفزون ويدمرون هذه الطائرات؟ فهذا سرعان ما سيضع نهاية للهجمات، أو على الأقل سيقلل جرأة السود. انظري كيف يتركون طائراتهم تمامًا دون حراسة جيدة، كأنما تقف آمنة في حظائرها».

«لا يجرؤ الثيرن على ذلك. فقد حاولوا مرة واحدة، من عصور طويلة، ولكن في الليلة التالية، ولفترة استمرت لقمر كامل، أحاطت ألف سفينة فضائية حربية سوداء كبيرة بجبال أوتز، وألقت أطنانًا من القذائف

على المعابد والحدائق والساحات، إلى أن اضطر كل ثيرني لم يُقتل إلى اللجوء للقاعات تحت الأرضية حفاظًا على سلامته.

يعرف الثيرن أنهم لا يعيشون إلا لأنهم يتحملون المعاناة على يد الرجال السود. فقد كانت الإبادة قريبة منهم تلك المرة، ولن يخاطروا مرة أخرى».

عندما توقفت عن الكلام، دخل عنصر جديد إلى الصراع. جاء من مصدر لم يكن في حسبان الثيرن أو القراصنة. يبدو أن حيوانات البانث الضخمة التي تركناها حرة في الحديقة قد ارتعبت بداية من صوت المعركة، وصراخ المحاربين، وارتفاع أصوات طلقات البنادق والقنابل.

لكن الضجيج المستمر أثار غضبها الآن، كما أثارتها رائحة الدماء الجديدة؛ فقد برزت على نحو مفاجئ هيئة ضخمة من بين أجمة الشجيرات المنخفضة وانطلقت وسط تلك الكتلة البشرية المتقاتلة. انطلقت صرخة غضب وحشي مروع من البانث، عندما شعر باللحم الدافئ تحت مخالبه القوية.

كانت صرخته كأنما إشارة إلى الآخرين، فقد ألقت مجموعة كبيرة بأكملها أنفسهم بين المقاتلين. سادت حالة من الذعر في لحظة. تحول الثيرن والرجال السود، على حد سواء، ضد العدو المشترك، إذ لم يُظهِر البانث تحيزًا تجاه أي منهما.

اندفعت الوحوش الضارية إلى القتال الدائر، وأسقطت مائة رجل بمجرد وزن أجسامها الضخمة. كانت الوحوش تقفز وتخدش، وأسقطت المحاربين بكفوفها القوية، وتحولت للحظة نحو تمزيق ضحاياها بأنيابها المخيفة.

كان المشهد مبهرًا في فظاعته؛ وفجأة تبادر إلى ذهني أننا نضيع وقتنا الثمين في مشاهدة هذا الصراع، الذي قد يمثل في حد ذاته وسيلة لهروبنا.

كان الثيرن منشغلين في اشتباكهم مع المهاجمين المرعبين بحيث قد يسهل الآن نسبيًّا هروبنا. تلفتُ باحثًا عن فتحه خلال الجحافل المتنازعة. إذا أمكننا فقط الوصول إلى الأسوار، فقد نجد أن قوات القراصنة قد أضعفوا في مكان ما قوات الحراسة وتركوا طريقًا مفتوحًا لنا إلى العالم الخارجي.

تجولت بعيني في أنحاء الحديقة، وفتح مرأى مئات المركبات الفضائية المتروكة دون حراسة حولنا أبسط طريق للحرية. لماذا لم يطرأ ذلك إلى ذهني من قبل! أنا على دراية وافية بآلية كل طائرة معروفة في برسوم. لمدة تسع سنوات وأن أُبحِر وأقاتل مع قوات هيليوم البحرية. كما طرت عبر الفضاء في سفينة استطلاع فضائية صغيرة لا تسع سوى رجل واحد، وقدت أكبر سفينة فضائية حربية عبر الهواء الرقيق للمريخ المحتضر.

التفكير، بالنسبة لي، هو التصرف. أمسكت بذراع ثوفيا وهمست إلى تارس تاركاس لمتابعتي. سرعان ما وصلنا متسللين إلى طائرة صغيرة تقع بعيدة عن المحاربين المتقاتلين. وفي اللحظة التالية كنا متجمعين على سطحها الصغير. وضعت يدي على ذراع الانطلاق. ضغطت بأصبعي على الزر الذي يتحكم في شعاع الدفع - وهو اكتشاف المريخيين الرائع الذي يتيح لهم الملاحة عبر الغلاف الجوي الرقيق لكوكبهم بسفن ضخمة، تجعل المدرعات البحرية لدى القوات البحرية على كوب الأرض شيئًا هزيلًا تافهًا.

تمايلت الطائرة قليلًا، لكنها لم تتحرك، ثم شقت آذاننا صرخة تحذير جديدة. استدرت، فرأيت عشرات القراصنة السود يندفعون نحونا من المعركة، لقد اكتشفونا. اندفع الشياطين نحونا وهم يطلقون صيحات غاضبة. واصلت بإصرار مسعور الضغط على الزر الصغير الذي ينبغي أن يرسلنا إلى الفضاء، لكن السفينة الفضائية ترفض التزحزح. ثم خطر لي سبب عدم ارتفاعها.

لقد عثرنا على طائرة تسع شخصين. كانت خزانات أشعتها محملة بكمية كافية من طاقة الدفع لرفع اثنين فقط من الرجال العاديين. وكان وزن الثاركي الكبير يُثبِّتنا لنلقى حتفنا.

كان السود على وشك الوصول إلينا. ولم تكن هناك لحظة لتضيع في أي تردد أو شك.

قمت بالضغط على الزر عميقًا بقوة مع تثبيته، ثم وضعت الذراع على سرعة عالية. وما إن وصل السود صائحين، حتى انزلقت من سطح الطائرة، وواجهت الهجوم بسيفي الطويل.

وفي اللحظة نفسها رنت صرخة فتاة خلفي، وفي اللحظة التالية سقط السود فوقي. سمعت الآن على بعد فوق رأسي، صوت ثوفيا الخافت: «يا أميري، أوه يا أميري؛ كنت أفضل أن أبقى وأموت معك ...» لكن بقية كلامها ضاع في ضجيج المهاجمين.

عرفت أن حيلتي نجحت، وأن ثوفيا وتارس تاركاس في أمان على الأقل مؤقتًا، وأن وسيلة الهرب كانت لهما.

بدا لوهلة أنني غير قادر على الصمود أمام حجم الأعداد التي تواجهني؛ ومرة أخرى، كما حدث في مناسبات كثيرة أخرى عندما تطلب الأمر مواجهة الغرائب المخيفة على هذا الكوكب من المحاربين والوحوش ضارية، وجدت أن قوتي كشخص من كوكب الأرض تفوق حتى الآن قوة أعدائي الذين لم يكونوا ضدي بدرجة كبيرة كما تصورت.

نسج نصل سيفي الغاضب شبكة من الموت حولي. ضغط السود للحظة ليتمكنوا من استخدام سيوفهم الأقصر، لكنهم تراجعوا الآن، وظهر على ملامحهم بجلاء الاحترام الذي شعروا به تجاه سيفي.

مع ذلك كنت أعرف أنها مجرد دقائق قبل أن تمزقني أعدادهم المتزايدة، أو يتمكنوا من التغلب على سيفي الحارس. يجب أن أموت موتًا حقيقيًّا في نهاية المطاف قبلهم. ارتجفت عندما فكرت في هذا، أموت هكذا في هذا المكان الرهيب حيث لا يمكن أن تصل أبدًا أي كلمة عن نهايتي إلى ديجاه ثوريس. أموت على يد رجال سود مجهولين في حدائق الثيرن القساة.

ثم أكدت روحي القديمة نفسها. دم القتال لأجدادي من فيرجينيا يجري ساخنًا في عروقي. شهوة الدم الشرسة ومتعة المعركة تصاعدت. ابتسامة القتال التي جلبت الذعر إلى ألف عدو لمست شفتيَّ. أبعدت فكرة الموت عن ذهني، وهجمت على خصومي بغضب سوف يتذكره إلى يوم مماته كل من تمكن من الفرار.

وكنت أعرف أن الآخرين سيضغطون لدعم من واجهوني، ولذا أبقيت عقلي يعمل بحثًا عن وسيلة للهروب حتى وأنا أقاتل.

حدث شيء غير متوقع، جاء من ظلمة الليل خلفي. تمكنت الآن من نزع سلاح شخص ضخم واجهني في قتال يائس، وتوقف السود للحظات يلتقطون أنفاسهم.

نظروا نحوي بغضب خبيث، على أن سلوكهم كان ينم عن لمسة من الاحترام.

قال أحدهم: «يا ثيرني، أنت تقاتل مثل داتور[(١٢)]. ولكن، نظرًا لشعرك الأصفر الكريه وبشرتك البيضاء، فإنك ستكون شرفًا لأبناء برسوم الأوائل».

قلت: «أنا لست ثيرنيًّا»؛ وكنت على وشك أن أشرح لهم أنني من عالم آخر، متصورًا أنه بالتوصل إلى هدنة مع هؤلاء الزملاء والقتال معهم ضد الثيرن يمكنني حثهم على مساعدتي لاستعادة حريتي. لكن جسمًا ثقيلًا أصابني في تلك اللحظة بضربة مدوية بين كتفي، أسقطتني تقريبًا على الأرض.

وعندما استدرت لمواجهة هذا العدو الجديد، مر شيء فوق كتفي، وضرب أحد المهاجمين مباشرة في وجهه بلكمة أسقطته فاقد الوعي على المرج. وفي اللحظة نفسها رأيت أن الشيء الذي ضربنا هو مرساة جرارة لسفينة فضائية كبيرة الحجم، ربما تتسع لعشرة أشخاص.

كانت السفينة تطفو ببطء فوقنا، بما لا يزيد على خمسين قدمًا فوق رؤوسنا. إنها فرصة الهرب الوحيدة التي قدمت نفسها لي. كانت

---

(١٢) داتور: هو لقب الأمير بين المريخيين السود في وادي دور، http://barsoom.wikia.com/wiki/Dator - المترجمة.

السفينة ترتفع ببطء، وهي الآن وراء الرجال السود الذين واجهوني وفوق رؤوسهم بعدة أقدام.

انطلقت فوقهم بالكامل بقفزة واحدة، وهم يحدقون بأعين متسعة من الدهشة؛ ثم حملتني القفزة الثانية إلى ارتفاع يكفي للإمساك بالمرساة التي أخذت الآن تتراجع بسرعة.

لكنني نجحت، وتعلقت بها بيد واحدة، منطلقًا خلال أغصان أعلى نباتات الحدائق، بينما يصرخ أعدائي ويعوون في أسفل.

غيرت السفينة اتجاهها الآن غربًا، ثم مالت برشاقة نحو الجنوب. وفي لحظة أخرى وجدت السفينة تحملني إلى ما وراء قمة المنحدرات الذهبية، خارج وادي دور، حيث كان بحر كوراس المفقود يلمع في ضوء القمر على بُعد ستة آلاف قدم في أسفل.

تسلقت بعناية لأجلس بين أذرع المرساة. تساءلت عما إذا كانت السفينة مهجورة مصادفة. كنت آمل ذلك. أو ربما تنتمي إلى أناس ودودين، وقعوا مصادفة خلال تجوالهم في مجال براثن القراصنة والثيرن. وكان تراجعها عن مشهد المعركة يعزز هذه الفرضية.

لكنني قررت بحزم أن أعرف وعلى الفور، ولذا بدأت بأكبر قدر من الحذر في تسلق سلسلة المرساة ببطء إلى سطح السفينة.

حاولت الوصول إلى قضيب السفينة بيد واحدة ونجحت، وعندئذ مال وجه أسود شرس إلى الجانب، وعيناه المملوءتان بكراهية منتصرة تنظر نحوي.

(٧)

الإلهة الجميلة

بقيت والقرصان الأسود للحظة بلا حراك، نحدق في أعين بعضنا بعضًا. ثم ارتسمت ابتسامة قاتمة فوق شفاهه الوسيمة، وتحركت يد أبنوسية ببطء فوق حافة سطح السفينة، وصوبت عين مسدس باردة جوفاء نحو مركز جبهتي.

مددت يدي الحرة نحو رقبته السوداء التي كانت في المتناول، وفي الوقت نفسه شدد أصبعه الأبنوسي على الزناد. همس القرصان «مُت، أيها الثيرني اللعين»، وقصبته الهوائية شبه مختنقة بأصابعي المحكمة حولها. سقط المسدس بعد ضغطة عقيمة على تجويف فارغ.

وقبل أنه يتمكن من إطلاق النار مرة أخرى، جذبته بعيدًا نحو حافة سطح السفينة بحيث اضطر إلى إسقاط سلاحه الناري والتشبث بالدرابزين بكلتا يديه.

حالت قبضتي على رقبته دون أن يصدر فعليًّا أي صيحة، وهكذا اشتبكنا في صمت قاتم؛ كان يحاول الإفلات من قبضتي، وكنت أحاول قتله.

كان وجهه يتخذ مسحة شاحبة، وعيناه تبرزان من محجريهما. أدرك أنه سيموت إلا إذا أفلت من الأصابع الحديدية التي تنتزع الحياة منه خنقًا. وفي محاولة أخيرة ألقى بنفسه بعيدًا إلى الوراء على سطح السفينة، وحرر في نفس اللحظة قبضته على القضيب ليفلت بشكل محموم بكلتا يديه من أصابعي في محاولة لإبعادها عن رقبته.

كانت هذه الثانية الضئيلة هي كل ما انتظره. فقد تمكنت من إسقاطه على سطح السفينة بدفعة واحدة قوية لأسفل. اقترب جسده خلال سقوطه من قبضة يدي الحرة الضعيفة على سلسلة المرساة، ودفعني معه نحو مياه البحر أدناه.

مع ذلك لم أتخلَ عن قبضتي عليه؛ لأنني كنت أعرف أن صرخة واحدة من تلك الشفاه وهو يهوي نحو موته في مياه البحر الصامت سوف تجلب رفاقه من أعلى لتنتقم له.

ولذا أحكمت قبضتي عليه في غضب وواصلت خنقه، بينما زاد كفاحه المحموم من جذبي نحو نهاية السلسلة.

أخذت حركاته الملتوية تصبح متقطعة، وتقل تدريجيًّا حتى توقفت تمامًا. حررت قبضتي عليه، وفي لحظة ابتلعته الظلال السوداء بعيدًا في أسفل.

تسلقت ثانية صاعدًا إلى السفينة. ونجحت هذه المرة في رفع عيني على مستوى سطح السفينة، حيث أمكنني إلقاء نظرة ماسحة دقيقة للأوضاع التي تواجهني مباشرة.

كان القمر الأقرب قد مر تحت الأفق، لكن تألق القمر الآخر قد غمر سطح السفينة، موضحًا بجلاء أجسام ستة أو ثمانية من الرجال السود ممددين ونائمين.

جلست فتاة بيضاء شابة، وهي مُقيدة على نحو صارم، بالقرب من قاعدة مسدس سريع الطلقات. كانت عيناها متسعتين في تعبير ينم عن ترقب الفزع، ومثبتتين نحوي مباشرة، بمجرد أن رأتني فوق حافة سطح السفينة.

امتلأت على الفور براحة لا توصف، عندما وقع بصرها على الجوهرة الغامضة التي تتلألأ في منتصف خوذتي المسروقة. لم تتكلم، لكن عينيها حذرتني من الأشخاص النائمين حولها.

فزت بالوصول إلى سطح السفينة دون ضجة. أومأت لي الفتاة أن أقترب منها. وعندما انحنيت نحوها، همست طالبة إطلاق سراحها.

قالت: «يمكنني أن أساعدك، وسوف تحتاج كل المعونة المتاحة عندما يستيقظون».

أجبتها مبتسمًا: «سوف يستيقظ بعضهم في كوراس».

أدركت الفتاة معنى كلماتي، وأرعبتني قسوة ابتسامتها كإجابة. لا يستغرب المرء من قسوة وجه قبيح، ولكن عند ظهور القسوة على سيماء إلهة ملامحها منقوشة بحلاوة على نحو ينم عن الحب والجمال، يصبح التناقض من مرعبًا.

أسرعت بإطلاق سراحها.

همست قائلة: «أعطني مسدسًا. يمكنني استخدامه ضد من لا

يُسكتهم سيفك في الوقت المناسب».

فعلت ما طلبته. ثم استدرت لأداء عمل كريه. لا يوجد وقت لوخز الضمير، ولا للفروسية التي لن تُقدرها هذه الشياطين القاسية أو تردها بالمثل.

اقتربت خلسة من أقرب نائم. وعندما استيقظ، كان في رحلته إلى حضن كوراس. وسمعنا من الأعماق السوداء تحتنا الصرخة الحادة التي أطلقها عندما عاد إليه وعيه، لكنها كانت ضعيفة.

استيقظ الثاني بمجرد أن لمسته. وعلى الرغم من أنني نجحت في إلقائه من سطح السفينة، فقد أدت صرخة الإنذار الوحشية التي أطلقها إلى نهوض القراصنة الباقين. كانوا خمسة.

عند نهوضهم، انطلق مسدس الفتاة بطلقات متقطعة حادة، وسقط أحدهم على سطح السفينة ولم ينهض مرة أخرى.

هرع الآخرون بجنون نحوي وهم يرفعون سيوفهم. ومن الواضح أن الفتاة لم تجرؤ على إطلاق النار خوفًا من إصابتي، لكنني رأيتها تتسلل خلسة مثل القط نحو جناح المهاجمين. ثم كانوا فوقي.

خضت خلال بضع دقائق واحدة من أكثر معاركي شراسة على الإطلاق. كان المكان صغيرًا جدًّا لحركة أقدامنا. ليس هناك سوى أن تقف بثبات على الأرض وتتبادل الأخذ والعطاء. أخذت في البداية أكثر كثيرًا مما أعطيت، وأجهزت الآن على حارس أحد الزملاء، وشعرت بالارتياح لرؤيته ينهار على سطح السفينة.

ضاعف الآخرون جهودهم. أثار تحطُّم سيوفهم فوق سيفي جلبة هائلة، ربما يمكن سماعها لأميال خلال الليل الصامت. تطاير الشرر من ضرب الفولاذ بالفولاذ، ثم صدر صوت خافت ومقزز لعظام كتف تتحطم تحت حافة سيفي المريخي الحادة.

ثلاثة يواجهونني الآن، لكن الفتاة كانت تشق طريقها إلى موقع سرعان ما سيسمح لها بتقليص عددهم بواحد على الأقل. ثم حدثت أشياء بسرعة مذهلة إلى حد أنني بالكاد ما يمكنني أن أدرك حتى الآن كل ما وقع في تلك اللحظة القصيرة.

هاجمني الثلاثة بغرض واضح هو إجباري على التراجع لبضع خطوات من شأنها أن تلقي بجسمي عبر درابزين السفينة نحو الفراغ أدناه. وفي اللحظة نفسها أطلقت الفتاة النار، وقام ذراع سيفي بحركتين. سقط رجل برصاصة في رأسه؛ طار سيف مصلصلًا عبر سطح السفينة وسقط من فوق الحافة خلفها؛ ونزعت سلاح أحد خصومي؛ وذهب الثالث إلى أسفل بسيفي مدفونًا حتى مقبضه في صدره، وثلاثة أقدام منه تبرز من ظهره، وسقط وهو يسحب السيف من قبضتي.

أواجه الآن بلا سلاح عدوي المتبقي، الذي يرقد سيفه في مكان ما على بعد آلاف الأقدام أدناه في البحر المفقود.

يبد أن الظروف الجديدة أسعدت خصمي، إذ كشفت ابتسامة رضا عن أسنانه اللامعة وهو يهرع نحوي وأنا أعزل. من الواضح أن عضلاته الكبيرة المكورة تحت بشرته السوداء اللامعة أكدت له أن يواجه فريسة سهلة لا تستحق عناء سحب الخنجر من جرابه.

تركته يأتي فوقي تقريبًا. ثم انحنيت تحت ذراعيه الممدودتين، مع التفافي في الوقت نفسه نحو اليمين. درت على إصبع قدمي اليسرى، وسددت لكمة هائلة بيميني لفكه، فسقط في مكانه كالثور الجريح.

رنت ضحكة فضية خافتة ورائي.

قال صوت رفيقتي العذب: «أنت لست ثيرنيًّا، رغم شعرك الذهبي وعتاد ساتور ثروج. لم يعش أبدًا من قبل على جميع أراضي برسوم من يمكنه القتال كما قاتلت هذه الليلة. من أنت؟».

قلت: «أنا جون كارتر، أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم». وأضفت: «ومن التي منحتني شرف خدمتها؟».

ترددت للحظة قبل أن تتحدث. ثم سألت:

«أنت لست ثيرنيًّا. هل أنت عدو للثيرن؟».

«أنا موجود في إقليم الثيرن منذ يوم ونصف. وخلال هذا الوقت كله تعرضت حياتي لخطر دائم. تعرضت للتحرش والملاحقة. تعرضت لهجمات من رجال مسلحين وحيوانات شرسة. لم يكن لدي أي خلاف مع الثيرن من قبل، ولكن هل تتعجبين الآن من عدم شعوري بأي حب كبير لهم؟ لقد أنهيت حديثي».

تطلعت في وجهي بإمعان لعدة دقائق قبل أن تجيب؛ كأنما تحاول بهذه النظرة الطويلة الباحثة المحدقة قراءة أعماق روحي، للحكم على شخصيتي ومعايير فروسيتي.

ويبدو أن المخزون أشعرها بالراحة.

«أنا فايدور، ابنة ماتاي شانج، الهيكادور[١٣] المقدس للثيرن المقدسين، الأب الثيرني الأعلى، سيد الحياة والموت على برسوم، شقيق إيسوس، أمير الحياة الأبدية».

انتبهت في تلك اللحظة إلى أن الرجل الأسود الذي أسقطته أرضًا بلكمتي، بدأت تظهر عليه علامات عودة الوعي. قفزت إلى جانبه. جردته من عتاده، وقمت بتقييد يديه خلف ظهره بإحكام، وبالمثل قمت بتقييد قدميه وربطها بعربة مدفع ثقيل.

سألتني فايدور: «لماذا لا تستخدم أبسط طريقة؟».

أجبتها: «أنا لا أفهم. ما هي أبسط طريقة؟».

هزت كتفيها الجميلين وأشارت بيديها بما يدل على إلقاء شيء من السفينة.

قلت: «أنا لست بقاتل. وإنما أقتل دفاعًا عن النفس فقط».

نظرت لي محدقة، ثم جعدت حواجبها الإلهية، وهزت رأسها. لم تستطع أن تستوعب.

حسنًا، لم تتمكن ديجاه ثوريس أيضًا من استيعاب ما بدا لها سياسة حمقاء وخطرة تجاه الأعداء. ففي برسوم، الرحمة لا تُطلب ولا تُمنح، وكل موت لشخص يعني تقسيم الموارد الضيلة لهذا الكوكب المحتضر بين الباقين على قيد الحياة.

---

(١٣) هيكادور: لقب زعيم الثيرن المقدسين http://barsoom.wikia.com/wiki/Hekkador – المترجمة.

ولكن هناك فارقًا طفيفًا بين الطريقة التي تفكر بها هذه الفتاة للتخلص من خصم، وأسى رقة قلب أميرتي للضرورة الصارمة التي يتطلبها ذلك.

وأعتقد أن فايدور كانت تأسف على التشويق الذي يمكن أن يتيحه لها المشهد أكثر من أسفها على قراري بترك عدو آخر على قيد الحياة بما يُمثله ذلك من تهديد لنا.

استعاد الرجل الآن كامل قواه، وأخذ يتطلع إلينا باهتمام وهو يرقد مقيدًا على سطح السفينة. كان وسيمًا، ورشيقًا، وقويًا. يبدو الذكاء على وجهه وملامحه رائعة، ربما يحسده عليها حتى أدونيس(١٤) نفسه.

كانت السفينة تتحرك ببطء دون توجيه عبر الوادي؛ وأعتقد أن الوقت قد حان للإمساك بالدفة وتوجيه المسار. لم يكن بإمكاني تخمين موقع وادي دور إلا بشكل عام. كان واضحًا من مجموعات النجوم أنه يقع جنوب خط الاستواء، لكنني لست فلكيًا متخصصًا في المريخ بالقدر الذي يكفي حتى لافتراض تخمين عام دون الاستعانة بالخرائط الرائعة والأدوات الحساسة التي كنت أحسب بموجبها سابقًا، كضابط في بحرية هيليوم، مواقع السفن التي أبحر عليها.

قررت اتجاهي على الفور، اعتمادًا على أن المسار نحو الشمال يمكن أن يقودني بسرعة نحو أكثر أجزاء الكوكب استقرارًا. تمايلت السفينة الفضائية تحت يدي برشاقة. وبضغطة على الزر الذي يتحكم في أشعة الدفع، ارتفعنا عاليًا في الفضاء؛ ثم بجذب رافعة السرعة إلى أقصى درجة، انطلقنا نحو الشمال مع تزايد ارتفاعنا أكثر وأكثر فوق

(١٤) أدونيس هو إله الجمال والرغبة في الأساطير اليونانية – المترجمة.

وادي الموت الرهيب هذا.

ومع مرورنا فوق مناطق الثيرن الضيقة على ارتفاع يسبب الدوار، كان وميض بارود المدافع على بعد كبير أسفلنا شاهدًا أخرس على ضراوة المعركة التي لا تزال محتدمة على طول تلك الحدود القاسية. لم تصل إلى آذاننا أصوات الاشتباكات، إذ لا يمكن أن تخترق أي موجة صوتية هذا الغلاف الجوي الرقيق لارتفاعنا الهائل؛ بل تتبدد في الهواء الرقيق على مسافة بعيدة أسفلنا.

أصبح البرد قارسًا، والتنفس صعبًا. أبقت الفتاة، فايدور، والقرصان الأسود أعينهم محدقة نحوي. تحدثت الفتاة مطولًا.

قالت بهدوء: «يحدث فقدان الوعي بسرعة عند هذا الارتفاع. أفضل ما يمكنك القيم به هو الهبوط وبسرعة، إلا إذا كنت تدعو الموت ليأتي إلينا».

لم ينمَّ صوتها عن الخوف، كأنما يقول المرء: «من الأفضل أن تحمل مظلة. فسوف تمطر».

هبطت بالسفينة بسرعة إلى مستوى أدنى. لم أسرع هكذا من قبل. أصيبت الفتاة بالإغماء.

كان القرصان الأسود أيضًا فاقدًا للوعي، بينما احتفظت أنا بحواسي، وأعتقد أن ذلك لم يكن إلا بمحض الإرادة. فالشخص الذي تقع على عاتقه كل المسؤولية يقدر على التحمُّل أكثر من غيره.

كنا نتمايل على ارتفاع منخفض فوق سفوح أوتز. كان الجو دافئًا

نسبيًّا، وهناك الكثير من الهواء للرئات الجوعى، ولذا لم أفاجأ لرؤية القرصان الأسود يفتح عينيه، وبعده بلحظة الفتاة أيضًا.

قالت: «أفلتنا بصعوبة».

أجبتها: «مع ذلك، فهذا علمني شيئين».

«ماذا؟»

قلت مبتسمًا: «حتى فايدور، ابنه سيد الحياة والموت، فانية».

فأجابت: «لا يوجد الخلود إلا لدى إيسوس. وإيسوس لعِرق الثيرن فقط. وهكذا أنا خالدة».

رأيت ابتسامة عابرة على ملامح القرصان الأسود وهو يستمع إلى كلماتها. لم أفهم حينذاك سبب ابتسامته. لكني عرفت السبب لاحقًا، وعرفته هي أيضًا، وإن كان بأبشع طريقة.

واصلت حديثها: «إذا كان الشيء الثاني الذي تعلمته الآن قد أدى إلى استنتاجات خاطئة كالشيء الأول، فإن ثراءك في المعلومات لم يزد كثيرًا عما كان عليه».

أجبتها: «الشيء الثاني هو أن صديقنا المكفهر هنا لا ينحدر من القمر الأقرب- كان كأنما مات على بعد بضعة آلاف من الأميال فوق برسوم. وإذا كنا واصلنا الخمسة آلاف ميل التي تقع بين ثوريا[١٥] والكوكب، كان ليصبح مجرد ذكرى متجمدة لرجل».

---

(١٥) ثوريا: القمر الأقرب للمريخ من قمرين يدوران حوله؛ ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس http://barsoom.wikia.com/wiki/Thuria – المترجمة.

نظرت فايدور إلى الرجل الأسود في دهشة واضحة.

وسألته: «إن لم تكن من ثوريا، فمن أين إذن؟».

هز كتفيه، وحول بصره إلى ناحية أخرى، لكنه لم يرد.

ضربت الفتاة قدمها الصغيرة على الأرض بصورة آمرة.

وقالت: «إن ابنة ماتاي شانج ليست معتادة أن تظل أسئلتها دون إجابة. من ينتمي إلى سلالة أقل يتشرف بأن عضوًا من العِرق المقدس الذي وُلِد ليرث الحياة الأبدية قد تفضل حتى بملاحظته».

ابتسم القرصان الأسود ثانية تلك الابتسامة الشريرة التي تنم عن معرفة ما.

وأجاب: «زودار، داتور أبناء برسوم الأوائل، مُعتاد أن يعطي الأوامر، لا أن يستقبلها». ثم تحول ناحيتي قائلًا: «ما نواياك بشأني؟»

قلت: «أعتزم أخذكما إلى هيليوم. لن يمسكما أي ضرر. سوف تجدون رجال هيليوم الحُمر عِرقًا عطوفًا ورحب الصدر. وإذا استمعوا لي، سيتوقف الحج الطوعي إلى نهر إيس، وسيتحطم اعتقادهم المستحيل الذي تعلق في أذهانهم لعصور إلى ألف قطعة».

سألني: «هل أنت من هيليوم؟».

أجبته: «أنا أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم، لكنني لست من برسوم. أنا من عالم آخر».

نظر زودار نحوي باهتمام لبضع لحظات.

وقال مطولًا: «أعتقد أيضًا أنك لست من برسوم. لا يوجد في هذا

العالم من يمكنه بيد واحدة هزيمة ثمانية من الأبناء الأوائل. ولكن، كيف ترتدي الشعر الذهبي والطوق المرصع بالجواهر للثيرني المقدس؟» وشدد على كلمة المقدس مع لمسة من السخرية.

قلت له: «لقد نسيتهم. إنهم غنائم النصر»، وأزلت بمسحة من يدي الشعر التنكري من رأسي.

اتسعت عينا القرصان الأسود في دهشة، عندما سقطت على شعري الأسود القصير. من الواضح أنه كان ينتظر رؤية رأس ثيرني أصلع.

أضاف بمسحة من الرهبة في صوته: «من المؤكد أنك من عالم آخر. لديك بشرة الثيرن، والشعر الأسود للأبناء الأوائل، وعضلات عشرات الداتور. ليس عارًا حتى على زودار الاعتراف بتفوقك، فلم تكن لتقدر أبدًا على القيام بما فعلته إذا كنت من برسوم».

قاطعته قائلًا: «أنت تسبقني بمراحل عديدة، يا صديقي. فهمت أن اسمك زودار، ولكن من هم الأبناء الأوائل، وماذا يعني داتور، و لماذا – إذا هزمك برسومي– لا تعترف بذلك؟».

قال شارحًا: «الأبناء الأوائل في برسوم هم عِرق الرجال السود، وأنا داتور بينهم، أو أمير– كما يقول البرسوميين الأقل مرتبة. إن عِرقي هو الأقدم على هذا الكوكب. ونحن نقتفي أثر نسلنا مباشرة ودون انقطاع إلى شجرة الحياة التي ازدهرت في وادي دور قبل ٢٣ مليون سنة.

خضعت ثمرة هذه الشجرة، لعدد لا يُحصى من العصور، إلى تغييرات تدريجية في تطورها؛ مرت بدرجات من حياة نباتية حقيقية إلى

مزيج من النبات والحيوان. لم تمتلك ثمرة الشجرة في مراحلها الأولى سوى قوة العمل العضلي المستقل، بينما ظل الجذع مرتبطًا بالنبات الأصلي. وفي وقت لاحق تطور المخ في الثمرة؛ وبالتالي أخذت -وهي معلقة هناك عن طريق سيقانها الطويلة- تفكر وتتنقل كأفراد.

ثم مع تطور الإدراك جاءت المقارنة؛ فقد توصلت إلى الأحكام ومقارنتها، وهكذا وُلِد في برسوم العقل والسلطة.

مرت العصور. وظهرت العديد من أشكال الحياة على شجرة الحياة، إلا أنها ظلت ملحقة بالنبات الأب عن طريق سيقان ذات أطوال مختلفة. ومع الوقت أصبحت شجرة الفاكهة تتكون من حجم صغير من رجال النبات، كما نراهم الآن يتوالدون بأبعاد ضخمة في وادي دور، لكنهم لا يزالون معلقين في أغصان وفروع الشجرة عن طريق السيقان التي نمت من قمم رؤوسهم.

والبراعم التي أزهرت رجال النبات تشبه حبات الجوز الكبيرة التي يصل قطرها إلى حوالي قدم، تفصلها جدران من قواطع مزدوجة إلى أربعة أقسام. نما في أحد الأقسام رجل النبات، ونمت في قسم آخر دودة ذات ستة عشرة رِجلًا، وفي القسم الثالث الجد الأعلى للقرد الأبيض، وفي الرابع الرجل الأسود الأول في برسوم.

وعندما انفجر البرعم، ظل رجل النبات معلقًا في نهاية الساق الذي يحمله، لكن الأقسام الثلاثة الأخرى سقطت على الأرض، حيث أدت جهود شاغليها المحبوسين للهرب إلى التنقل في جميع الاتجاهات.

وهكذا، مع مرور الزمن، أصبحت برسوم كلها مغطاة بهذه

المخلوقات الحبيسة -التي عاشت حياتها لعدد لا يُحصى من العصور داخل هياكلهم الصلبة- وأخذت تتجول وتقفز عبر أنحاء الكوكب الواسع، وتقع في الأنهار والبحيرات والبحار؛ ولا يزال انتشارهم يتزايد على سطح العالم الجديد.

مات عدد لا يُحصى من المليارات قبل أن يخترق أول رجل أسود جدران محبسه ويخرج إلى ضوء النهار. وبدافع الفضول، كسر الهياكل الأخرى وفتحها، وبدأ شعب برسوم.

ظلت السلالة النقية من دم هذا الرجل الأسود الأول غير ملوثة بالاختلاط مع المخلوقات الأخرى في العِرق الذي أنتمي إليه. ولكن من الدودة ذات الستة عشر قدمًا، ومن أول قرد ومن الرجل الأسود المارق، نشأت كل أشكال الحياة الحيوانية الأخرى في برسوم».

ابتسم بخبث وهو يقول: «الثيرن ليسوا سوى نتيجة لعصور من تطور القرد الأبيض النقي في العصور القديمة. ولا يزالون ينتمون إلى مرتبة أدنى. لا يوجد سوى عِرق واحد من البشر الحقيقيين والخالدين في برسوم. إنه عِرق الرجال السود.

لقد ماتت شجرة الحياة، لكن رجال النبات تعلموا قبل موتها فصل أنفسهم عنها، والتجول على سطح برسوم مع غيرهم من الأطفال من الأب الأول.

والآن تتيح لهم ازدواجيتهم الجنسية إعادة إنتاج أنفسهم على نمط النباتات الحقيقية، وعلى خلاف ذلك لم يكونوا ليحققوا تقدمًا كبيرًا في جميع عصور وجودهم. إن أفعالهم وتحركاتهم تنطلق بدرجة كبيرة من

الغريزة ولا تسترشد بالعقل، نظرًا لأن حجم مخ رجل النبات لا يزيد سوى قليلًا على نهاية إصبعك الأصغر. إنهم يعيشون اعتمادًا على النباتات ودم الحيوانات، وحجم أمخاخهم يكفي فقط لتوجيه تحركاتهم في اتجاه الغذاء وترجمة أحاسيس الغذاء المحمولة إلى المخ من أعينهم وآذانهم. ليس لديهم إحساس بالحفاظ على الذات، ولذلك فهم لا يشعرون بأي خوف في مواجهة الخطر. وهذا هو السبب في أنهم خصوم شرسون في القتال».

كنت أتساءل لماذا تكبد الرجل الأسود مشقة توجيه هذا الخطاب المطول لنا، ونحن خصومه، عن نشأة الحياة في برسوم. فقد بدت لحظة غير مواتية بغرابة لفرد فخور من عِرق فخور أن يسترخي في محادثة عفوية مع آسره، لا سيما وهو لا يزال مقيدًا بإحكام على سطح السفينة.

على أن شرود بصره الخفيف خلفي لجزء ضئيل من الثانية هو ما فسر لي دافعه لجذب اهتمامي إلى قصته التي تستحوذ الانتباه حقًّا.

كان يرقد إلى الأمام قليلًا حيث أقف عند الروافع، وهكذا كان يواجه مؤخرة السفينة وهو يخاطبني. وفي نهاية وصفه لرجال النبات، لمحت عينيه مثبتتين لحظيًّا على شيء ورائي.

لا يمكن أن أكون مخطئًا في ومضة الانتصار السريعة التي أضاءت تلك الأجرام السماوية الداكنة للحظة.

كنت قد قللت السرعة من فترة؛ لأننا تركنا وادي دور بعدة أميال وشعرت بالأمان نسبيًّا.

ألقيت نظرة خاطفة ورائي، والمشهد الذي رأيته أدى إلى تجميد أمل الحرية الجديد الذي أخذ ينمو داخلي.

تلوح خلفنا مقتربة سفينة حربية كبيرة، تمضي قدمًا بصمت ودون إضاءة خلال الليل المظلم.

❊ ❊ ❊

(٨)

أعماق أوميان

أدركت الآن لماذا أبقاني القرصان الأسود منهمكًا بحكايته الغريبة. لقد أحس من أميال باقتراب المعونة، وباستثناء تلك اللمحة المنذرة لكانت السفينة الفضائية الحربية فوقنا مباشرة في اللحظة التالية، وتندفع حشود الطرف الموجود على متنها ويتأرجحون الآن دون شك في عتادهم من عارضة السفينة، متدفقين على سطح سفينتنا، واضعين أملي المتنامي في الهروب أمام عنصر المفاجئة ونهايته بالكامل.

حالت خبرتي ومهارتي في الحرب الجوية دون أي حيرة الآن للقيام بالمناورة الصحيحة. فعكست المحركات وانخفضت في الوقت نفسه بالسفينة الصغيرة مجرد مائة قدم.

كان يمكنني أن أرى فوق رأسي أشكالًا معلقة من طرف السفينة الحربية وهي تحلق فوقنا. فارتفعت بزاوية حادة، دافعًا ذراع السرعة إلى أقصاه.

ومثل مزلاج القوس والنشاب، اصطدمت مباشرة المقدمة الحديدية لسفينتنا الرائعة في المراوح الطنانة للعملاق فوقنا. إذا تمكنت فقط من

لمسهم، فسوف تتعطل الكتلة الضخمة لساعات ويصبح الهرب ممكنًا مرة أخرى.

وفي اللحظة نفسها، أشرقت الشمس فوق الأفق، كاشفة عن مائة وجه أسود متجهم، يحدقون نحونا من مؤخرة سفينتهم الحربية.

على مرأى منا، انطلقت من مائة حلق صرخة غضب. وصدرت أوامر، لكنها كان متأخرة لإنقاذ المراوح العملاقة التي تحطمت مع اصطدامنا.

في ظل تأثير الصدمة، عكست على الفور محرك سفينتنا، لكن مقدمتها كانت محشورة في الثقب الذي تسببت فيه بمؤخرة السفينة الحربية. علقت هناك لثانية فقط قبل أن أنطلق سريعًا، لكن هذه الثانية كانت طويلة بحيث نفذ خلالها بعض الشياطين السود إلى سطح سفينتنا.

لم ينشب قتال. لا يوجد عمليًّا مكان للقتال، حيث غمرتنا ببساطة أعدادهم الغفيرة. وفي ظل السيوف التي تتهددني، أبعد أمر من زودار أيدي زملائه.

قال: «قيدوهما، ولكن لا تؤذوهما».

كان العديد من القراصنة قد أطلقوا سراح زودار بالفعل. وحضر بنفسه الآن ليشهد نزع سلاحي ويتأكد من تقييدي بشكل صحيح. تصور، على الأقل، أن الوثاق محكم. وهو يُعتبر مُحكمًا إذا كنت مريخيًّا، لكنني ابتسمت على ضعف الجدائل التي قيدت معصمي. يمكنني قضمها، في الوقت المناسب؛ لأنها خيوط قطنية.

قيدوا الفتاة أيضًا، ثم ربطونا معًا. وفي الوقت نفسه أحضروا سفينتنا جنبًا إلى جنب مع السفينة الحربية المعطوبة، وسرعان ما نقلونا إلى سطحها.

ضمت سفينة الدمار الضخمة ألف رجل أسود. وازدحمت أسطحها بهم وهم يشقون طريقهم للأمام، بقدر ما يتيحه الممر؛ ليلقوا لمحة على أسراهم.

أثار جمال الفتاة العديد من التعليقات الوحشية والدعابات المبتذلة. فمن الواضح أن هؤلاء الرجال الذين يتصورون أنفسهم خارقين كانوا أقل شأنًا من رجال برسوم الحُمر من حيث الكياسة والفروسية.

كان شعري الأسود القصير ومظهري الثيرني مثار الكثير من التعليقات. عندما أخبر زودار زملاءه النبلاء عن قدراتي القتالية وأصلي الغريب، تزاحموا حولي مع العديد من الأسئلة.

حقيقة أنني أرتدي عتاد ومعادن الثيرني الذي قُتِل على يد أحد أفراد مجموعتي، أقنعتهم أنني عدو لخصومهم المتوارثين، ووضعتني على مستوى أفضل في تقديرهم.

كان الرجال السود يتسمون، دون استثناء، بالوسامة وهيئاتهم جيدة البنية. برز الضباط منهم بوضوح من خلال فخامة زخارف أغطيتهم المتألقة. وكان الكثير من عتادهم مرصعًا بالذهب، والبلاتين، والفضة، والأحجار الثمينة، بحيث تخفي البشرة تمامًا أدناها.

أما عتاد الضابط القيادي، فهو عبارة عن كتلة صلبة من الماس. وفي

مقابل الخلفية الأبنوسية لبشرته، توهج عتاده بتألق شديد وغريب. كان المشهد بأكمله ساحرًا. الرجال الوُسَماء؛ الرونق البربري للتجهيزات؛ السطل الخشبي المصقول في سطح السفينة؛ خشب السورابوس(١٦) الرائع في الكبائن، المُطعَّم بالجواهر والمعادن الثمينة في تصميم أنيق وجميل؛ والدرابزين المصنوع من الذهب المصقول؛ والبنادق المصنوعة من معدن برّاق.

أنزلوني أنا وفايدور أسفل سطح السفينة، حيث ألقونا -ونحن لا نزال مقيدين- في مقصورة صغيرة تضم نافذة دائرية واحدة. أغلق الحراس الباب وراءهم بعد أن تروكنا.

كان يمكننا سماع الرجال يعملون على إصلاح المراوح المحطمة، وأمكننا من النافذة الدائرية أن نرى السفينة تتحرك متكاسلة نحو الجنوب.

بقينا لبعض الوقت دون حديث، حيث انشغل كل منا بأفكاره. من ناحيتي، كنت أتساءل عن مصير تارس تاركاس والفتاة، ثوفيا.

حتى إذا نجحوا في تجنب المطاردة، فقد يقعون في نهاية المطاف في أيدي الرجال الحُمر أو الرجال الخُضر؛ وكونهم هاربين من وادي دور، لن يلقوا أي مصير آخر يختلف قليلًا عن وفاة سريعة ورهيبة.

كم تمنيت مرافقتهم. أعتقد أنني لم أكن لأفشل في إقناع رجال برسوم الحُمر الأذكياء بالخدعة الشريرة التي دستها عليهم تلك الخرافات القاسية والخرقاء.

---

(١٦) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثمارة النضره المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus – المترجمة.

كان تاردوس مورس سيصدقني. كنت متأكدًا من ذلك. وأنه سيمتلك شجاعة معتقداته، فمعرفتي بشخصيته أكدت لي ذلك. وديجاه ثوريس سوف تصدقني. لم يساورني أي شك في ذلك. ثم هناك ألف من أصدقائي المحاربين الحُمر والخُضر الذين أعرف أنهم سيواجهون اللعنة الأبدية بكل سرور من أجلي؛ مثل تارس تاركاس، أينما أقود سيتبعونني.

يكمن الخطر الوحيد أمامي في أنني إذا تمكنت من الهرب من القراصنة السود، قد أقع في أيدي رجال حُمر أو خُضر غير ودودين. عندئذ سألقى معاملة فظة.

حسنًا، لا يوجد ما يدعو إلى القلق كثيرًا في هذا الصدد، فاحتمال هروبي أصلًا من السود يبدو بعيد المنال.

كنت والفتاة مربوطين معًا بحبل لا يسمح لنا بالحركة إلا لمسافة ثلاثة أو أربعة أقدام عن بعضنا. عندما دخلنا المقصورة، جلسنا على مقعد منخفض تحت النافذة الدائرية. كان المقعد الطويل بمثابة قطعة الأثاث الوحيدة في الغرفة. كان من خشب السورابوس، والأرض والسقف والجدران من كربورندم(١٧) الألومنيوم، وهو تركيبة خفيفة لا يمكن اختراقها، وتُستخدم على نطاق واسع في بناء سفن المريخ القتالية.

وأنا جالس أفكر في المستقبل، تسمرت عيناي على النافذة المستديرة التي تقع وأنا جالس على مستوى عيني. نظرت فجأة نحو فايدور؛ ورأيتها تنظر نحوي بتعبير غريب غريب لم أره من قبل على وجهها. كانت جميلة جدًّا.

(١٧) الكربورندم هو كربيد السيليكون، وهو مُركب من السيليكون والكربون يتميز بصلابته الشديدة – المترجمة.

وعلى الفور حجبت جفونها البيضاء عينيها، وظننت أنني اكتشفت مسحة من تورد رقيق على خديها. من الواضح أنها شعرت بالحرج لاكتشافها وهي تحدق في مخلوق أقل مرتبة، هكذا تصورت.

سألتها ضاحكًا: «هل تجدين دراسة المراتب الأدنى مثيرة للاهتمام؟».

تطلعت نحوي مرة أخرى بضحكة صغيرة عصبية، وإن كانت ينم على الارتياح.

قالت: «أوه، جدًّا؛ لا سيما عندما تكون لديهم تلك الملامح الممتازة».

كان دوري لأحمر خجلًا، ولكن لم يحدث. شعرت أنها تمازحني، وأُعجبت بالقلب الشجاع الذي يمكن أن يبحث عن روح الدعابة وهو على طريق الموت، وبالتالي ضحكت معها.

أضافت: «هل تعرف إلى أين نحن ذاهبون؟».

أجبتها: «لحل لغز الآخرة الأبدية، كما أتصور».

قالت برجفة قليلة: «أنا ذاهبة لمصير أسوأ من ذلك».

«ماذا تقصدين؟».

أجابت: «لا يمكنني سوى التخمين؛ حيث لا توجد فتاة ثيرنية، من بين الملايين من الفتيات التي سرقها القراصنة السود خلال عصور غاراتهم على مناطقنا، قد عادت من قبل لتروي خبراتها بينهم. كونهم لا يأسرون رجلًا أبدًا، يعزز الاعتقاد بأن مصير الفتيات التي يسرقونهم أسوأ من الموت».

لم يسعني إلا أن أسألها: «أليس قصاصًا عادلًا؟».

«ماذا تقصد؟».

«ألا يفعل الثيرن أنفسهم الشيء نفسه مع المخلوقات المسكينة التي تحج طواعية إلى نهر الغموض؟ ألم تكن ثوفيا لخمسة عشر عامًا ألعوبة وعبدة؟ أليس من العدل أن تعانين مثلما تسببت في المعاناة لآخرين؟».

أجابت: «أنت لا تفهم. نحن الثيرن عِرق مقدس. وهو شرف لمخلوق أدنى أن يكون عبدًا بيننا. ألسنا ننقذ أحيانًا عددًا من مخلوقات المراتب الأدنى التي تطفو بغباء على نهر غير معروف إلى نهاية غير معروفة، ويمكن أن تصبح فريسة لرجال النبات والقرود».

جادلتها: «ولكن ألستم تشجعون بكل الوسائل الخرافات لدى أناس العالم الخارجي؟ هذه أكثر أعمالكم شرًّا. هل يمكنك أن تقولي لي لماذا تعززون الخداع القاسي؟».

قالت: «لقد نشأت جميع أشكال الحياة على برسوم من أجل دعم العِرق الثيرني فقط. وإلا كيف يمكننا أن نعيش إذا لم يزودنا العالم الخارجي بالعِمالة والغذاء؟ هل تعتقد أن الثيرني عليه أن يحط من قدره بأن يعمل؟».

سألتها في رعب: «هل صحيح أنكم تأكلون لحوم البشر؟».

نظرت لي في نظرة شفقة ورثاء لجهلي.

«حقًّا، نحن نأكل لحم الكائنات الأقل مرتبة. ألا تفعلون ذلك أنتم أيضًا؟».

أجبتها: «لحم الحيوانات، نعم، ولكن ليس لحم البشر».

«بمثل ما يمكن للبشر أكل لحم الحيوانات، يمكن بالتالي للآلهة أن تأكل لحم البشر. الثيرن المقدسون هم آلهة برسوم».

شعرت بالاشمئزاز، وأتصور أنني أوضحته.

واصلت كلامها بلطف: «أنت الآن غير مؤمن، ولكن إذا حالفنا الحظ بما يكفي للهروب من براثن القراصنة السود ووصلنا مرة أخرى إلى ساحة ماتاي شانج، أعتقد أننا سنجد حجة لإقناعك بخطأ سبيلك. و....»، قالت مترددة، «ربما سنجد وسيلة لإبقائك كـ... كـ.. كواحد منا».

نظرت إلى الأرض مرة أخرى، واكتسى خديها بلون خفيف. لم أستطع أن أفهم معنى كلامها؛ ولمدة طويلة أيضًا. اعتادت ديجاه ثوريس أن تقول عني في بعض الأشياء أنني ساذج حقيقي، وأعتقد أنها كانت على حق.

أجبتها: «أخشى أنني لن أحظى بضيافة والدك، حيث أول شيء سأقوم به وأنا ثيرني هو تعيين حراس مسلحين عند مصب النهر لمرافقة المسافرين المساكين المخدوعين في رحلة عودتهم ثانية إلى العالم الخارجي. كما أنني سأكرس حياتي لإبادة رجال النبات البشعين ورفقاهم المُروعين، القرود البيضاء الكبيرة».

تطلعت في وجهي برعب حقيقي.

صاحت: «كلا، كلا، يجب ألا تقول مثل هذه الأشياء الرهيبة المدنسة ... يجب ألا تفكر فيها حتى. إذا خمنوا أنك تعتنق مثل هذه الأفكار المخيفة، وإذا واتتنا الفرصة لاستعادة معابد الثيرن، فسوف

يعاقبونك بموت مروع. لن أتمكن حتى يا ... يا ...»، مرة أخرى تورد خديها ثم قالت مجددًا: «لن أتمكن حتى من إنقاذك».

لم أقل أي شيء آخر. فمن الواضح أنه لا طائل من الكلام. فهي مُشبعة بالخرافات أكثر حتى من مريخي العالم الخارجي الذين يقدسون أملًا جميلًا في حياة من الحب والسلام والسعادة في الآخرة. أما الثيرن، فهم يقدسون رجال النبات البشعين والقرود، أو على الأقل يبجلونهم كمساكن لأرواح غادرت موتاهم.

وهنا فُتِح باب محبسنا، ودخل زودار.

ابتسم بدماثة لي، وعندما ابتسم كانت تعبيراته لطيفة- أي شيء إلا القسوة أو الرغبة في الانتقام.

قال: «نظرًا لأنك لا تستطيع الهرب تحت أي ظرف من الظروف، فلا أرى ضرورة للإبقاء عليك مقيدًا هنا في أسفل. سوف أفك قيودك ويمكنك أن تصعد معي إلى سطح السفينة. ستشهد شيئًا مثيرًا للاهتمام، ولأنك لن تعود أبدًا إلى العالم الخارجي، فما من ضرر أن أسمح لك بمشاهدته. سوف تشاهد ما لا يعرف بوجوده إلا الأبناء الأوائل وعبيدهم- أعني المدخل تحت الأرضي للأرض المقدسة، إلى السماء الحقيقية لبرسوم».

وأضاف: «سيكون درسًا ممتازًا لابنة الثيرن هذه؛ لأنها سترى معبد إيسوس، ومن المحتمل أن تحتضنها إيسوس».

ارتفعت رأس فايدور.

وصاحت: «ما هذا الكُفر، يا كلب القراصنة؟ إيسوس سوف تمحو سلالتك كلها قبل أن تصل إلى معبدها».

أجابها زودار بابتسامة قبيحة: «هناك الكثير لتتعلميه يا ثيرنية، ولن أحسدك على الطريقة التي ستتعلمين بها».

صعدنا إلى سطح السفينة، ولدهشتي رأيت السفينة تمر فوق حقل كبير من الثلج والجليد. وبقدر ما يمكن أن تصل عيناي في أي اتجاه، لم يكن هناك أي شيء آخر مرئيًّا.

لا يمكن أن يوجد سوى حل واحد للغز. كنا فوق الغطاء الجليدي القطبي الجنوبي. لا يوجد على هذا الكوكب أي جليد أو ثلوج إلا عند قطبي المريخ. لا تظهر أي علامة على الحياة تحتنا. من الواضح أننا في أقصى الجنوب، حتى بالنسبة للحيوانات ذات الفراء الكبير التي يستمتع المريخيون بصيدها.

وقف زودار بجانبي وأنا أطل من فوق درابزين السفينة.

سألته: «ما المسار؟».

فأجاب: «قليلًا نحو غرب الجنوب. سوف تشاهد وادي أوتز مباشرة. سنطوف حوله خلال بضع مئات من الأميال».

صحت: «وادي أوتز! ولكن يا رجل، ألا تكمن هناك مناطق الثيرن التي هربت منها مؤخرًا؟».

أجاب زودار: «نعم. أنت عبرت هذا الحقل الجليدي الليلة الماضية في المطاردة الطويلة التي قدتنا فيها. يقع وادي أوتز في منخفض جبار

بالقطب الجنوبي. إنه غاطس لآلاف الأقدام تحت مستوى القطاع المحيط به، مثل وعاء دائري هائل. وعلى بعد مائة ميل من حدوده الشمالية، ترتفع جبال أوتز التي تحيط وادي دور الداخلي، وفي مركزه تحديدًا يقع بحر كوراس المفقود. وعلى شاطئ هذا البحر يقف المعبد الذهبي لإيسوس في أرض الأبناء الأوائل. نحن نتجه إلى هناك».

عندما نظرت، بدأت أدرك لماذا لم يتمكن من الهرب من وادي دور في جميع العصور سوى شخص واحد فقط. تعجُّبي الوحيد هو نجاح هذا الشخص الوحيد في الهرب؛ إذ يبدو من ضروب المستحيل العبور، وسيرًا على الأقدام، خلال هذه المساحة القفر المتجمدة التي تجتاحها الرياح، ولا يوجد بها سوى الجليد والصقيع.

أنهيت كلامي قائلًا بصوت عال: «لا يمكن القيام بهذه الرحلة إلا عن طريق زورق فضائي».

قال زودار، وصوته يحمل لمسة فخر: «وعلى هذا النحو، تمكن شخص من الهروب من الثيرن في العصور الغابرة؛ ولكن لم يتمكن أحد من قبل الهروب من الأبناء الأوائل».

وصلنا الآن إلى أقصى جنوب الحاجز الجليدي الكبير. انتهى فجأة عند جدار عمودي يرتفع آلاف الأقدام ويمتد عند قاعدته وادٍ مستوٍ، تتناثر فيه هنا وهناك تلال منخفضة متموجة وكتل صغيرة من الغابات، بالإضافة إلى أنهار بالغة الصغر تشكلت بفعل ذوبان الحاجز الجليدي عند قاعدته.

طرنا عاليًا فوق ما بدا صدعًا عميقًا يشبه الأخدود ويمتد من الجدار الجليدي في الشمال عبر الوادي، بقدر ما يمكن أن تصل العين. قال

زودار: «هذا هو قاع نهر إيس. يمتد على عمق أسفل الحقل الجليدي، وأدنى من مستوى وادي أوتز، لكن أخدوده مفتوح هنا».

أنا أصف الآن ما اعتبرته قرية، وأشرت نحوه، وسألت زودار عما قد يكون.

فأجاب ضاحكًا: «إنها قرية الأرواح الضائعة. يُعتبر هذا الشريط، بين الحاجز الجليدي والجبال، أرضًا محايدة. ينعطف البعض في طريق جانبي خلال حجهم الطوعي إلى نهر إيس، وبعد تسلقهم الجدران الفظيعة أسفلنا، يتوقفون في الوادي. وأحيانًا يهرب أيضًا عبد من الثيرن ويشق طريقة إلى هنا.

ولا يحاول الثيرن استعادتهم، حيث لا مهرب من هذا الوادي الخارجي، ويخشون في واقع الأمر دوريات السفن الفضائية التابعة للأبناء الأوائل، وبالتالي لا يخاطرون بالخروج من مناطقهم.

نحن لا نعتدي على مخلوقات هذا الوادي الخارجي الضعيفة، فليس لديهم أي شيء نريده، ولا هم أقوياء عدديًا بما يكفي لمنحنا معركة مثيرة - ولذا نحن أيضًا نتركهم لحالهم.

هناك عدة قرى مماثلة، وقد زاد عددها وإنما بقدر ضئيل خلال سنوات عديدة؛ لأنهم يتحاربون دائمًا فيما بينهم».

نحن نتأرجح قليلًا الآن في شمال الغرب، تاركين وادي الأرواح الضائعة. وبعد فترة قصيرة، رأيت عبر ميمنة مقدمة السفينة ما بدا أنه جبل أسود يرتفع من الامتداد الجليدي المقفر. لم يكن عاليًا، وبدت قمته مستوية.

تركنا زودار ليهتم ببعض الواجبات على متن السفينة. وقفت مع فايدور وحدنا بجانب الدرابزين. لم تتحدث الفتاة ولا لمرة واحدة منذ أن أحضرونا إلى سطح السفينة.

سألتها: «هل ما قاله لي صحيح؟».

أجابت: «نعم، جزئيًّا. ما قاله عن الوادي الخارجي صحيح، أما ما قاله عن موقع معبد إيسوس في وسط مقاطعته فهو كذب». ترددت ثم قالت: «وإذا لم يكن كذبًا ... أوه لا يمكن أن يكون صحيحًا، لا يمكن أن يكون صحيحًا. فإذا كان صحيحًا، فهذا يعني أن شعبي ظل يذهب لعدد لا يُحصى من العصور إلى التعذيب والموت المشين على أيدي أعدائه القاسين، وليس إلى الحياة الأبدية الجميلة التي تربينا على الاعتقاد بأن إيسوس تحتفظ بها لنا».

قلت لها: «كما خدعتم البرسوميين الأقل مرتبة من العالم الخارجي للتوجه إلى وادي دور الرهيب، فربما خدع الأبناء الأوائل الثيرن للتوجه إلى مصير مروع مماثل. سيكون عقابًا صارمًا وفظيعًا، فايدور، وإن كان عادلًا».

قالت: «لا أستطيع أن أصدق ذلك».

أجبتها: «سنرى»، ثم صمتنا مرة أخرى؛ لأننا كنا نقترب بسرعة من الجبال السوداء، التي بدت بطريقة يصعب تحديدها مرتبطة بالإجابة على مشكلتنا.

عندما بدأنا نقترب من القمة المخروطية المبتورة المظلمة، تقلصت سرعة سفينتنا حتى أصبحت بالكاد ما تتحرك. أصبحنا الآن فوق قمة

الجبل ورأيت أسفلنا فتحة دائرية ضخمة لحفرة تبدو كفم يتثاءب، ويختفي قاعه في السواد الحبري.

يبلغ قطر هذه الحفرة الهائلة ألف قدم بالكامل، جدرانها ناعمة، ويبدو أنها مؤلفة من صخور بازلتية سوداء.

تأرجحت السفينة للحظة بلا حراك فوق مركز الفراغ مباشرة الذي يفتح فاهه، ثم بدأت تستقر ببطء داخل الهوة السوداء. أخذت تهبط تدريجيًّا إلى أن غرقت في الظلام الذي أصبح يلفها، وهنا فتحت أضواءها، ثم بدأت تهبط في الهالة الخافتة من شعاعها داخل ما بدا لي أنه باطن برسوم.

ظللنا نهبط لحوالي نصف ساعة، وفجأة انتهى البئر عند قبة عالَم جبار تحت الأرض. كانت دوامات بحر مدفون ترتفع وتنخفض أسفلنا. أضاء شعاع فوسفوري المشهد. تناثرت آلاف السفن في حضن المحيط. وارتفعت جزر صغيرة هنا وهناك لدعم الحياة النباتية الغريبة عديمة اللون في هذا العالم الغريب.

هبطت السفينة الحربية ببطء ورشاقة مهيبة، إلى أن استقرت فوق الماء. كانت مراوحها الكبيرة قد تم سحبها وإعادتها لمكانها خلال هبوطنا البئر، وحلت محلها مراوح مائية أصغر حجمًا لكنها أكثر قوة. وعندما بدأت هذه المراوح تدور، واصلت السفينة رحلتها ثانية، طافية بهذا العنصر الجديد بأمان كما كانت في الهواء.

صُعِقنا أن وفايدور. لم يكن أي منا قد سمع أو حلم بوجود مثل هذا العالَم تحت سطح برسوم.

كانت كل السفن التي رأيناها تقريبًا سفنًا فضائية حربية. وهناك عدد قليل من الزوارق والصنادل، لكنها جميعًا ليست سفنًا تجارية كبيرة.

قال صوت خلفنا: «هنا ميناء بحرية الأبناء الأوائل». استدرنا، فرأينا زودار يرقبنا بابتسامة مستمتعة على شفتيه.

تابع قائلًا: «هذا البحر أكبر من كوراس، وهو يستقبل مياه البحر الأدنى فوقه. ومن أجل منعه من الامتلاء فوق مستوى معين، لدينا أربع محطات ضخ كبيرة تُجبر المياه الزائدة على العودة إلى الخزانات شمالًا، حيث يأخذ الرجال الحُمر الماء الذي يروي أراضيهم الزراعية».

لمع في ذهني فجأة ضوء جديد مع تفسيره هذا. كان الرجال الحُمر دائمًا يعتبرون أن معجزة هي التي تسببت في اندفاع أعمدة كبيرة من المياه من الصخور الصلبة من جانبي خزانهم لزيادة إمدادات السائل الثمين الذي يندر وجوده في العالم الخارجي من المريخ.

لم يتمكن أبدًا رجالهم المتعلمين من فهم سر مصدر هذا الحجم الهائل من المياه. ومع مر العصور، أصبحوا ببساطة يقبلونه كأمر طبيعي وتوقفوا عن التساؤل حول مصدره.

مررنا على العديد من الجزر التي توجد فوقها مبان دائرية غريبة الشكل، من الواضح أنها بلا أسقف، وتخترقها في منتصف المسافة بين الأرض وقممها نوافذ صغيرة ذات قضبان منيعة. كانت تشبه السجون، وهو ما أكده وجود حراس مسلحين جاثمين فوق مقاعد طولية منخفضة في الخارج، أو يقومون بدوريات على خطوط الشاطئ القصيرة.

كان عدد قليل من هذه الجزر الصغيرة يحتوي على أكثر من فدان من الأرض، لكننا نشاهد حاليًا جزيرة أكبر بكثير أمامنا مباشرة. وقد ثبت أن هذا هو مقصدنا، وأسرعت السفينة الكبيرة في مواجهة الشاطئ المنحدر.

أشار لنا زودار أن نتبعه. غادرنا السفينة الحربية معه ومع نصف دزينة من الضباط والرجال، واقتربنا من بنية بيضاوية كبيرة تبعد بضع مئات من الياردات عن الشاطئ.

قال زودار لفايدور: «سوف ترين إيسوس قريبًا. نقدم إليها القليل من السجناء الذين نأسرهم. تختار من بينهم أحيانًا العبيدات لسد النقص في صفوف وصيفاتها. لا أحد يخدم إيسوس أكثر من سنة واحدة»، وهنا ظهرت هناك ابتسامة قاتمة على شفتي القرصان الأسود أضفت معنى قاسيًا وشريرًا على عبارته البسيطة.

فايدور، على الرغم من أنها كارهة للاعتقاد بأن إيسوس تتحالف مع مثل هؤلاء، فقد بدأت تعبر عن بعض الشكوك والمخاوف. تشبثت بي على نحو وثيق، لم تعُد الابنة الفخورة لسيد الحياة والموت في برسوم، وإنما فتاة شابة خائفة في قبضة أعداء لا يرحمون.

دخلنا الآن مبنى بلا سقف على الإطلاق. يوجد في مركزه خزان طويل للمياه، يقع أدنى من مستوى الأرض مثل حوض سباحة داخلي، ويطفو كائن أسود غريب الشكل بالقرب من أحد جوانبه. سواء كان وحشًا غريبًا من هذه المياه المدفونة، أو كان طوفًا عجيبًا، لم أتمكن من إدراك ذلك على الفور.

على أي حال سرعان ما عرفنا؛ إذ عند وصولنا إلى حافة الحوض،

وفوق هذا الشيء مباشرة، قال زودار بضع كلمات بصوت عال في لغة غريبة. وعلى الفور، ارتفع غطاء باب فتحة صغيرة على سطح الشيء، وانطلق بحار أسود من باطن المركبة الغريبة.

خاطب زودار البحار.

قال: «أبلغ ضابطك أوامر داتور زودار. قل له إن داتور زودار، مع الضباط والرجال، ويرافقه أسيرين، سوف يتم نقلهم إلى حدائق إيسوس بجوار المعبد الذهبي».

أجاب الرجل: «فلتحل بركة سلفك الأول، يا أنبل داتور. سيحدث ما قلته»، ثم رفع كلتا يديه، وراحتهما إلى الوراء فوق رأسه، وفقًا لطريقة التحية المشتركة بين جميع أعراق برسوم، واختفى مرة أخرى داخل جوف سفينته.

بعد ذلك بدقائق ظهر على سطح السفينة ضابط متألق بأغطيته الزخرفية الرائعة الخاصة برتبته، ورحب بزودار للدخول إلى السفينة، وفي أعقاب ذلك صعدنا على متنها، ثم هبطنا داخلها.

كانت المقصورة التي وجدنا أنفسنا فيها تمتد كاملًا عبر السفينة، وعلى جانبيها نوافذ دائرية تقع على مستوى أسفل سطح المياه. لم نكد نصل، حتى صدر عدد من الأوامر أُغلق بموجبها باب الفتحة، وتم تأمينه بإحكام، وبدأت السفينة تهتز على صوت خرخرة أجهزتها الإيقاعي.

سألتني فايدور: «إلى أين يمكن أن نذهب في مثل هذه البركة الصغيرة من المياه».

أجبتها: «ليس إلى أعلى، لا سيما أنني لاحظت أن البناء رغم أنه مكشوف بلا سقف، فهو مُغطى بحاجز معدني صلب».

سألتني مرة أخرى: «إذن إلى أين؟».

أجبتها: «من مظهر السفينة، أتصور أننا نغوص لأسفل».

ارتجفت فايدور. لعصور طويلة كانت مياه بحار برسوم بمثابة شيء تراثي فحسب. فحتى ابنة الثيرن هذه، التي وُلدت على مرأى البحر الوحيد المتبقي في المريخ، كانت تشعر بنفس الرعب من المياه العميقة الذي يشعر به جميع المريخين.

أصبح الإحساس بالغرق شديد الوضوح الآن. كنا نهبط بسرعة. والآن يمكننا أن نسمع اندفاع المياه من النوافذ المستديرة. وفي الضوء الخافت الذي تسرب من خلالها إلى الماء، ظهرت الدوامات بوضوح.

تشبثت فايدور بذراعي.

همست لي قائلة: «أنقذني! وسوف أمنحك كل رغباتك. أي شيء ممكن إعطاؤه لك في إطار سلطة الثيرن المقدسين سوف تحصل عليه. فايدور ...» تلعثمت قليلًا هنا، ثم قالت بصوت منخفض جدًّا: «فايدور لك بالفعل».

شعرت بأسف شديد للطفلة المسكينة، ووضعت يدي فوق يدها المستقرة على ذراعي. أتصور أنها أساءت فهم دوافعي؛ إذ بلمحة سريعة حول المكان، لتؤكد لنفسها أننا وحدنا، ألقت ذراعيها حول عنقي وجذبت وجهي إلى وجهها.

(٩)

إيسوس، إلهة الحياة الأبدية

إن الاعتراف بالحب الذي انبثق منه رعب الفتاة، لمس مشاعري بعمق؛ لكنه أهانني أيضًا، حيث شعرت أنني بكلماتي وتصرفاتي العفوية أعطيتها سببًا للاعتقاد أنني أبادلها العاطفة.

لم أكن أبدًا رجلًا يهتم بالنساء، بل كان اهتمامي ينصب أساسًا على القتال والفنون المماثلة التي بدت لي دومًا أنها تليق برجل أكثر من التجوال حول قفازات معطرة أصغر من قياسه بأربعة مقاسات، أو تقبيل زهرة ميتة بدأت رائحتها تشبه رائحة الكرنب. ولذا كنت في حيرة شديدة بشأن ما أفعل أو أقول. إنني أفضل ألف مرة مواجهة الجحافل الوحشية في قيعان البحر الميت على الالتقاء بأعين هذه الفتاة الشابة الجميلة وأقول لها الشيء الذي يجب أن أقوله لها.

ولكن ليس أمامي شيء آخر، وبالتالي فعلت ذلك. وأخشى أنني فعلته بشكل أخرق.

أبعدت يديها من حول عنقي، وأبقيتهما في يدي وأخبرتها بقصة حبي لديجاه ثوريس؛ وأنها الوحيدة التي أحببتها، من بين جميع النساء

اللاتي عرفتهن وأُعجبت بهن في العالمين خلال حياتي الطويلة.

لم تنل الحكاية إعجابها. انطلقت لاهثة كالنمرة. تشوه وجهها الجميل بتعبير ينم عن حقد رهيب. واتقدت عيناها وهي تنظر نحوي.

هسهست قائلة: «كلب، كلب كافر!». قالت آمرة: «أتعتقد أن فايدور، ابنه ماتاي شانج، تتوسل؟ ماذا تعني لها عاطفتك السقيمة في العالم الخارجي للمخلوقة الخسيسة التي اخترتها في حياتك الأخرى؟

لقد منحتك فايدور مجدًا بحبها، وأنت رفضتها بازدراء. لا يمكن أن تعوض عشرة آلاف من الوفيات الفظيعة التي لا يمكنك تصورها عن الإهانة التي وجهتها لي. الشيء الذي تسميه ديجاه ثوريس سوف يموت أفظع موت. أنت أصدرت الأمر بموتها.

وأنت! أنت ستكون أحقر عبد في خدمة الإلهة التي حاولت إذلالها. سينهال عليك التعذيب والهوان إلى أن تنبطح أمام قدمي متذللًا تطلب نعمة الموت.

وأقصى كرمي أن أقبل توسلاتك، وأشاهد من الشرفة العالية في المنحدرات الذهبية القرود البيضاء الكبيرة تمزقك إربًا».

كان كل شيء محددًا لديها. البرنامج الجميل كله من البداية إلى النهاية. أدهشني أن شخصًا بهذا القدر من الجمال الإلهي وفي الوقت نفسه على هذا القدر من الانتقامية الشريرة. بيد أنه تبادر إلى ذهني أنها أغفلت عاملًا واحدًا صغيرًا في انتقامها، وهكذا، ودون أي نية لزيادة حرجها، وإنما بالأحرى السماح لها بإعادة ترتيب خططها عبر خطوط

أكثر عملية، أشرت إلى أقرب نافذة دائرية.

ومن الواضح أنها نست تمامًا محيطها وظروفها الراهنة، إذ بلمحة إلى السطح في الظلام، أرسلتها دوامات المياه في الخارج مكومة على مقعد طويل منخفض، حيث اندفن وجهها بين ذراعيها، وأجهشت بالبكاء كفتاة صغيرة تعيسة أكثر منها إلهة فخورة كاملة السلطة.

واصلت السفينة هبوطها إلى أن أصبح زجاج النوافذ الدائرية الثقيل دافئًا بشكل ملحوظ من حرارة الماء خارجه. من الواضح أننا هبطنا إلى مسافة بعيدة جدًّا تحت قشرة سطح المريخ.

توقفت حركة الهبوط الآن، وأمكنني أن أسمع دوران المراوح خلال المياه في مؤخرة السفينة بما يدفعنا قدمًا بسرعة عالية. كان الظلام حالكًا هنا في أسفل، لكن الضوء القادم من النوافذ الدائرية، وانعكاس ما يبدو ضوء كشاف قوي على مقدمة الغواصة، أوضح أننا نمضي قدمًا من خلال ممر ضيق، محاط بالصخور، ويشبه النفق.

وبعد بضع دقائق توقفت المراوح عن الطنين. توقفنا بالكامل، ثم بدأنا في الارتفاع بسرعة نحو السطح. وسرعان ما تزايد الضوء في الخارج، ثم توقفنا.

دخل زودار المقصورة مع رجاله.

قال: «هيا»، تابعناه خلال الباب الأرضي الذي كان قد فتحه أحد البحارة.

وجدنا أنفسنا في قبو صغير تحت الأرض، توجد في منتصفه بركة

صغيرة تطفو فوقها غواصتنا، كانت طافية بمثل ما رأيناها بداية، لا يظهر سوى ظهرها.

توجد حول حافة الحوض منصة مستوية، وترتفع جدران الكهف عموديًّا لبضعة أقدام إلى قوس في اتجاه وسط سقف منخفض. وتتناثر على الجدران حول الحافة عدد من المداخل المؤدية إلى ممرات خافتة الإضاءة.

قادنا خاطفونا في اتجاه أحدها، وبعد مسيرة قصيرة توقفنا أمام قفص فولاذي يقع في قاع بئر مصعد يرتفع فوقنا بقدر ما يمكن أن يرى المرء.

ثبت أن القفص هو أحد الأنواع الشائعة من عربات الرفع التي رأيتها في أجزاء أخرى من برسوم. وهي تُدار عن طريق مغناطيسات هائلة مُعلقة في الجزء العلوي من البئر. وباستخدام جهاز كهربائي، يتم تنظيم حجم المغناطيسية المتولدة، وبالتالي تختلف سرعة العربة.

تتحرك العربة عبر امتدادات طويلة بسرعة تثير الغثيان، لا سيما في رحلة الصعود؛ ذلك أن صغر قوة الجاذبية الكامنة في المريخ تسفر عن معارضة محدودة جدًّا للقوة الجبارة في أعلى.

ما إن أُغلق باب العربة وراءنا، حتى بدأنا نصعد ببطء وتوقفنا عند رصيف المرفأ أعلاه، وكان صعودنا سريعًا جدًّا عبر البئر الطويل.

عندما خرجنا من المبنى الصغير الذي يضم المحطة العلوية للمصعد، وجدنا أنفسنا في وسط دنيا الجمال الخيالي الحقيقية. لا تضم جميع لغات كوكب الأرض مجتمعة أي كلمة تنقل إلى العقل جمال هذا المشهد الفاتن.

يمكن أن يتكلم المرء عن المرج القرمزي والأشجار ذات الجذوع العاجية والمزينة بزهور أرجوانية رائعة؛ والدروب المتعرجة المرصوفة بالياقوت المسحوق، والزمرد، والفيروز، وحتى بالألماس نفسه؛ وعن معبد مهيب من الذهب المصقول، بتصميمات بديعة يدوية الصنع؛ ولكن أين الكلمات التي يمكن أن تصف الألوان المتألقة غير المعروفة لأعين سكان كوكب الأرض؟ وأين العقل أو الخيال الذي يمكن أن يستوعب ذلك التألق فائق الجمال لإشاعات لم يسمع عنها أحد، تنبعث من آلاف الجواهر مجهولة الاسم في برسوم؟

حتى عيناي، التي اعتادت لسنوات طويلة على العجائب البربرية في ساحات الجيداك المريخيين، كانت في دهشة من عظمة المشهد.

اتسعت عينا فايدور في ذهول.

همست، لنفسها تقريبًا: «معبد إيسوس».

كان زودار يرقبنا بابتسامته القاتمة، مستمتعًا جزئيًّا وبشماتة خبيثة جزئيًّا.

احتشد في الحدائق رجال ونساء سود يرتدون أغطية رائعة. وتتحرك بينهم إناث حُمر وبيض يلبون رغباتهم. لقد سرق الرجال السود الأميرات والآلهة من العالم الخارجي ومعابد الثيرن ليصبحن إماء لهم.

تحركنا خلال هذا المشهد نحو المعبد. أوقفتنا حلقة من الحراس المسلحين عند المدخل الرئيس. تحدث زودار ببضع كلمات لأحد الضباط الذين جاءوا يستفسرون. دخلوا إلى المعبد، حيث بقوا لبعض الوقت.

عادوا لإبلاغنا أن إيسوس ترغب في رؤية ابنة ماتاي شانج، والمخلوق الغريب القادم من عالم آخر، وكان أمير هيليوم.

تحركنا ببطء عبر الممرات اللانهائية ذات الجمال الذي لا يمكن تصوره؛ وخلال شقق رائعة، وقاعات نبيلة. أوقفونا طويلًا في غرفة واسعة في وسط المعبد. تقدم أحد الضباط الذين صحبونا إلى باب كبير في نهاية الغرفة؛ ومن المؤكد أنه أشار بشكل ما، إذ فُتح الباب فورًا وظهر أحد رجال الحاشية متدثرًا بأغطية ثمينة.

قادنا إلى الباب، ووجهنا إلى الانخفاض على اليدين والركبتين وظهورنا نحو الغرفة التي كنا سندخلها. تأرجحت الأبواب مفتوحة، بعد أن حذرونا ألا ندير رؤوسنا وإلا نقع تحت عقوبة الإعدام الفوري، ثم أمرونا بالدخل بظهورنا إلى حضرة إيسوس.

لم أتعرض أبدًا لمثل هذا الموقف المُذل في حياتي؛ وفقط حبي لديجاه ثوريس والأمل الذي ما زلت أتشبث به في أن أراها مرة أخرى، هو ما منعني من النهوض لمواجهة إلهة الأبناء الأوائل وأن أمضي نحو حتفي كرجل شهم، أواجه أعدائي وتختلط دمائهم بدمائي.

بعد أن زحفنا بهذه الطريقة المقززة لبضع مئات من الأقدام، أوقفنا مرافقنا.

«دعهما ينهضان»، قال صوت وراءنا؛ صوت رقيق متدفق، إلا أنه صوت اعتاد بوضوح على إعطاء الأوامر لسنوات عديدة.

قال مرافقنا: «انهضا، ولكن لا توجها وجهيكما نحو إيسوس».

بعد بضع لحظات من الصمت، تكلم الصوت الرقيق المتدفق مرة أخرى: «المرأة تسرني. سوف تخدمني في الوقت المخصص. أما الرجل، فيمكنك العودة إلى جزيرة شادور التي تقع قبالة الشاطئ الشمالي لبحر أوميان. دعوا المرأة تستدير وتنظر إلى إيسوس، مع العلم بأن من ينتمون إلى مراتب أدنى ويحدقون في المرأى المقدس لوجهها المشع لا يعيشون المجد إلا لسنة واحدة».

شاهدت فايدور من طرف عيني. شحب لونها بدرجة مروعة. وببطء، ببطء شديد، استدارت، كما لو كانت تسحبها قوة غير مرئية يتعذر مقاومتها. كانت تقف بالقرب مني، قريبة جدًّا إلى حد أن ذراعها العاري لمسني وهي تواجه إيسوس، إلهة الحياة الأبدية.

لم أتمكن من رؤية وجه الفتاة، حيث استقرت عيناها للمرة الأولى على الإلهة الأعلى للمريخ، لكنني شعرت بالقشعريرة التي تخللت الذراع المرتجف التي لمسني.

قلت لنفسي: «من المؤكد أنه جمال مبهر، ذلك الذي أثار هذه العاطفة في صدر جمال مشع مثل فايدور، ابنه ماتاي شانج».

«المرأة تبقى، والرجل يذهب»، هكذا تكلمت إيسوس؛ فوضع الضابط يده الثقيلة على كتفي. ووفقًا لتعليماته، انخفضت على يدي وركبتي مرة أخرى، وزحفت من حضور إيسوس. كان أول لقاء لي مع إله، لكنني حر في الاعتراف بأن اللقاء لم يثر إعجابي.

خرجنا من الغرفة، وأغلقوا الأبواب خلفنا، وحاولت الوقوف. انضم لي زودار، وعدنا بخطواتنا نحو الحدائق ببطء.

وبعد أن سرنا قليلًا في صمت، قال: «أنت حافظت على حياتي بينما كان بإمكانك قتلي بسهولة. وسوف أساعدك إن أمكنني. يمكنني مساعدتك في جعل حياتك هنا أكثر احتمالًا، لكن مصيرك حتمي. لا يمكنك أن تأمل في العودة إلى العالم الخارجي».

سألته: «ما مصيري؟»

«هذا يعتمد إلى حد كبير على إيسوس. ما دامت لا ترسل في طلبك وتكشف عن وجهها لك، يمكنك أن تعيش لمدة سنة بشكل معتدل من أشكال العبودية يمكنني ترتيبه لك».

سألته: «لماذا ترسل في طلبي؟».

«إنها كثيرًا ما تستخدم رجال المراتب الأدنى في أغراض التسلية المختلفة. فمقاتل مثلك، على سبيل المثال، يمكنه تقديم عرض رياضي رائع في طقوس المعبد الشهرية؛ حيث يتبارى الرجال مع رجال، ومع وحوش، لتطهير إيسوس وتجديد خزانة اللحم خاصتها».

«هل تأكل لحم البشر؟» سألته، وإن لم أكن مرتعبًا، فمنذ معرفتي المكتسبة مؤخرًا بالثيرن المقدسين وأنا مستعد لأي شيء في هذه السماء الذي لا يزال الوصول إليها عسيرًا، حيث من الواضح أن كل شيء تمليه قوة كلية منفردة؛ وحيث عصور التعصب الضيق وعبادة الذات قد استئصلت جميع الغرائز الإنسانية الأوسع نطاقًا التي ربما كان هذا العِرق يمتلكها يومًا ما.

كانوا شعبًا ينتشي بالقوة والنجاح، وينظرون إلى سكان المريخ

الآخرين كما ننظر نحن إلى وحوش الغابة والحقل. إذن لماذا لا يأكلون لحم المراتب الدنيا التي لا يفهمون حياتها وسماتها بأكثر مما نفعل نحن مع أفكار وأحاسيس الماشية التي نذبحها ونأكلها على كوكب الأرض.

«إنها لا تأكل سوى لحم السلالة الأفضل من الثيرن المقدسين والبرسوميين الحُمر. وتذهب اللحوم الأخرى إلى مجالسنا. والعبيد يأكلون الحيوانات. وهي تأكل أيضًا كل ما هو طيب المذاق».

لم أفهم حينذاك أن هناك أي دلالة خاصة في إشارته إلى الأشياء الأخرى طيبة المذاق. تصورت أنه وصل إلى أقصى حدود البشاعة في كلامه عن قائمة طعام إيسوس. لا يزال أمامي الكثير لأعرفه عن أعماق القسوة والبهيمية التي تمارسها تلك القوة الكلية على ممتلكاتها.

كنا قد وصلنا تقريبًا إلى آخر الغرف والممرات العديدة التي تؤدي إلى الحدائق، عندما فاجأنا ضابط.

قال: «تود إيسوس أن تنظر مرة أخرى إلى هذا الرجل. فقد أخبرتها الفتاة أنه رائع وبارع إلى درجة أنه قتل بمفرده سبعة من الآباء الأوائل، وأسر بيديه العارية زودار، وقيده بعتاده».

بدا زودار غير مستريح. ومن الواضح أنه انزعج من معرفة إيسوس بهزيمته الشائنة.

استدار دون كلمة، وتبعنا الضابط ثانية إلى الأبواب المغلقة أمام الغرفة العامة لإيسوس، إلهة الحياة الأبدية.

تكررت هنا مراسم الدخول. ومرة أخرى أمرتني إيسوس بالنهوض.

ولعدة دقائق ظل الجميع صامتين كالقبر. كانت أعين الإلهة تُقيمني.

والآن قطع الصوت الرقيق المتدفق السكون، مُكرِّرًا في دندنة رخيمة الكلمات التي كانت تقرر، لعدد لا يُحصى من العصور، قتل عدد لا يُحصى من الضحايا.

«دعوا الرجل يستدير وينظر إلى إيسوس، مع العلم بأن من ينتمون إلى مراتب أدنى ويحدقون في المرأى المقدس لوجهها المشع لا يعيشون المجد الذي يُغشي الأبصار إلا لسنة واحدة».

استدرت وفقًا للأمر، متوقعًا متعة لا يماثلها سوى انكشاف مجد إلهي بقدر ما يمكن أن تراه أعين فانية. رأيت كتيبة متماسكة من الرجال المسلحين بيني وبين منصة تدعم مقعدًا طويلًا كبيرًا من خشب السورابوس المنحوت. وفوق هذا المقعد، أو العرش، تجثم امرأة سوداء ويبدو بوضوح أنها عجوز. لم تبق شعرة واحدة على جمجمتها المجعدة. وباستثناء نابين صفراوين، كان فمها خاليًا تمامًا من الأسنان. وعلى جانبي أنفها الرفيعة كأنف الصقر، اتقدت عيناها من أعماق محجريهما الغائرين الفظيعين. هذا بالإضافة إلى تشقق وتجعُّد بشرة وجهها مشققة، وامتلائها بمليون جرح أخدودي. وكان جسدها مجعدًا كوجهها، ومثيرًا للاشمئزاز.

كان الذراعان والساقان الهزيلان متصلان بجذع يبدو على الأغلب بطنًا مشوهة تستكمل 'الرؤية المقدسة لجمالها الإشعاعي'.

أحاط بها عدد من النساء العبيدات من بينهن فايدور، بيضاء مرتجفة.

سألت إيسوس: «هل هذا هو الرجل الذي قتل سبعة من الأبناء الأوائل بيديه العاريتين، وقيد داتور زودار بعتاده؟».

أجاب الضابط الذي وقف بجانبي: «يا أعظم مرأى للروعة الإلهية، إنه هو».

أصدرت أمرًا: «أحضِروا داتور زودار».

تم إحضار زودار من الغرفة المجاورة.

حدقت نحوه إيسوس، وضوء متوعد في عينيها البشعتين.

صرخت بصوت عال: «أأنت داتور الأبناء الأوائل؟ للعار الذي جلبته على العِرق الخالد، ستنخفض رتبتك إلى أقل من الأدنى. لم تعد الداتور، لكنك للأبد عبد العبيد، تؤدي مهامًا ثانوية لذوي المراتب الدنيا الذين يخدمون في حدائق إيسوس. أزيلوا عتاده. فالجبناء والعبيد لا يرتدون أغطية».

وقف زودار منتصبًا بجمود. لم تنتفض أي عضلة من عضلاته، ولم تهز رجفة هيئته العملاقة كجندي من الحرس جُرد بفظاظة من أغطيته.

«انصرف»، صرخت المرأة العجوز بغضب. «انصرف، لكنك لن تنعم بضوء حدائق إيسوس، بل سوف تخدم كعبد لهذا العبد الذي هزمك، في سجن جزيرة شادور في بحر أوميان. أبعدوه عن مرأى عيني الإلهية».

ببطء وبرأس مرتفعة، استدار زودار الفخور شامخًا خارج الغرفة. نهضت إيسوس واستدارت لمغادرة القاعة من مخرج آخر.

التفتت نحوي قائلة: «سوف تعود إلى شادور في الوقت الحاضر. وفي ما بعد سوف ترى إيسوس طريقتك في القتال. اذهب». ثم اختفت، تتبعها حاشيتها. تخلفت فايدور فقط عن الركب، وعندما بدأت متابعة حارسي نحو الحدائق، جاءت الفتاة راكضة ورائي.

توسلت قائلة: «أوه، لا تتركني في هذا المكان الرهيب. اغفر لي الأشياء التي قلتها لك، يا أميري. لم أكن أقصدها. فقط خذني معك. دعني أشاركك سجنك في شادور». كانت كلماتها عبارة عن أفكار غير مترابطة، تنطلق دفعة واحدة بسرعة وهي تتحدث. «أنت لا تفهم الشرف الذي أضفيته عليك. لا يوجد زواج بين الثيرن، كما بين المراتب الدنيا في العالم الخارجي. يمكننا أن نعيش معًا إلى الأبد في حب وسعادة. لقد نظر كلانا إلى إيسوس وسنموت بعد سنة. دعنا نعيش تلك السنة على الأقل معًا بأي قدر من السعادة متاح للمحكوم عليهم بالموت».

أجبتها: «إذا كان يصعب بالنسبة لي أن أفهمك، فايدور، ألا يمكنك أن تفهمي أنه ربما يصعب عليك أنت أيضًا فهم الدوافع والعادات والقوانين الاجتماعية التي توجهني؟ لا أريد أن أجرحك، ولا أن أقلل من الشرف الذي منحتيني إياه، لكن الشيء الذي ترغبين فيه لن يحدث. فبغض النظر عن الاعتقاد الأحمق لشعوب العالم الخارجي، أو الثيرن المقدسين، أو الأبناء الأوائل ذوي البشرة الأبنوسية، أنا لست ميتًا. وما دمت حيًّا، فإن قلبي يخفق لامرأة واحدة – ديجاه ثوريس التي لا يضاهيها أحد، أميرة هيليوم. عندما يدركني الموت، سيتوقف قلبي عن الخفقان؛ ولكن ماذا يحدث بعد ذلك، أنا لا أعرف. وفي هذا أنا بمثل حكمة ماتاي

شانج، سيد الحياة والموت في برسوم؛ أو إيسوس، إلهة الحياة الأبدية».

وقفت فايدور تنظر نحوي باهتمام للحظة. لم يظهر غضب في عينيها هذه المرة، وإنما فقط تعبير مثير للشفقة عن حزن يائس.

قالت: «أنا لا أفهم»، واستدارت ببطء في اتجاه الباب الذي مرت منه إيسوس وحاشيتها. وخلال لحظة غابت عن بصري.

* * *

(١٠)

سجن جزيرة شادور

اصطحبني الحراس إلى الحدائق الخارجية، ووجدت زودار محاطًا بحشد من النبلاء السود يسبونه ويلعنونه. صفع الرجال وجهه، وبصقت عليه النساء.

عندما ظهرت، حولوا اهتمامهم نحوي.

صاح أحدهم: «آه، هذا إذن المخلوق الذي تغلب بيديه على زودار العظيم. دعونا نرى كيف قام بذلك».

قالت امرأة جميلة وهي تضحك: «دعوه يقيد ثورفيد. ثورفيد هو داتور نبيل. فليوضح ثوريد للكلب معنى مواجهة رجل حقيقي».

هتفت عشرات الأصوات: «نعم، ثوريد! ثوريد!».

هتف شخص آخر: «ها هو ثوريد». استدرت في الاتجاه الذي أشار إليه، فرأيت رجلًا أسود ضخمًا ينوء بحِمل من الحلي والأسلحة المتألقة ويتجه نحونا بطريقة نبيلة وشجاعة.

صاح: «ماذا الآن؟ ما تريدون من ثوريد؟».

وسرعان ما أوضحت عشرة الأصوات.

التفت ثوريد نحو زودار، وضاقت عيناه متحولة إلى فتحتين طوليتين شريرتين.

هسهس قائلًا: «كالوت! تصورت دائمًا أنك تحمل قلب سوراك[١٨] في صدرك العفن. كثيرًا ما تفوقت علي في مجالس إيسوس السرية، أما الآن، في ميدان الحرب حيث يُقاس الرجال حقًّا، فقد كشف قلبك الأجرب عن قروحه إلى العالم كله. يا كالوت، إني أطردك بقدمي»، ومع هذه العبارة التفت ليركل زودار.

كان دمي يفور. ظل يغلي لدقائق عند مشاهدتي معاملتهم الجبانة لزميلهم بعد أن خرج من خدمة إيسوس، وكان صاحب سلطة من قبل. لم أكن أحب زودار، لكنني لم أستطع تحمل مشهد الظلم والقمع الجبان دون رؤية اللون الأحمر في غيمة من الضباب الدموي، ودون القيام بالأشياء وفقًا لنبض اللحظة، رغم أنني يجب ألا أقوم بها أبدًا إذا فكرت بترو.

كنت أقف بالقرب من زودار عندما حرك ثوريد قدمه للركلة الجبانة. وقف داتور، المجرد من مرتبته، منتصبًا بلا حراك كصورة منحوتة. كان مستعدًّا لتحمُّل كل ما سيمنحه له رفاقه السابقين من إهانات وتوبيخات، ويتحمله في صمت رجولي ورزانة.

ولكن ما إن تحركت قدم ثوريد، حتى تحركت قدمي أيضًا، وسددت

(١٨) سوراك: هو مخلوق صغير الحجم جدًّا من ستة أرجل، وتحتفظ به نساء المريخ كحيوان أليف http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorak – المترجمة.

إليه ضربة مؤلمة على قصبة ساقه، أنقذت زودار من هوان إضافي.

ساد للحظة صمت متوتر، ثم اندفع ثوريد هادرًا في غضب نحو حلقي؛ كما فعل زودار من قبل على سطح السفينة. وكانت النتائج مماثلة. تواريت تحت ذراعيه الممدودتين، ولكمته بقوة بيميني وهو مندفع، على جانب فكه.

دار الزميل الضخم كأنما حول محور، وسقطت ركبتيه تحته، وتكوم على الأرض أمام قدمي.

حدق السود في دهشة، أولًا في الهيئة الجامدة للداتور الفخور الذي يرقد هناك في تراب الممر ياقوتي اللون، ثم في وجهي كأنما لا يستطيعون تصديق ما حدث.

قلت صائحًا: «طلبتم مني تقييد ثوريد؛ انظروا!»، ثم انحنيت بجانب الجسد الممدد، ومزقت أربطته، وقيدت ذراعي وساقي الزميل بإحكام».

«كما فعلتم بزودار، قوموا بالمثل مع ثوريد. خذوه أمام إيسوس، مقيدًا في أربطته، بحيث ترى بعينيها أنه يوجد بينكم واحد أعظم من الأبناء الأوائل».

«من أنت؟»، همست المرأة التي كانت أول من اقترح أن أحاول تقييد ثوريد.

«أنا مواطن من عالمين: الكابتن جون كارتر من فرجينيا، وأمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم. خذوا هذا الرجل إلى إلهتكم، كما قلت، وقولوا لها أيضًا إنني كما فعلت مع زودار وثوريد، يمكنني أيضًا

أن أفعل مع أقوى داتور لديها. بيدي العاريتين، بسيف طويل أو قصير، أتحدى زهرة مقاتليها لمعركة».

«هيا»، قال الضابط الذي كان يحرسني خلال عودتي إلى شادور، «الأوامر التي صدرت لي إلزامية؛ يجب تنفيذها دون تأخير. زودار، تعال أنت أيضًا».

كان هناك قدر قليل من عدم الاحترام في لهجة الرجل عند مخاطبتي أنا وزودار. من الواضح أنه يشعر بازدراء أقل للداتور السابق، نظرًا لأنه شهد السهولة التي هزمت بها ثوريد القوي.

كان احترامه لي أكبر مما ينبغي أن يكون لعبد، وهو ما اتضح بجلاء خلال ما تبقى من رحلة العودة، حيث كان يسير أو يقف ورائي دائمًا، وسيفه القصير في يده.

خلت رحلة العودة إلى بحر أوميان من الأحداث. هبطنا أسفل البئر الفظيع في نفس العربة التي أوصلتنا إلى السطح. وهناك دخلنا الغواصة، التي غطست بعمق لفترة طويلة إلى النفق الذي يقع تحت العالم العلوي، ثم اتخذنا سبيلنا عبر النفق وإلى أعلى مرة أخرى إلى الحوض الذي تعرفنا من خلاله على الممر الرائع من أوميان إلى معبد إيسوس.

نقلونا على سفينة صغيرة من الجزيرة التي ترسو عندها الغواصة إلى جزيرة شادور البعيدة. وهناك وجدنا سجنًا حجريًّا صغيرًا، وحوالي نصف دزينة من الحراس السود. لم يضع الوقت في استكمال أي مراسم لاحتجازنا. فتح أحد الرجال السود باب السجن بمفتاح ضخم، مشينا وأغلق الباب خلفنا، أصدر القفل صريرًا، ومع صوته تملكني مرة

أخرى ذلك الشعور الرهيب باليأس الذي شعرته في غرفة الغموض في المنحدرات الذهبية أسفل حدائق الثيرن المقدسين.

كان معي حينذاك تارس تاركاس، لكنني الآن وحدي تمامًا بقدر ما يتعلق الأمر برفقة ودودة. أخذت أتساءل عن مصير الثاركي العظيم، ورفيقته الجميلة، الفتاة، ثوفيا. حتى إذا تمكنوا بمعجزة من الهرب واستقبلتهم وحافظت عليهم أمة صديقة، فليس لدي أمل للحصول على العون الذي أعرف أنهما سيقدمانه بكل سرور إذا أمكنهما.

لا يمكنهما تخمين مكاني أو مصيري، إذ لا يوجد في برسوم كلها من يحلم حتى بوجود مكان كهذا. كما لم يكن ليفيدني معرفتهم بالموقع الدقيق لسجني، فمن الذي يمكنه أن يأمل في اختراق هذا البحر المدفون في مواجهة الأسطول البحري القوي للأبناء الأوائل؟ كلا، حالتي ميؤوس منها.

حسنًا، يمكنني تحقيق أفضل ما يمكن في هذا الوضع. نهضت ونحيت جانبًا اليأس المكتئب الذي كان يسعى إلى أن يتملكني. بدأت أنظر حولي لاستكشاف سجني.

جلس زودار، وهو يحني رأسه، على مقعد حجري منخفض قرب منتصف غرفتنا. لم يتحدث منذ أن جردته إيسوس من مرتبته.

كان المبنى بلا سقف، وترتفع جدرانه لحوالي ثلاثين قدمًا، وتوجد نافذتان صغيرتان محكمتا الإغلاق في منتصف الطريق لأعلى. ينقسم السجن إلى عدة غرف عبر قواطع يصل ارتفاعها إلى عشرين قدمًا. لا يوجد أحد في الغرفة التي شغلناها، على أن البابين المؤديين إلى الغرف

الأخرى كان مفتوحًا. دخلت إحدى هذه الغرف، ووجدتها شاغرة. وهكذا واصلت خلال عدد من الغرف إلى أن وجدت في آخر غرفة شابًّا مريخيًّا أحمر ينام على المقعد الحجري الذي يُشكل الأثاث الوحيد لأي من زنزانات السجن.

ومن الواضح أنه السجين الوحيد الآخر. انحنيت نحوه وهو نائم وتطلعت إليه. هناك شيء مألوف بشكل غريب في وجهه، إلا أنني لم أستطع تحديده.

كانت ملامحه منتظمة للغاية، مثل نِسب رشاقة أطرافه وجسمه، كان وسيمًا إلى أقصى درجة، ولون بشرته فاتحًا بالنسبة لرجل أحمر، لكنه بدا في نواح أخرى عينة نموذجية من العِرق الأحمر الوسيم.

لم أوقظه، فالنوم في السجن نعمة لا تقدر بثمن؛ فقد رأيت رجالًا يتحولون إلى وحوش هائجة عندما يسرق منهم أحد زملائهم المساجين بضع لحظات ثمينة منه.

عدت إلى زنزانتي، وجدت زودار لا يزال جالسًا في نفس الوضع الذي تركته عليه.

صحت: «يا رجل، لن تربح شيئًا من اكتئابك هكذا. إنه ليس عارًا أن يتفوق عليك جون كارتر. فأنت رأيت السهولة التي هزمت بها ثوريد. كنت تعرف ذلك من قبل، عندما شاهدتني على سطح السفينة أقتل ثلاثة من رفاقك».

قال: «كنت أفضل أن تقتلني أيضًا».

قلت صائحًا: «هيا! هيا!. لا يزال هناك أمل، فلم يمت أي منا. نحن مقاتلون عظماء. لماذا لا نفوز بالحرية؟».

نظر نحوي في ذهول.

وأجاب: «أنت لا تعرف ما تقوله. إيسوس كلية القدرة. إيسوس كلية المعرفة. إنها تسمع الآن الكلمات التي تفوهت بها، وتعرف الأفكار التي تدور في ذهنك. إنه تدنيس للمقدسات أن تحلم حتى بعدم إطاعة أوامرها».

هتفتُ بصبر نافذ: «هذه حماقة، زودار».

وقف على قدميه في رعب.

صرخ قائلًا: «ستحل عليك لعنة إيسوس. قد تنجذب في لحظة إلى أسفل، متلويًا نحو موتك في عذاب رهيب».

سألته: «هل تعتقد ذلك، زودار؟».

«بالطبع؛ من يجرؤ على الشك؟».

قلت: «أنا أشك؛ نعم، وعلاوة على ذلك، أرفض. لماذا؛ أنت تقول لي، زودار، أنها تعرف حتى أفكاري. لقد امتلك كل الرجال الحُمر هذه القوة لعصور. وقوة رائعة أخرى. إن بإمكانهم إغلاق عقولهم بحيث تتعذر قراءة أفكارهم. تعلمت سر القوة الأولى منذ سنوات؛ أما الثانية فلم أكن في حاجة إلى تعلمها، ذلك أنه في برسوم كلها لا يوجد من يستطيع قراءة ما يدور في غُرف مخي السرية.

إن إلهتك لا يمكنها قراءة أفكاري؛ ولا يمكنها قراءة أفكارك عندما

تكون بعيدًا عن نظرها، إلا إذا رغبت أنت في ذلك. إذا كانت قد تمكنت من قراءة أفكاري، أخشى أن كبرياءها قد عانى من صدمة حادة عندما استدرت بناء على أوامرها من أجل 'التحديق في الرؤية المقدسة لوجهها المشع».

«ماذا تقصد؟»، همس بصوت مفزوع، ومنخفض لدرجة أنني بالكاد ما سمعته.

«أقصد أنني كنت أفكر حينذاك أنها أكثر مخلوقة مثيرة للاشمئزاز وحقارة بشعة وقعت عليها عيني من قبل».

للحظة أخذ ينظر نحوي في ذهول مشوب بالرعب، ثم صرخ «أنت كافر» وهو يهاجمني.

لم أرغب في ضربه مرة أخرى، كما لم يكن ذلك ضروريًا، نظرًا لأنه أعزل وبالتالي غير مؤذ على الإطلاق بالنسبة لي.

عندما هاجمني، أمسكت معصمه الأيسر بيدي اليسرى، وأرجحت ذراعي اليمنى حول كتفه الأيسر، وأمسكته من تحت ذقنه بكوعي ودفعته إلى الوراء بفخذي.

ظل معلقًا هناك بعجز للحظة، صارخًا في وجهي بغضب عاجز.

قلت: «زودار، دعنا نكن أصدقاء. لمدة سنة، ربما قد نضطر إلى العيش معًا في الحدود الضيقة لهذه الغرفة الصغيرة. أعتذر لإساءتي لك، ولكن ليس بإمكاني أن أتصور أن من عانى من ظلم إيسوس القاسي لا يزال يصدق أنها إلهة.

سوف أقول بضع كلمات أخرى، زودار، دون أي نية لجرح مشاعرك أكثر، وإنما قد تعطيك بالأحرى فكرة عن أننا نعيش، ولذا ما زلنا نتحكم في مصيرنا أكثر من أي إله.

إيسوس، كما ترى، لم تقتلني، ولم تنقذ زودار المؤمن من براثن كافر شهّر بجمالها. كلا، زودار، إن إيسوس ليست سوى امرأة عجوز فانية. ما أن تخرج من براثنها، لا يمكنها أن تضرَّ بك.

مع معرفتك بهذه الأرض الغريبة ومعرفتي بالعالم الخارجي، فإن رجلين مقاتلين مثلي ومثلك ينبغي أن يكونا قادرين على الفوز بالطريق نحو الحرية. وحتى إذا متنا في المحاولة، أليست ذكرانا ستكون أفضل مما لو بقينا في خوف ذليل من أن تذبحنا طاغية قاسية وظالمة- أطلق عليها إلهة أو بشر، كما تريد».

عندما انتهيت، أوقفت زودار على قدميه، وأطلقت سراحه. لم يهاجمني ثانية، كما لم يتكلم. بل سار نحو المقعد وغاص فيه، وظل ضائعًا في تفكير عميق لساعات.

بعد فترة طويلة، سمعت صوتًا منخفضًا عند المدخل المؤدي إلى إحدى الشقق الأخرى، وعندما نظرت رأيت الشباب المريخي الأحمر يحدق بإمعان فينا.

«كاور»، صحت وفقًا لطريقة التحية لدى المريخيين الحُمر.

فأجاب: «كاور. ماذا تفعل هنا؟».

«أنا في انتظار موتي، كما أفترض»، أجبته بابتسامة ساخرة.

ابتسم أيضًا، ابتسامة شجاعة منتصرة.

وقال: «وأنا أيضًا. لكن موتي سوف يأتي قريبًا. فقد نظرت إلى جمال إيسوس المشع منذ عام تقريبًا. كان دائمًا مصدر عجب شديد بالنسبة لي أنني لم أسقط ميتًا من أول نظرة لتلك الملامح البشعة. وبطنها! بحق سلفي الأول، لا يوجد أبدًا مثل هذا المظهر البشع في الكون كله. لا أتصور أبدًا كيف يطلقون عليها إلهة الحياة الأبدية، وإلهة الموت، وأم القمر الأقرب، والأسماء الخمسين المستحيلة الأخرى».

سألته: «كيف جئت إلى هنا؟».

«الأمر في منتهى البساطة. كنت أطير في طائرة تتسع لرجل واحد في استطلاع جوي إلى الجنوب عندما تبادرت إلى ذهني فكرة عبقرية، وهي رغبتي في البحث عن بحر كوراس المفقود، الذي تقول التقاليد إنه يقع بالقرب من القطب الجنوبي. لابد أنني ورثت من والدي شهوته الجامحة للمغامرة.

وصلت منطقة الجليد الأبدي، وعندها تعطل باب المروحة، فهبطت إلى الأرض لإجراء بعض الإصلاحات. وقبل أن أدرك، تحول الهواء إلى اللون الأسود من الطائرات، وقفز مائة من هؤلاء الأبناء الأوائل الشياطين على الأرض متجمعين حولي».

«وصلوا عندي وسيوفهم مرفوعة، ولكن قبل أن أنخفض تحتها ذاقوا طعم فولاذ سيف أبي، وقد أبليت بلاء حسنًا، أعرف أنه كان ليُسعِد والدي لو كان قد عاش ليشهده».

سألته: «هل مات والدك؟».

«توفي قبل أن تنكسر قشرة البيضة لتسمح لي بالخروج إلى عالم كان جيدًا جدًّا بالنسبة لي. ولولا حزني، لأنني لم أتشرف بمعرفة والدي، لكنت سعيدًا جدًّا. حزني الوحيد الآن هو أن والدتي سوف تندبني كما ندبت على والدي لعشر سنوات طوال».

سألته: «من كان والدك؟».

كان على وشك الرد عندما فُتح الباب الخارجي للسجن ودخل حارس قوي البنية وأمره بالذهاب إلى زنزانته ليلًا، وقفل الباب خلفه بعد أن ذهب إليها.

قال الحارس عندما عاد إلى زنزانتنا: «إنها رغبة إيسوس أن تبقيا أنتما الاثنان في نفس الغرفة». ثم قال لي، وهو يلوح بيده مشيرًا إلى زودار: «على هذا الجبان، عبد العبد، أن يخدمك بشكل جيد. وإذا لم يفعل، يمكنك أن تضربه إلى أن يخضع. إنها رغبة إيسوس أن تهيل عليه كل مهانة وانحطاط يمكنك أن تتصوره».

وبعد هذه الكلمات تركنا.

لا يزال زودار جالسًا ووجهه مدفون بين يديه. مشيت نحوه، ووضعت يدي على كتفه.

قلت: «زودار، أنت سمعت أوامر إيسوس، لكني لن أحاول حتى تنفيذها. أنت رجل شجاع، زودار. إنه شأنك إذا كنت ترغب في الاضطهاد والإذلال؛ ولو كنت مكانك لكنت أكدت رجولتي وتحديت أعدائي».

قال: «لقد كنت أفكر جديًّا، جون كارتر، في جميع الأفكار الجديدة التي أعطيتها لي منذ بضع ساعات. وقمت تدريجيًّا بتجميع الأشياء التي قلتها، وبدت لي حينذاك كُفرًا، مع الأشياء التي رأيتها في حياتي الماضية ولم أكن أجرؤ حتى في التفكير فيها خوفًا من غضب إيسوس.

والآن أعتقد أنها مزيفة؛ ليست إلهة، بل مثلي أو مثلك. أنا أكثر استعدادًا للاعتراف ... أن الأبناء الأوائل ليسوا أكثر قداسة من الثيرن المقدسين، ولا الثيرن المقدسين أكثر قداسة من الرجال الحُمر.

إن نسيج ديننا كله يستند إلى اعتقاد خرافي في أكاذيب دسها علينا لعصور أولئك الذين فوقنا مباشرة، الذين كانت فائدتهم وعظمتهم الشخصية وراء جعلنا نستمر في الاعتقاد بما يريدوننا أن نعتقده.

أنا مستعد للتخلص من الروابط التي كانت تقيدني. أنا مستعد لتحدي إيسوس نفسها؛ ولكن ما جدوى ذلك لنا؟ سواء كان الأبناء الأوائل آلهة أو بشر فانين، فإنهم عِرق قوي، ووجودنا في براثنهم يعني أننا ميتين بالفعل. فلا مهرب».

أجبته: «لقد هربت من محن سيئة في الماضي، يا صديقي؛ وما دمت حيًّا، لن أيأس من الهرب من جزيرة شادور وبحر أوميان».

تابع زودار قائلًا: «لكننا لا نستطيع الهرب حتى من جدران سجننا الأربعة». وأضاف صائحًا، وهو يضرف بعنف الصخر الصلب لمحبسنا: «اختبر هذا السطح الشبيه بالحجر الصوان، وانظر إلى هذا السطح المصقول؛ لا يمكن التشبث به للوصول إلى أعلى».

ابتسمت.

أجبته: «هذه أقل مشاكلنا، زودار. سوف أضمن لك تسلق الجدار وآخذك معي، إذا ساعدتني بمعرفتك للأعراف والعادات هنا على تحديد أفضل وقت للمحاولة، وأرشدتني إلى البئر الذي يُخرجنا من قبة هذا البحر السحيق لضوء الهواء النقي في أعلى».

«وقت الليل هو الأفضل، ويمنحنا الفرصة الضئيلة الوحيدة التي لدينا، حيث يكون الرجال نيامًا، ولا يوجد سوى حراس المراقبة الذين يغلبهم النعاس في السفن الحربية. لا توجد مراقبة على السفن والطائرات الصغيرة. فمراقبو السفن الكبيرة يراقبون جميع السفن. إنه الليل الآن».

صحت قائلًا: «لكن، ليس ظلامًا! كيف نكون في الليل إذن؟»

ابتسم.

وقال: «أنسيت أننا تحت الأرض بمسافة كبيرة. ضوء الشمس لا يخترق إلى هنا أبدًا. لا تنعكس الأقمار والنجوم في حضن أوميان. أما الضوء الفوسفوري الذي تراه الآن متخللًا هذا السرداب تحت الأرضي، فهو ينبعث من الصخور التي تشكل قبته؛ هذا هو الحال دائمًا في أوميان، تمامًا مثلما ترى الدوامات- تدور، دائمًا تدور في بحر هادئ».

«عندما تحل ساعة الليل في العالم أعلاه، ينام الرجال الذين يقومون بواجباتهم هنا، لكن الضوء يظل كما هو على الدوام».

قلت: «هذا سوف يزيد من صعوبة الهرب»، ثم هززت كتفي؛ ما المتعة في القيام بأمر سهل؟

قال زودار: «فلننم الليلة، قد تأتينا خطة مع استيقاظنا».

وهكذا، ألقينا أنفسنا على حجر الأرضية الصلب لمحبسنا، ونمنا نوم رجال متعَبين.

* * *

(١١)

عندما انفتح الجحيم على مصراعيه

بدأت مع وزودار العمل، في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، على خططنا للهروب. طلبت منه أولًا أن يرسم على أرضية زنزانتنا الحجرية خريطة دقيقة بقدر الإمكان لمناطق القطب الجنوبي بالأدوات البسيطة المتوفرة لدينا- مشبك من عتادي، وحافة حادة من الجوهرة العجيبة التي كنت قد أخذتها من ساتور ثروج.

ومن الخريطة، حسبت الاتجاه العام لهيليوم ومدى بُعدها عن الفتحة المؤدية إلى أوميان.

ثم طلبت منه أن يرسم خريطة لأوميان، تشير بوضوح إلى موقع شادور وفتحة القبة التي تؤدي إلى العالم الخارجي.

درست هذه الخرائط حتى انطبعت في ذاكرتي. وعرفت من زودار واجبات وعادات حراس الدوريات في شادور. يبقى رجل واحد فقط في الخدمة كل مرة خلال الساعات المخصصة للنوم، ويسير بخطى سريعة حول السجن، على مسافة حوالي مائة قدم من المبنى.

أما خطوات الخفر، كما قال زودار، فهي بطيئة جدًّا؛ حيث تستغرق

ما يقرب من عشر دقائق في الجولة الواحدة. وهذا يعني أنه لمدة خمس دقائق عمليًّا، كل مرة، يكون كل جانب من السجن دون حراسة، عندما يواصل بعدها الخفير حركته الحلزونية على الجانب الآخر.

قال زودار: «هذه المعلومات التي طلبتها ستكون ذات قيمة كبيرة بعد أن نخرج، لكنك لم تطلب أي شيء يؤثر على الاعتبار الأول والأهم».

أجبته ضاحكًا: «سوف نخرج، اترك لي ذلك».

ثم سألني: «متى سنقوم بمحاولتنا؟».

أجبته: «في أول ليلة نجد فيها طائرة فضائية صغيرة ترسو قرب شاطئ شادور».

«لكن كيف سيمكنك معرفة أن أي طائرة قد رست بالقرب من شادور؟ النوافذ بعيدة عن متناول أيدينا».

«غير صحيح، يا صديقي زودار؛ انظر!».

اندفعت بقفزة إلى قضبان النافذة المقابلة لنا، وألقيت نظرة سريعة على المشهد في الخارج.

كانت عدة طائرات صغيرة وسفينتان حربيتان كبيرتان تقع على مسافة مائة ياردة من شادور.

«الليلة»، هكذا فكرت وكنت على وشك إبلاغ قراري لزودار عندما، دون سابق إنذار، انفتح باب محبسنا ودخل حارس.

إذا رآني الحارس عند النافذة، سرعان ما ستلمع في ذهنه فرصة هروبنا، وعندئذ سيكبلونني في الحديد إذا كان لديهم أدنى تصور عن

خفة حركتي الرائعة التي أعطتني إياها على المريخ عضلاتي المنتمية إلى كوكب الأرض.

دخل الرجل وكان يقف مواجهًا منتصف الغرفة، بحيث كان ظهره ناحيتي. كانت تقع فوقي بخمسة أقدام قمة الجدار القاطع الذي يفصل زنزانتنا عن الزنزانة التالية.

هذه هي فرصتي الوحيدة لتفادي الانكشاف. إذا استدار الزميل، سأضيع. وليس بإمكاني الهبوط إلى الأرض دون أن يكشفني، فهو يقف أدناي بمسافة قريبة بحيث يمكن أن أصطدم به.

قال الحارس لزودار صائحًا: «أين الرجل الأبيض؟ إيسوس أمرت بإحضاره». ثم استدار ليرى ما إذا كنت في جزء آخر من الزنزانة.

تسلقت إلى حاجز النافذة الحديدي حتى تمكنت من إيجاد موقع جيد لقدم واحدة على حافة النافذة؛ ثم أفلت قبضتي وقفزت نحو قمة القاطع.

«ما هذا؟»، سمعت الصوت العميق للرجل الأسود عندما أحدث معدني صريرًا باصطدامه بالجدار الحجر وأنا أنزلق من فوقه. ثم هبطت بخفة إلى أرضية الزنزانة المجاورة.

صاح الحارس ثانية: «أين العبد الأبيض؟».

أجاب زودار: «لا أعرف. كان هنا حتى عندما دخلت. أنا لست حارسه .. اذهب لتعثر عليه».

دمدم الرجل الأسود بشيء لم أستطع فهمه، ثم سمعته يفتح باب

إحدى الزنازين الأخرى في الجهة المقابلة ويدخلها. استمعت بإمعان، ووصلني صوت الباب وهو يغلقه وراءه. ثم قفزت مرة أخرى إلى قمة القاطع، وهبط في زنزانتي بجوار زودار المندهش.

سألته هامسًا: «أرأيت الآن كيف سنهرب؟».

أجاب: «رأيت كيف يمكنك أنت، لكني لا أعرف كيف يمكنني المرور من هذه الجدران. بالتأكيد لا يمكنني القفز فوقها كما تفعل أنت».

سمعنا الحارس يتحرك من زنزانة إلى زنزانة، وأخيرًا اكتملت جولاته، ومرة أخرى دخل زنزانتنا. برزت عيناه عندما شاهدني.

زأر قائلًا: «باسم صَدَفة جدي الأول! أين كنت؟».

أجبته: «أنا في السجن منذ أن وضعتوني هنا أمس. كنت في هذه الغرفة عندما دخلت. من الأفضل أن تهتم ببصرك».

حدق نحوي بنظرة تمزج بين الغضب والارتياح.

قال: «تعال. أمرت إيسوس بإحضارك».

قادني إلى خارج السجن، تاركًا زودار خلفي. وهناك وجدنا عدة حراس آخرين، ومعهم الشاب المريخي الأحمر الذين كان يشغل زنزانة أخرى في شادور.

تكررت الرحلة التي قطعتها إلى معبد إيسوس في اليوم السابق. أبقانا الحراس، أنا والفتى الأحمر، منفصلين، وبالتالي لم تتوفر لنا أي فرصة لمواصلة الحديث الذي انقطع في الليلة السابقة.

تملكني وجه الشاب. أين رأيته من قبل؟ كان هناك شيء مألوف

بشكل غريب في كل خط من خطوطه؛ في طريقة كلامه، وفي إيماءاته. يمكنني أن أقسم أنني أعرفه، ومع ذلك كنت أعرف أيضًا أنني لم أره أبدًا من قبل.

عندما وصلنا إلى حدائق إيسوس، قادونا بعيدًا عن المعبد بدلًا من أن نتوجه إليه. سرنا في طريق يمر خلال الحدائق الساحرة، وصولًا إلى جدار جبار يرتفع مائة قدم في الهواء.

أخرجتنا بوابات ضخمة إلى سهل صغير، محاط بالغابات الرائعة نفسها التي كنت قد رأيتها عند سفح المنحدرات الذهبية.

كانت حشود من السود تتجول في نفس الاتجاه الذي يقودنا إليه حراسنا، واختلط معهم أصدقائي القدامى: رجال النبات والقرود البيضاء الكبيرة.

تحركت الوحوش الشرسة بين الحشد كالكلاب الأليفة. وإذا ظهروا في طريق الرجال السود، يدفعهم السود إلى أحد الجوانب، أو يضربونهم بعنف بسطح السيف، فتتسلل الحيوانات بعيدًا كأنما في خوف عظيم.

وصلنا الآن إلى وجهتنا، مدرج كبير يقع على حافة السهل الأخرى، ويبعد عن أسوار الحديقة بحوالي نصف ميل.

تدفق السود إلى مقاعدهم من خلال بوابة ضخمة مقوسة، بينما قادنا حراسنا إلى مدخل أصغر بالقرب من إحدى نهايتي المبنى.

مررنا من المدخل إلى حظيرة تقع أسفل المقاعد، حيث وجدنا عددًا من السجناء الآخرين مُساقين كالقطيع بقيادة الحراس. كان بعضهم مكبلًا

بالحديد، لكن معظمهم بدا مرعوبًا بما يكفي لوجود حراسة للحيلولة دون أي إمكانية لمحاولة الهرب.

لم تتح لي أي فرصة خلال الرحلة من شادور للتحدث مع زميلي السجين، لكننا الآن بأمان داخل حلبة مغلقة، وخفت رقابة الحراس، وبالتالي وجدت نفسي قادرًا على الاقتراب من الفتى المريخي الأحمر الذين شعرت نحوه بجاذبية غريبة.

سألته: «ما هدف هذا التجمع؟ هل سنقاتل من أجل تطهير الأبناء الأوائل، أم هناك ما هو أسوأ؟».

فأجاب: «هذا جزء من طقوس إيسوس الشهرية، حيث يغسل الرجال السود الآثام من نفوسهم في دماء رجال العالم الخارجي. وإذا تصادف وقُتل الرجل الأسود، فهذا دليل على عدم ولائه لإيسوس، وهي خطيئة لا تغتفر. وإذا عاش خلال المسابقة، يتم تبرئته من التهمة التي فرضها حكم الطقوس عليه، كما يسمونها.

تختلف أشكال القتال. قد يتبارى عدد منا معًا ضد عدد متساو من السود أو ضعفه؛ أو يمكن إرسالنا بشكل منفرد لمواجهة الحيوانات المتوحشة، أو أحد المحاربين السود المشهورين».

سألته: «وإذا انتصرنا، ماذا يحدث ... الحرية؟».

ضحك.

«الحرية، بالطبع! الموت هو حريتنا الوحيدة. أي شخص دخل مناطق الآباء الأوائل، لم يغادرها أبدًا. إذا أثبتنا أننا مقاتلين متمكنين،

فإنه يُسمح لنا كثيرًا بالقتال. وإذا لم نكن مقاتلين أشداء ....»، هز كتفيه، «سنموت عاجلًا أو أجلًا في الحلبة».

سألته: «وأنت، هل قاتلت كثيرًا؟»!.

فأجاب: «كثيرًا جدًّا. إنها سعادتي الوحيدة. لقد قتلت بعض مئات من الشياطين السود خلال ما يقرب من عام في طقوس إيسوس. ستفتخر بي والدتي ستكون إذا عرفت فقط كيف حافظت جيدًا على تقاليد براعة والدي».

قلت: «من المؤكد أن والدك كان محاربًا عظيمًا!، لقد عرفت معظم المحاربين في برسوم في فترة وجودي بها؛ ومما لا شك فيه أنني عرفته. من هو؟».

«والدي هو ....».

ارتفع صوت الحارس الأجش: «تعالا، يا كالوت!، إلى الذبح معك»، ودفعانا بخشونة إلى الانحدار الحاد الذي يؤدي إلى غرفة سفلية تفتح على الحلبة.

كان المدرج، مثل كل شيء رأيته في برسوم، مبنيًّا في تجويف كبير. ولا يوجد فوق مستوى الأرض سوى المقاعد الأعلى، التي شكلت الجدار المنخفض المحيط بالحفرة. والحلبة نفسها كانت تحت سطح الأرض.

وهناك سلسلة من الأقفاص ذات القضبان على مستوى سطح الحلبة توجد مباشرة تحت المستوى الأدنى من المقاعد. اقتادونا كقطيع إلى

هذه الأقفاص. لكن صديقي الشاب لم يكن، مع الأسف، من بين أولئك الذين شغلوا القفص معي.

كان عرش إيسوس يقع أمام قفصي مباشرة. هنا تربض المخلوقة البشعة، محاطة بمائة من النساء العبيد اللاتي يتألقن بأغطية مرصعة. وشكلت الأقمشة الرائعة ذات الألوان المختلفة والأنماط الغريبة، الوسادة الناعمة التي تغطي المنصة التي يتكئون عليها.

في جوانب العرش الأربعة، وأدناه بعدة أقدام، وقفت كوعًا بكوع ثلاثة صفوف متماسكة من العساكر المدججين بالأسلحة. وهناك، في مواجهة العرش، موقع كبار شخصيات هذه السماء الوهمية – أشخاص سود يلمعون بزينة الأحجار الكريمة، وعلى جباههم شارات دائرية من الذهب تحدد رتبهم.

وعلى جانبي العرش، امتدت كتلة صلبة من البشر من أعلى المدرج إلى أسفله. هناك العديد من النساء والرجال، يكتسي كل منهم بعتاد رائع الصُّنع من محل سكنه وبيته. ومع كل شخص أسود، يوجد عدد من العبيد، يتراوح ما بين عبد واحد إلى ثلاثة، ينتمون إلى مناطق الثيرن ومن العالم الخارجي. السود جميعهم «نبلاء». لا يوجد فلاحون بين الأبناء الأوائل. حتى أقل جندي كان إلهًا، وعلى عبيده أن ينتظروه.

لا يمارس الأبناء الأوائل أي عمل. الرجال يقاتلون، وهذا امتياز مقدس وواجب؛ يقاتلون ويموتون من أجل إيسوس. أما النساء فلا يفعلن أي شيء، لا شيء على الإطلاق. تتولى الإماء حمايتهن، وإلباسهن، وإطعامهن. هناك حتى البعض اللاتي لديهن إماءٌ يتحدثن بدلًا منهن،

وقد رأيت امرأة جلست أثناء الطقوس وعيناها مغلقتان بينما تروي لها أَمَةٌ الأحداث التي تجري داخل الحلبة.

كانت أول فعاليات اليوم هي تقديم التحية إلى إيسوس؛ وهذه علامة على نهاية هؤلاء البائسين المساكين الذين نظروا إلى المجد الإلهي المقدس منذ عام كامل. كانوا عشر نساء- جمال باهر من الساحات الفخورة للجيداك الأقوياء ومعابد ثيرن المقدسة. لقد خدمن لمدة سنة في حاشية إيسوس؛ واليوم يدفعن حياتهن ثمنًا لهذه الحظوة الإلهية؛ وغدًا تزين أجسادهن موائد موظفي البلاط.

دخل رجل أسود ضخم إلى الحلبة مع الشابات. قام بفحصهن بعناية، تلمس أطرافهن ونكز ضلوعهن. واختار الآن واحدة من بين الفتيات اللاتي قادهن أمام عرش إيسوس. قال بضع كلمات أمام الإلهة، لكنني لم أستطع سماعها. أومأت إيسوس برأسها. رفع الرجل الأسود يديه فوق رأسه رمزًا للتحية، وأمسك الفتاة من رسغها، وجرها من الحلبة خلال مدخل صغير تحت العرش.

قال سجين بجواري: «إيسوس ستتناول طعامًا جيدًا الليلة».

سألته: «ماذا تقصد؟».

«كان هذا عشاءها الذي أخذه ثابيس العجوز إلى المطابخ. ألم تلحظ كيف اختار بعناية أكثرهن نعومة وامتلاء؟».

زمجرت بلعناتي على الوحش الجالس أمامي على العرش الفاخر.

نصحني رفيقي: «لا تستشيط غضبًا؛ سوف تشاهد أسوأ من ذلك

بكثير إذا عشت ولو شهر واحد بين الأبناء الأوائل».

التفتُّ مرة أخرى في الوقت المناسب لأرى بوابة قفص قريب ملقاة مفتوحة وثلاثة من القرود البيض المتوحشين ينطلقون إلى الحلبة. انكمشت الفتيات متجمعات بخوف في وسط الحظيرة.

جثت إحداهن على ركبتيها ومدت يديها في توسل تجاه إيسوس؛ لكن الإلهة البشعة لم تفعل سوى أن انحنت مزيدًا إلى الأمام في توقع متحمس للترفيه القادم. تطلعت القرود مطولًا إلى الزمرة المرتعبة من بنات مكروبات، ثم هجمت عليهن وهي تُصدر صرخات شيطانية من الجنون الوحشي.

تدفقت داخلي موجه غضب مجنون. إنها مخلوقة جبانة قاسية أسكرتها السلطة، هي التي يتصور عقلها الخبيث تلك الأشكال المخيفة للتعذيب التي أثارت استيائي ورجولتي. وطافت أمام عيني غيمة الدماء الحمراء التي تنذر بالموت لأعدائي.

استرخى الحارس أمام البوابة خالية القضبان للقفص الذي يحتجزني. ما الحاجة إلى قضبان لمنع هؤلاء الضحايا المساكين من الاندفاع إلى الحلبة التي حددها أمر الإلهة كمكان للموت!

بضربة واحدة، أوقعت الحارس الأسود فاقد الوعي على الأرض. انتزعت سيفه الطويل، وقفزت إلى الحلبة. كانت القرود تنقض على الفتيات، لكن عضلاتي القوية كبشري من كوكب الأرض لم تتطلب سوى قفزتين هائلتين لأصل إلى وسط الأرضية المكسية بالرمل.

سادت لحظة صمت في المدرج الكبير، ثم ارتفع صراخ جامح من أقفاص المحكوم عليهم بالموت. طاف سيفي الطويل محلقًا في الهواء وهو يجلجل، فسقط قرد ممددًا مقطوع الرأس تحت أقدام الفتيات اللاتي أصبن بإغماء.

تحولت القرود الأخرى نحوي الآن، وعندما وقفت في مواجهتهم، واستجاب هدير الجمهور الغاضب للهتافات الجامحة الصادرة من داخل الأقفاص. رأيت من طرف عيني مجموعة من الحراس تندفع عبر الرمال اللامعة في اتجاهي؛ ثم اندفع شخص من أحد الأقفاص ورائي. كان الشاب الذي سحرتني شخصيته.

توقف للحظة أمام الأقفاص، مع سيف مرفوع.

صاح: «هيا يا رجال العالم الخارجي! فلنجعل من موتنا قيمة، هيا وراء هذا المحارب غير المعروف لنحول ذكرى يوم تحية إيسوس إلى انتقام وحشي يتردد صداه عبر العصور ويؤدي إلى شحوب بشرة الرجال السود كلما يكررون طقوس إيسوس. هيا! توجد خارج أقفاصكم رفوف مملوءة بالسيوف».

ودون أن ينتظر معرفة نتائج دعوته، استدار وقفز نحوي. ارتفعت من كل قفص يضم الرجال الحمر صيحات مدوية استجابة لدعوته. سقط الحراس الداخليون تحت الحشود العاصفة، وانطلق نزلاء الأقفاص متحمسين بشهوة القتل.

تولى السجناء تجريد الرفوف الخارجية من السيوف، وتسلحوا بها لخوض معاركهم، وأسرع سرب من المحاربين عاقدي العزم إلى دعمنا.

سقطت أمام سيفي القرود الكبيرة، بطولها الشاهق الذي يصل إلى خمسة عشر قدمًا، بينما كان الحراس المسؤولون لا يزالون على مسافة بعيدة. طاردهم الشاب مقتربًا منهم. وقفت الفتيات الشابات خلف ظهري؛ ونظرًا لأنني كنت أقاتل من أجلهن، بقيت واقفًا لملاقاة موتي المحتوم، ولكن مع تصميمي على إعلاء قيمتي التي سيتذكرونها طويلًا في مناطق الأبناء الأوائل.

لاحظت سرعة الشاب الأحمر المدهشة وهو يطارد الحراس. لم أشهد أبدًا مثل هذه السرعة لدى أي مريخي. كانت قفزاته ووثباته أقصر قليلًا من تلك التي أنتجتها عضلاتي كبشري من كوكب الأرض، ومنحتني هيبة واحترامًا عند المريخيين الخُضر الذين وقعت بين أيديهم في ذلك اليوم البعيد الذي شهد أول خطواتي على المريخ.

لم يكن الحراس قد وصلوا عندي بعد، عندما انقض عليهم من الخلف. وقد دفعتهم من جانبي، بعد أن استداروا متصورين من ضراوة الهجوم أن أكثر من عشرة كانوا يهاجمونهم.

وخلال القتال السريع الذي أعقب ذلك، لم تكن هناك فرصة لملاحظة أي شيء آخر غير تحركات خصومي الفوريين؛ والآن ألقيت لمحة خاطفة أخرى إلى الشخص ذي العضلات الصلبة الذي ينطلق بخفة بصليل سيفه، وملأ قلبي بحنين غريب وفخر عظيم غير قابل للتفسير.

ظهرت ابتسامة قاتمة على وجه الفتى الوسيم، متحديًا في تهكم أحيانًا الأعداء الذين يواجههم. كان في هذا وغيره من طريقته في القتال مماثلًا لتلك التي ميزتني دائمًا في ميدان المعركة.

ربما هذا التشابه المبهم هو ما جعلني أحب الفتى، بينما ملأت روحي الفوضى الفظيعة التي أوقعها سيفه بين السود باحترام هائل له.

ومن جانبي، كنت أقاتل كما قاتلت ألف مرة من قبل: أتجنب الآن طعنة شريرة، وأخطو الآن بسرعة لأتيح لرأس سيفي أن يشرب من أعماق قلب أحد خصومي، قبل أن أدفنها في حلق رفيقه.

كان وقتًا مرحًا لكلينا، عندما صدرت الأوامر إلى مجموعة كبيرة من حرس إيسوس الخاص بالدخول إلى الحلبة. اندفعوا يطلقون صيحات عنيفة، بينما تدفق عليهم السجناء المسلحون من كل جانب.

لمدة نصف ساعة بدا كأنما انفتح الجحيم كله على مصراعيه. قاتلنا ككتلة واحدة لا تنفصم داخل حدود أسوار الحلبة – شياطين ملطخة بالدماء، تعوي وتلعن؛ وسيف الشاب الأحمر يومض دائمًا بجانبي.

نجحت ببطء وأوامر متكررة، في جذب السجناء إلى تشكيل غير منظم حولنا، بحيث أصبحنا نقاتل أخيرًا على شكل دائرة عنيفة تقع في مركزها الفتيات المحكوم عليهن بالموت.

سقط كثيرون على الجانبين، لكن الخسائر الأكبر لا تزال حتى الآن في صفوف حراس إيسوس. رأيت مبعوثون يركضون بسرعة خلال الحضور، وعند مرورهم يستل النبلاء سيوفهم وينطلقون إلى الحلبة. كانوا يريدون إبادتنا بقوة عددهم، هذه هي خطتهم التي اتضحت بجلاء.

لمحت إيسوس متكئة إلى الأمام على عرشها، وقد تشوهت ملامحها البشعة في تكشيرة مروعة من الكراهية والغضب، وأعتقد أنني

تمكنت من أن أميز فيها تعبيرًا عن الخوف. وهذا الوجه هو ما أوحى لي بما يجب أن أقوم به.

وبسرعة أمرت خمسين سجينًا بالتراجع خلفنا وتشكيل دائرة جديدة حول الفتيات.

أصدرت أمرًا: «ابقوا لحمايتهن حتى أعود».

ثم تحولت إلى المجموعة التي تُشكل الخط الخارجي، وقلت صائحًا: «لتسقط إيسوس! اتبعوني إلى العرش؛ سوف نجني الانتقام حيث يُستَحق الانتقام».

كان الشاب بجانبي هو أول من هتف صائحًا: «لتسقط إيسوس!»، ثم ارتفع من خلفي ومن جميع الجوانب صياح أجش «إلى العرش! إلى العرش!»

تحركنا كرجل واحد، كتلة قتالية ساحقة، فوق أجساد الخصوم الموتى والمحتضرين تجاه العرش الرائع للإلهة المريخية. تدفقت جحافل مقاتلي الأبناء الأوائل البواسل من بين الجمهور للتحقق من التقدم الذي أحرزناه. نحيناهم جانبًا من أمامنا؛ لأنهم كانوا رجالًا من ورق.

«فليذهب بعضكم إلى المقاعد!»، صحت مع اقترابنا لجدار الحلبة الحاجز. «يمكن أن يستولى عشرة منا على العرش»، فقد رأيت أن الجزء الأكبر من حراس إيسوس قد دخلوا في معمعة الحلبة.

انقسم السجناء بجانبي يمينًا ويسارًا نحو المقاعد، يقفزون فوق

الجدار المنخفض بسيوف نازفة تشتهي الضحايا المحتشدين الذي ينتظروهم.

وفي لحظة أخرى امتلأ المدرج كله بصرخات سكرات الموت والجِراح، التي اختلطت بأصوات تصادم الأسلحة وصيحات المنتصرين المظفرة.

جنبًا إلى جنب، شققنا أنا والشاب الأحمر ومعنا ربما أكثر من عشرة آخرين، طريقنا بالقتال إلى أسفل العرش. كان الحراس الباقون، الذين انضم إليهم كبار الشخصيات والنبلاء من الأبناء الأوائل، يسدون الطريق بيننا وبين إيسوس التي جلست متكئة إلى الأمام على مقعدها من خشب السورابوس المنحوت، وتُصدر الأوامر بصوت عالي النبرة لأتباعها وتصب لعنات مدمرة على هؤلاء الذين يسعون إلى تدنيس ألوهيتها.

اتسعت مرتعدة أعين الإماء الخائفات حولها، لا يعرفن هل يُصلين لنصرنا أم هزيمتنا. انتزعت الكثيرات، وهن بنات فخورات دون شك لبعض محاربين برسوم النبلاء، السيوف من أيدي حراس إيسوس الذين سقطوا ويسقطون، لكنهن سرعان ما سقطن قتلى؛ شهيدات مجيدات لقضية يائسة.

حارب الرجال معنا جيدًا. لم يحدث أبدًا -منذ أن قاتلنا أنا وتارس تاركاس بعد ظهر ذلك اليوم الحار من فترة طويل كتفًا إلى كتف ضد جحافل وارهون في قاع البحر الميت أمام ثارك- أن رأيت رجلين يقاتلان من أجل هدف نبيل وبهذه الوحشية التي لا تُقهر، كما قاتلت أنا والشاب الأحمر في ذلك اليوم أمام عرش إيسوس، إلهة الموت والحياة الأبدية.

سقط أمام سيوفنا الرجال الذين وقفوا بيننا وبين مقاعد خشب السورابوس المنحوت. تدفق آخرون لسد الفجوة، لكننا تقدمنا بوصة ببوصة وخطوة بخطوة، واقتربنا تدريجيًّا من هدفنا.

ارتفعت الآن صرخة من قسم قريب من المدرجات - «انهضن يا عبيد!»، «انهضن يا إماء!»- ارتفعت وانخفضت الصرخة إلى أن تضخمت متحولة إلى صوت قوي جهير اجتاح المدرج بالكامل في موجات هائلة.

للحظة، وكأنما بموافقة مشتركة، أوقفنا قتالنا للبحث عن معنى هذه الرسالة الجديدة التي لم يستغرق الأمر سوى لحظة لترجمة دلالتها. انطلقت الإماء، في جميع أجزاء المبنى، في هجوم على أسيادهن بأي سلاح يصل أولًا إلى أياديهن. لوحت عبدة جميلة بخنجر انتزعته من أربطة عتاد سيدتها، بعد أن تحول نصله اللامع إلى اللون القرمزي لدماء مالكته؛ واقتلعت نساء أخريات السيوف من جثث القتلى حولهن؛ واستخدمت بعضهن الحلي الثقيلة التي يمكن تحويلها إلى هراوات- هذه هي الأدوات التي شفت بها النساء الجميلات غليلهن في انتقامهن المكبوت طويلًا والذي يمكن في أحسن الأحوال أن يعوضهن، وإن يكن جزئيًّا، عن الفظائع والإهانات التي لا توصف التي تعرضن لها من جانب أسيادهن السود. واستخدمت الفتيات اللاتي لم يستطعن إيجاد أي أسلحة أخرى، أصابعهن القوية وأسنانهن اللامعة.

كان مشهدًا يجعل المرء يرتجف ويهتف؛ ثم اشتبكنا بعد برهة قصيرة في معركتنا ثانية مع صيحة المعركة العطشى التي أطلقتها النساء

لتذكيرنا بأنهن ما زلن يقاتلن – «انهضن يا إماء!» «انهضن يا إماء!».

لا يقف بيننا وبين إيسوس الآن سوى صف واحد ضئيل من الرجال. اصطبغ وجهها باللون الأزرق رعبًا. تساقط الزبد من شفتيها. بدت كأنما أصابها الخوف بشلل يمنعها من الحركة. أنا والشاب فقط نحارب الآن. سقط الآخرون جميعًا، وكنت على وشك أن أسقط أيضًا من طعنة سيف طويل بغيضة، إن لم تمتد يد من وراء خصمي وتمسك بكوعه عندما كاد النصل يسقط فوقي. قفز الشخص إلى جانبي، وأغمد سيفه في ذلك الزميل قبل أن يتمكن من التعافي وتوجيه ضربة أخرى.

كان يجب أن أموت حتى حينذاك، فسيفي كان مثبتًا في عظمة صدر داتور من الأبناء الأوائل. وعندما سقطت الرجل، انتزعت سيفه ونظرت من فوق جسده الممدد إلى عيني الشخص الذي أنقذتني سرعة يده من أول طعنه من سيفه– كانت فايدور، ابنة ماتاي شانج.

صاحت: «اهرب يا أميري!، لا جدوى من الاستمرار في قتالهم. كلهم موتى في الحلبة. كل من هاجموا العرش ماتوا إلا أنت وهذا الشباب. لم يبق بين المقاعد هناك سوى القليل من رجالك المقاتلين، وسرعان ما سيُقتلون هم والإماء. استمع! بالكاد ما يمكنك أن تسمع صيحة المعركة من النساء الآن، فكلهن تقريبًا موتى. وأمام كل واحد منكم يوجد عشرة آلاف رجل أسود في مناطق الأبناء الأوائل. شق طريقك نحو العراء وبحر كوراس. يمكنك بذراع سيفك الجبار أن تنجح في الوصول إلى المنحدرات الذهبية وحدائق معابد الثيرن المقدسين. وهناك أخبر ماتاي شانج، والدي، بقصتك. سيحافظ عليك، ويمكنكما معًا إيجاد طريقة

لإنقاذي. اهرب حيث لا تزال هناك فرصة ضئيلة للهرب».

لكن هذه لم تكن مهمتي، كما لا أرى ما يمكن أن أفضله في ضيافة الثيرن المقدسين القساة على الأبناء الأوائل.

هتفت «فلتسقط إيسوس!»، وانطلقت مع الصبي للقتال مرة أخرى. سقط اثنان من السود بسيوفنا، ووقفنا وجهًا لوجه مع إيسوس. وما إن ارتفع سيفي لإنهاء حياتها البغيضة، حتى غادرها الشلل، وبصرخة تثقب الأذن استدارت لتهرب. انفتحت خلفها مباشرة هوة سوداء فجأة في أرضية المنصة. وانطلقت نحو الفتحة، وأنا والشباب في أعقابها. احتشد حراسها المتناثرون عند سماع صرختها، وهرعوا نحونا. سقطت ضربة على رأس الشاب. ترنح وكاد أن يسقط، لكنني أمسكته بذراعي الأيسر، واستدرت لمواجهة الغوغاء الغاضبين من المتعصبين الدينيين الذين مسهم جنون من إهانتي لإلاهتهم، وفي الوقت نفسه اختفت إيسوس تمامًا في الأعماق السوداء أسفلنا.

* * *

(١٢)

الحكم بالإعدام

وقفت للحظة قبل أن ينقضوا عليَّ، لكن هجمتهم الأولى أجبرتني إلى التراجع للوراء خطوة أو خطوتين. تحسست الأرضية بقدمي، لكنني لم أعثر إلا على مساحة فارغة. لقد تراجعت إلى الهوة التي استقبلت إيسوس. ولثانية انقلبت من فوق الحافة، وتأرجحت للخلف، والصبي لا يزال متشبثًا بذراعي بإحكام ونحن نسقط إلى الهاوية السوداء.

ارتطمنا بمنحدر مصقول، وانغلقت الفتحة فوقنا بشكل سحري، كما حدث عندما انفتحت؛ وسقطنا، دون أن نُصاب بأذى، إلى شقة خافتة الإضاءة أدنى كثيرًا من الحلبة.

كان أول شيء رأيته عندما وقفت هو وجه إيسوس الخبيث يحملق في وجهي من خلال قضبان الباب الحديدي الضخمة في أحد جوانب الغرفة.

قالت بصوت جهوري: «بشري مجازف! ستنال عقوبة فظيعة على كفرك في هذه الزنزانة السرية. سترقد هنا وحدك في الظلام بجانب جثة شريكك، تتقيحان في عفونتها، حتى تصلان إلى الجنون من الوحدة

والجوع، فتأكلان الديدان الزاحفة التي كانت رجالًا في يوم ما».

هذا كل ما قالته ثم ذهبت، وشحب الضوء الخافت الذي كان يملأ الزنزانة متحولًا إلى سواد دامس.

قال صوت بجواري: «سيدة عجوز لطيفة».

سألت: «من الذي يتحدث؟».

«إنه أنا، رفيقك، الذي نال شرف القتال اليوم كتفًا إلى كتف أعظم محارب على الإطلاق ارتدى معدنًا في برسوم».

قلت: «أشكر الرب أنك لم تمت. خشيت من تلك الطعنة الشريرة على رأسك».

أجاب: «إنما أدارت رأسي فقط، مجرد خدش».

قلت: «ربما كانت كذلك. يبدو أننا في ورطة شديدة هنا، لدينا فرصة رائعة للموت من الجوع والعطش».

«أين نحن؟».

أجبت: «تحت الحلبة. فقد هوينا أسفل البئر الذي ابتلع إيسوس عندما كانت تقريبًا تحت رحمتنا».

ضحك ضحكة سرور وارتياح منخفضة، ثم مد يده عبر السواد الحبري وصولًا إلى كتفي، وسحب أذني بالقرب من فمه.

همس قائلًا: «لا يوجد أفضل من ذلك. هناك أسرار داخل أسرار إيسوس، لا تحلم بها إيسوس».

«ماذا تقصد؟».

«لقد اشتغلت مع العبيد الآخرين منذ عام في تجديد هذه الدهاليز تحت الأرضية، ووجدنا حينذاك أسفلها نظامًا قديمًا من الممرات والغرف ظلت مغلقة لعصور. استكشفها السود المسؤولون عن العمل، وأخذوا العديد منا للقيام بأي عمل قد يكون مطلوبًا. وأنا أعرف النظام بأكمله تمامًا.

هناك أميال من الممرات تشبه خلية النحل أسفل الحدائق والمعبد نفسه، وهناك ممر واحد يؤدي إلى أسفل ويرتبط بالمناطق السفلية التي تفتح على بئر الماء الذي يُعد ممرًّا إلى أوميان.

إذا أمكننا الوصل إلى الغواصة دون انكشاف، يمكننا عندئذ الوصول إلى البحر حيث توجد العديد من الجزر التي لا يذهب السود إليها أبدًا. وهناك يمكننا أن نعيش لفترة، ومن يدري ما قد يحدث لمساعدتنا على الهرب؟».

كان حديثه كله بهمس منخفض، خوفًا من آذان التجسس حتى هنا؛ وبالتالي أجبته بنفس النبرة الخافتة.

همست: «قدنا إلى شادور يا صديقي. هناك زودار، الرجل الأسود. كنا سنحاول الهرب معًا، ولذا لا يمكنني أن أتخلى عنه».

قال الصبي: «كلا، لا يمكن أن يتخلى المرء عن صديقه. فالقبض علينا أفضل من ترك صديق».

بدأ يتلمس طريقه حول أرضية الغرفة المظلمة بحثًا عن الكمين

الذي يؤدي إلى الممرات السفلية. وبعد فترة طويلة، ناداني بصوت خفيض «سـ..سـ..تـ»، فزحفت نحو صوته لأجده راكعًا على حافة فتحه في الأرضية.

همس: «يوجد مهبط هنا لحوالي عشرة أقدام. تعلق بيديك وسوف يمكنك النزول بأمان إلى طابق أدنى من الرمال الناعمة».

أنزلت نفسي بهدوء شديد من الزنزانة العلوية حبرية السواد إلى الحفرة حبرية السواد أدناه. كانت مظلمة تمامًا بحيث لم نتمكن حتى من رؤية أيدينا على بُعد شبر واحد من أنوفنا. لم أتصور أبدًا وجود مثل هذا الغياب الكامل للضوء كما كان في حفرة إيسوس.

ظللت للحظة معلقًا في الهواء. هناك إحساس غريب يرتبط بتجربة من هذا النوع يصعب تمامًا وصفه. عندما تتدلى الأقدام في الهواء الفارغ، والمسافة أدناه يكتنفها الظلام، هناك شعور أشبه بحالة من الذعر من فكرة إفلات القبضة والغوص في أعماق مجهولة.

على الرغم من أن الصبي أخبرني أن المسافة إلى الأرضية أدناه تبلغ عشرة أقدام، فقد خضت تجربة مثيرة كـأنما كنت متدليًا فوق حفرة بلا قاع؛ ثم أفلت قبضتي وهبطت لمسافة أربعة أقدام إلى وسادة لينة من الرمال.

تبعني الصبي.

قال: «ارفعني على كتفيك، وأنا سوف أعيد الكمين إلى مكانه».

وبعد ذلك أمسك بيدي وقادني ببطء شديد، وهو يتحسس حوله

كثيرًا ومع وقفات متكررة؛ ليؤكد لنفسه أنه لم يدخل دهاليز خاطئة.

بدأنا الآن هبوط منحدر حاد.

قال: «لن يطول الوقت قبل أن نرى الضوء. تضم المستويات المختلفة نفس الطبقة الصخور الفسفورية التي تُضيء أوميان».

لن أنس أبدًا تلك الرحلة خلال حُفر إيسوس. فعلى الرغم من خلوها من أي أحداث مهمة، فقد امتلأت بسحر غريب من الإثارة والمغامرة الذي أعتقد أنه كان يرتبط أساسًا بمدى القِدم الذي لا يمكن تخليه لهذه الممرات التي طواها النسيان منذ عصور طوال. فالأشياء التي أخفاها الظلام الجهنمي عن عيني لا يمكن أن تصل إلى نصف روعة الصور التي صنعتها مخيلتي عندما تستحضر حياة شعوب هذا العالم المحتضر القديمة، وتُحييها مرة أخرى: الدسائس، والأسرار، والقسوة التي مارسوها في وقفتهم الأخيرة ضد الجحافل المحتشدة من قيعان البحر الميت التي دفعتهم خطوة بخطوة إلى أقصى ذروة العالم حيث يتحصنون الآن خلف حاجز منيع من الخرافات.

علاوة على الرجال الخُضر، هناك ثلاثة أعراق رئيسة في برسوم: السود، والبيض، وعِرق الرجال الصُفر. عندما جفت مياه الكوكب وانحسرت البحار، تضاءلت جميع الموارد الأخرى حتى أصبحت الحياة على هذا الكوكب معركة مستمرة للبقاء.

ظلت الأعراق المختلفة تحارب بعضها بعضًا لعصور، وتفوقت الأنواع الثلاثة الأعلى بسهولة على المتوحشين الخُضر في الأماكن المائية بهذا العالم. أما الآن، وقد تطلب انحسار البحار رحيلهم المستمر

من مدنهم الحصينة، وفرض عليهم بشكل أو آخر حياة بدوية انفصلوا خلالها إلى مجتمعات أصغر، سرعان ما وقعوا فريسة لجحافل الرجال الخُضر الشرسة. والنتيجة هي دمج جزئي للسود والبيض والصُّفر، مما أسفر عن إنتاج ما يظهر الآن في عِرق الرجال الحُمر الرائع.

كنت أفترض دائمًا أن آثار الأعراق الأصلية قد اختفت تمامًا من على وجه المريخ، لكني وجدت خلال الأيام الأربعة الماضية جموعًا غفيرة من البيض والسود. هل لا تزال بعض الأركان البعيدة بالكوكب تضم بقايا لعرق الرجال الصُّفر القديم؟

أفاقني صياح خافت للصبي من تأملاتي.

صاح: «أخيرًا، الطريق المضاء». نظرت إلى أعلى ورأيت بريقًا خافتًا على مسافة بعيدة أمامنا.

كان الضوء يتزايد مع تقدمنا، إلى أن خرجنا الآن إلى دهاليز جيدة الإضاءة. تسارع تقدمنا إلى أن وصلنا فجأة إلى نهاية ممر يفتح مباشرة عند الحافة المحيطة بحوض الغواصة.

كانت المركَبة تقف عند مرساتها، وبابها دون غطاء. رفع الفتى إصبعه على شفتيه ثم نقر على سيفه بطريقة دالة، وتسلل تجاه السفينة دون صوت. وكنت في أعقابه.

نزلنا بصمت على سطحها المهجور، وزحفنا على أيدينا وركبنا نحو بابها. كشفت لمحة خفية إلى أسفل عن عدم وجود حراس على مرمى البصر؛ بالتالي، وبأسرع حركة دون صوت كالقطط، هبطنا معًا إلى

المقصورة الرئيسة للغواصة. وحتى هنا لا توجد أي علامة على الحياة. وبسرعة أغلقنا فتحة الباب بإحكام.

صعد الصبي إلى حجرة القيادة، ولمس زرًّا؛ فغاصت السفينة وسط دوامات المياه متجهة نحو قاع البئر. وحتى ذلك الحين لم نسمع هرولة أقدام كما كنا نتوقع. وبينما ظل الصبي يوجه السفينة، تسللت من مقصورة إلى أخرى في بحث عقيم عن بعض أفراد الطاقم. السفينة مهجورة تمامًا؛ يا له من حسن حظ يكاد لا يُصدَّق.

عندما عدت إلى غرفة القيادة لإبلاغ الأخبار الجيدة إلى رفيقي، سلمني ورقة.

وقال: «هذا قد يفسر غياب أفراد الطاقم».

كانت رسالة لاسلكية إلى قائد الغواصة:

«لقد تحرك العبيد. تعال مع ما لديك من رجال ومن يمكنك جمعهم في الطريق. فات أوان الحصول على مساعدات من أوميان. إنهم يذبحون الجميع داخل المدرج. إيسوس مهددة. أسرع.

زيثاد».

أوضح الشاب: «زيثاد هو داتور حراس إيسوس. لقد أدخلنا إليهم ذعرًا، لن ينسوه سريعًا».

قلت: «دعنا نأمل أن هذه ليست سوى بداية نهاية إيسوس».

أجاب: «لا أحد يعرف سوى جدنا الأول».

وصلنا إلى حوض الغواصة في أوميان دون وقوع أي حادث. وهنا ناقشنا مدى حصافة فكرة إغراق السفينة قبل مغادرتها، لكننا قررنا أخيرًا أن إغراقها لن يضيف شيئًا إلى فرص هروبنا. هناك الكثير من السود في أوميان يمكنهم إحباط خططنا إذا قبضوا علينا؛ على أنه قدوم المزيد من معابد وحدائق إيسوس لن يُقلص بأي حال من فرصنا.

كنا الآن في مأزق بشأن كيفية تجنب الحراس الذين يقومون بدوريات في الجزيرة حول الحوض. وفي النهاية توصلت إلى خطة.

سألت الصبي: «ما اسم أو لقب الموظف المسؤول عن هؤلاء الحراس؟».

فأجاب: «زميل يُدعى توريث، كان في الخدمة عندما دخلنا هذا الصباح».

«جيدة. وما اسم قائد الغواصة؟».

«يرستد».

وجدت ورقة فارغة مخصصة للرسائل في المقصورة، فكتبت الأمر التالي:

«داتور توريث: أعد هذين العبدين إلى شادور على الفور.

يرستد»

قلت: «هذه أبسط طريقة للعودة»، وابتسمت وأنا أسلم الأمر المزور للصبي. «تعال، سنرى الآن مدى نجاحها».

استفهم قائلًا: «لكن سيوفنا! ماذا سنقول لنشرح وجودهم معنا؟».

أجبته: «نظرًا لأننا لا نستطيع تفسير وجودهم، يتعين علينا أن نتركهم خلفنا».

«أليس من أقصى التهور أن نضع أنفسنا مرة أخرى، غير مسلحين، في قبضة الأبناء الأوائل؟».

أجبت: «إنها الطريقة الوحيدة. ثق أنني سأجد وسيلة للخروج من سجن شادور، وأعتقد أننا بمجرد خروجنا لن نجد صعوبة كبيرة في تسليح أنفسنا مرة أخرى في هذا البلد الذي يزخر بهذا القدر الوفير من الرجال المسلحين».

«كما تقول»، أجاب بابتسامة وهز كتفيه، «لا أثق في أتباع زعيم ملهم آخر أكثر منك. تعال، فلنختبر حيلتك».

خرجنا بجرأة من كوة باب المركبة المسحور، تاركين سيوفنا وراءنا. وخطونا إلى المخرج الرئيس الذي يقود إلى موقع المخفر ومكتب داتور الحراس.

على مرأى منا، انطلق أفراد الحرس إلى الأمام متفاجئين، وأوقفتنا بنادقهم المصوبة ضدنا. سلمت الرسالة لواحد منهم. أخذها وعندما رأى لمن هي موجهة، استدار وسلمها إلى توريث الذي كان خارجًا من مكتبة لمعرفة سبب الفوضى.

قرأ الأسود الأمر، وللحظة نظر إلينا بارتياب واضح.

تساءل: «أين داتور يرستد؟»، غاص قلبي داخلي، كما لعنت نفسي

لحماقتي في عدم إغراق الغواصة حتى يبدو كذبي معقولًا.

قلت: «كانت أوامره أن نعود فورًا إلى أرض المعبد».

أخذ توريث نصف خطوة باتجاه مدخل الحوض كأنما ليتأكد من قصتي. في تلك اللحظة كان كل شيء معلقًا في الميزان، فإذا كان قد فعل ذلك وعثر على الغواصة الفارغة لا تزال راسية عند الرصيف الميناء، لتهاوت فوق رؤوسنا تلك البنية الضعيفة لتدبيري؛ ولكن من الواضح أنه قرر أن الرسالة حقيقية، فما من سبب وجيه للشك فيها حيث، إذ كيف يقدم اثنان من العبيد نفسيهما طوعًا للحبس بمثل هذه الطريقة. لقد كانت جرأة الخطة هي ما أنجحها.

توجه إلينا توريث بسؤال: «هل كنتما على علاقة بثورة العبيد؟ لم تصلنا سوى تقارير هزيلة عن هذا الحدث».

أجبته: «الجميع كان منخرطًا. لكنها لم تحقق الكثير. تغلب الحراس بسرعة وقتل غالبيتنا».

بدا راضيًا عن هذا الرد. والتفت إلى أحد مرؤوسيه آمرًا: «خذهما إلى شادور». دخلنا سفينة صغيرة راسية بجوار الجزيرة، وخلال بضع دقائق كنا نترجل من المركبة إلى شادور. عدنا إلى زنازيننا؛ أنا مع زودار والصبي بمفرده؛ وخلف الأبواب المغلقة أصبحنا مرة أخرى سجناء لدى الأبناء الأوائل.

(١٣)

فرصة الحرية

استمع زودار في دهشة متشككة لسردي للأحداث التي جرت داخل الحلبة في طقوس إيسوس. وعلى الرغم من إعلانه سابقًا شكه في أن إيسوس إلهة، فبالكاد ما أمكنه إدراك أن يهددها أحد بسيف في يده دون أن ينفجر إلى ألف شظية من غضبة عقابها الإلهي.

قال: «هذا هو البرهان النهائي أخيرًا. ما من حاجة إلى المزيد لتتحطم تمامًا بقايا معتقداتي الخرافية السابقة في إلوهية إيسوس. إنها ليست سوى امرأة عجوز شريرة، تستخدم ببراعة سلطة شريرة قوية بالمكائد التي أبقت شعبها وكل برسوم في جهل ديني لعصور».

أجبته: «لكنها لا تزال هنا بكل قوة. ولذا علينا أن نغادر عند أول لحظة تبدو مواتية».

قال ضاحكًا: «آمل أن تجد لحظة مواتية، فمن المؤكد أنني في كل حياتي لم أشهد أبدًا سجينًا لدى الأبناء الأوائل تمكن من الهرب».

أجبته: «سنفعل هذا الليلة».

قال زودار: «سيحل الليل قريبًا. كيف يمكنني المساعدة في المغامرة؟».

سألته: «هل يمكنك السباحة؟».

فأجاب: «لا يوجد سيليان غروي يتردد كثيرًا على أعماق كوراس، ويألف المياه، أكثر من زودار».

قلت: «جيد. من الأرجح أن الفتى الأحمر لا يمكنه السباحة، نظرًا لعدم وجود ما يكفي من المياه في كافة مناطقهم لتطفو عليها أصغر سفينة. ولذا سيكون على أحدنا دعمه خلال البحر إلى أن نصل للسفينة التي نختارها. كنت أتمنى أن نقطع المسافة بأكملها تحت السطح، لكنني أخشى أن الشاب الأحمر يتعذر عليه تنفيذ تلك الرحلة. فحتى أشجع شجعانهم يفزعون من مجرد التفكير في المياه العميقة، فلم يشهد أسلافهم بحيرة أو نهرًا أو بحرًا منذ عصور».

تساءل زودار: «هل سيرافقنا الفتى الأحمر؟»

«نعم».

«هذا جيد. ثلاثة سيوف أفضل من سيفين. وخاصة عندما يكون الثالث قويًا كهذا الزميل. لقد رأيته يقاتل في الحلبة خلال طقوس إيسوس مرات عديدة. ولم أشهد أبدًا محاربًا مثله، يبدو أنه لا يُقهر حتى في مواجهة صعاب كبيرة، إلى أن رأيتك. يمكن للمرء أن يتصور أنكما المعلم وتلميذه، أو الأب وابنه. تذكّر وجهه، هناك تشابه بينكما. وهو ملحوظ جدًّا عند القتال- نفس الابتسامة المتجهمة ونفس الازدراء

الغاضب تجاه خصمك يبدو واضحًا في كل حركة من أجسامكما وفي كل تعبير يتغير في وجهيكما».

«أيًّا ما كان، زودار، إنه مقاتل عظيم. أعتقد أننا نشكل ثلاثيًّا يصعب التغلب عليه. وإذا كان صديقي تارس تاركاس، جيداك ثارك، واحدًا منا، كان يمكننا أن نشق طريقنا من أحد أطراف برسوم إلى الطرف الآخر حتى لو كان العالم كله ضدنا».

قال زودار: «سوف يكون، عندما يعرفون من أين أتيت. هذه ليست سوى إحدى الخرافات التي دستها إيسوس على البشرية الساذجة. وهي تنجح من خلال الثيرن المقدسين الذين يجهلون ذاتها الحقيقية، مثلهم مثل البرسوميين في العالم الخارجي. إنها ترسل أوامرها إلى الثيرن مكتوبة بالدم على مخطوطة غريبة. ويعتقد الحمقى المساكين المخدوعين أنهم يتلقون وحي إلهة عبر قوى خارقة للطبيعة، فنهم يجدون هذه الرسائل فوق هياكل معابدهم المحروسة التي لا يمكن أن يصل إليها أحد دون كشفه. وأنا شخصيًّا قد حملت رسائل إيسوس هذه لسنوات عديدة. هناك نفق طويل من معبد إيسوس إلى المعبد الرئيس لماتاي شانج. لقد حفره منذ زمن بعيد عبيد الأبناء الأوائل في سرية مطلقة بحيث لم يخمن أي ثيرني أبدًا وجوده».

«والثيرن من جانبهم، لديهم معابد منتشرة حول العالم المتحضر بأسره. ويتناقل الكهنة هنا، الذين لا يراهم الناس أبدًا، تعاليم نهر إيس الغامض ووادي دور وبحر كوراس المفقود لإقناع المخلوقات المسكينة المخدوعة باتخاذ الحج الطوعي الذي يُضخم ثروات الثيرن المقدسين،

ويُزيد أعداد عبيدهم».

«وهكذا يتم استخدام الثيرن كوسيلة رئيسة لجمع الثروة والعمالة التي ينتزعها منهم الأبناء الأوائل عندما يحتاجون إليها. وأحيانًا يشن الأبناء الأوائل أنفسهم غارات على العالم الخارجي. وعندئذ يأسرون العديد من نساء بيوت الرجال الحُمر الملكية، ويأخذون أحدث السفن الفضائية الحربية والصُناع المهرة المدربين الذين يبنوها، بحيث يمكنهم محاكاة ما لا يمكنهم إنشاءه».

«نحن عِرق غير منتج، نفتخر بعدم إنتاجيتنا. إنها جريمة لدى الأبناء الأوائل أن تعمل أو تبتكر. فهذا هو عمل أفراد المراتب الدنيا، الذين يعيشون فقط من أجل أن ينعم الأبناء الأوائل بحياة طويلة من الرفاهية والبطالة. كل ما يهمنا هو القتال؛ فمن دونه سيكون الأبناء الأوائل أكبر عددًا من كل ما يمكن أن تدعمه مخلوقات برسوم، فبقدر ما أعرف لم يمت أي منا من قبل موتًا طبيعيًّا. يمكن أن تعيش نساؤنا إلى الأبد لو لم نسأم منهن ونتخلص منهن لنوجد مكانًا لآخرين. إيسوس وحدها هي المحمية كلية من الموت. وقد عاشت لعدد لا يحصى من العصور».

سألته: «ألم يكن ممكنًا أن يعيش البرسوميون الآخرون إلى الأبد لولا تعاليم الحج الطوعي التي تسحبهم إلى حضن إيس عند، أو قبل، انتهاء عامهم الألف؟».

«أشعر الآن أنهم دون شك من نوع مخلوقات الأبناء الأوائل، وآمل أن أعيش للقتال من أجلهم تعويضًا عن الخطايا التي ارتكبتها ضدهم نتيجة الجهل الذي امتد لأجيال من التعاليم الكاذبة».

عندما توقف عن الكلام، رن نداء غريب عبر مياه أوميان. سمعته في نفس التوقيت مساء اليوم السابق، وعرفت أنه علامة على انتهاء اليوم، حيث فرش رجال أوميان حريرهم على ظهر السفينة الحربية والسفينة الصغيرة، وراحوا في نوم مريخي خال من الأحلام.

دخل حارسنا لتفقدنا للمرة الأخيرة قبل انبلاج اليوم الجديد على العالم العلوي. أنجز مهمته بسرعة، وأغلق باب سجننا الضخم وراءه- كنا وحدنا في الليل.

أعطيته وقتًا للعودة إلى مقره، إذ قال زودار أنه ربما سيفعل ذلك؛ ثم انطلقت إلى النافذة الحديدية، وألقيت نظرة فاحصة على المياه القريبة. على مسافة صغيرة من الجزيرة، ربما رُبع ميل، ترسو سفينة حربية ضخمة؛ بينما يوجد بينها وبين الشاطئ عدد من السفن الأصغر وطائرات استطلاع لراكب واحد. يوجد حارس فوق السفينة الحربية فقط. يمكنني رؤيته بوضوح في الأجزاء العلوية من السفينة؛ وشاهدته خلال مراقبتي وهو يفرد حرير نومه فوق المنصة الصغيرة التي يتمركز عليها. وسرعان ما ألقى نفسه متمددًا على مضجعه. في واقع الأمر، كان الانضباط في أوميان متراخيًا، ولا عجب في ذلك، حيث لا يتخيل خصم وجود مثل هذا الأسطول في برسوم، أو حتى وجود الأبناء الأوائل، أو بحر أوميان. لماذا إذن يحافظون على وجود حارس؟

هبطت الآن إلى الأرض ثانية وتحدث مع زودار، ووصفت له المركبات المختلفة التي رأيتها.

قال: «توجد واحدة هناك من ممتلكاتي الشخصية، بُنيت لتحمل

خمسة رجال، وهي أسرع من أسرع مركبة. إذا وصلنا إليها، يمكننا على الأقل أن نفوز بسعي لا يمكن نسيانه من أجل الحرية»؛ ثم أخذ يصف لي تجهزات السفينة الفضائية: محركاتها، وكل ما يجعلها ما هي عليه.

تعرفت في شرحه على خدعة تعشيق التروس التي علّمها لي كانتوس كان من قبل، عندما أبحرنا بأسماء مزورة في بحرية زودانجا بقيادة الأمير صاب ثان. وهكذا عرفت الآن أن الأبناء الأوائل سرقوها من سفن هيليوم؛ لأنها السفن الوحيدة التي يجري توجيهها على هذا النحو. وعرفت أيضًا أن زودار قال الحقيقة عندما أشاد بسرعة سفينته الصغيرة، فلا شيء يخترق هواء المريخ الرقيق يمكن أن يقترب من سرعة سفن هيليوم.

قررنا الانتظار لمدة ساعة على الأقل إلى أن يفرش جميع الحراس المتجولين حريرهم. وفي الوقت نفسه، يجب إحضار الشاب الأحمر إلى زنزانتنا، حتى نكون على أهبة الاستعداد للقيام بمجازفتنا نحو الحرية معًا.

انطلقت إلى الجزء العلوي من الجدار الفاصل بين الزنازين، وسحبت نفسي إلى قمته. هناك وجدت سطحًا مسطحًا يبلغ عرضه حوالي قدم، سرت عبره إلى أن وصلت إلى الزنزانة التي رأيت فيها الصبي يجلس على مقعده الطويل. كان يميل إلى الخلف مستندًا إلى الجدار وينظر إلى أعلى، إلى القبة المتوهجة فوق أوميان، وعندما لمحني أتوازن فوق الجدار الفاصل فوقه، اتسعت عيناه في دهشة. ثم ظهرت على ملامحه ابتسامة عريضة تنم عن فهمه وامتنانه.

عندما انحنيت لأهبط على الأرض بجانبه، أشار لي أن انتظر، وأقترب مني في أسفل هامسًا: «أمسك يدي؛ بإمكاني أن أقفز إلى قمة ذلك الجدار بنفسي. لقد حاولت ذلك عدة مرات، وفي كل مرة أقترب أكثر. سأتمكن في يوم ما من القيام بذلك».

استلقيت على بطني عبر الجدار، ومددت يدي إلى أسفل نحوه. ركض مسافة قصيرة من وسط الزنزانة قافزًا إلى أعلى حتى أمسكت يده الممدودة ثم قمت بجره إلى قمة الجدار بجواري.

قلت: «أنت أول قافز أراه على الإطلاق بين رجال برسوم الحُمر».

ابتسم. «هذا ليس غريبًا. وسوف أقول لك السبب عندما يتوفر لدينا المزيد من الوقت».

عدنا معًا إلى الزنزانة التي جلس فيها زودار؛ وهبطنا وأخذنا نتحدث إلى أن مرت ساعة.

وضعنا خططنا للمستقبل القريب، وألزمنا أنفسنا بقسم رسمي أن نقاتل من أجل بعضنا بعضًا حتى الموت ضد أي خصم يواجهنا، ذلك أننا إذا نجحنا في الإفلات من الأبناء الأوائل، فلا يزال أمامنا عالم كامل ضدنا - سلطة الخرافات الدينية لا تزال قوية.

اتفقنا على أنني سأتولى قيادة المركبة بعد أن نصل إليها، وأننا إذا وصلنا إلى العالم الخارجي بأمان سوف نحاول الوصول إلى هيليوم دون توقف.

سأل الشاب الأحمر: «لماذا هيليوم؟».

أجبته: «أنا أمير هيليوم».

رمقني بنظرة غريبة لكنه لم يقل أي شيء آخر حول هذا الموضوع. تساءلت في ذلك الوقت عما تكون دلالة نظرته، لكن التساؤل سرعان ما غادر ذهني في ظل ضغوط المسائل الأخرى، كما لم تتوفر لدي الفرصة للتفكير في الأمر مرة أخرى حتى وقت لاحق.

قلت مطولًا: «هيا، الآن وقت مناسب. فلنذهب».

في اللحظة التالية أصبحت فوق الجزء العلوي من الجدار الفاصل ثانية والصبي بجواري. فككت أربطة عتادي وقمت بتقطيعها وربطها معًا كحزام طويل واحد، وأنزلته إلى زودار المنتظر أدناه. أمسك بطرفه، وسرعان ما كان يجلس بجوارنا.

ضحك قائلًا: «كم هي بسيطة».

أجبته: «ينبغي أن يكون التوازن أبسط». ثم رفعت نفسي إلى قمة الجدار الخارجي للسجن، بحيث يمكنني إنعام النظر وتحديد موقع الخفر المارين. انتظرت لخمس دقائق تقريبًا، ثم شاهدته على مرمى البصر في وقع أقدامه وسيره البطيء كالحلزون حول البناء.

راقبته إلى أن أنهى دورته في نهاية المبنى الذي أخفاه عن بصري من جانب السجن الذي كان سيشهد انطلاقنا نحو الحرية. وفي اللحظة التي اختفى فيها، أمسكت زودار وسحبته إلى قمة الجدار. وضعت أحد طرفي حزام عتادي في يديه وأنزلته بسرعة على الأرض أدناه. ثم أمسك الصبي الحزام وانزلق وصولًا إلى الجانب الذي يوجد فيه زودار.

وفقًا لترتيبنا لم ينتظراني، لكنهما سارا ببطء نحو المياه، حوالي مائة ياردة، ومرا مباشرة عبر بيت الحراس المملوء بالجنود النيام.

سارا عشرات الخطوات، وهبطت أنا أيضًا إلى الأرض وتبعتهما على مهل نحو الشاطئ. عندما مررت ببيت الحرس، أوقفتني فكرة احتوائه على جميع السيوف الجيدة؛ فنحن نحتاج بشدة إلى سيوف في رحلتنا المحفوفة بالمخاطر التي نوشك على البدء فيها.

حدقت نحو زودار والشاب، ورأيت أنهما انزلقا من حافة الرصيف إلى الماء. وفقًا لخطتنا، عليهما أن يبقيا هناك متشبثين بالحلقات المعدنية التي تُرصِع مادة الرصيف الشبيهة بالخرسانة على مستوى الماء، على أن تظل أفواههم وأنوفهم فقط فوق سطح البحر إلى أن أصل إليهما.

جذبني بقوة إغراء السيوف داخل مسكن الحراس. ترددت لحظة، نصف ميال إلى المجازفة بمحاولة أخذ العدد القليل الذي نحتاجه. أثبت القول المأثور «من يتردد، يضعْ» أنه صحيح في هذه الحالة، ولذا زحفت خلسة في اللحظة التالية نحو باب مسكن الحرس.

ضغطت بلطف على الباب وفتحته قليلًا، لأكتشف عشرات السود ممددين على الحرير في سبات عميق. يوجد رف في الجانب الآخر من الغرفة، يضم سيوف الرجال وأسلحتهم النارية. دفعت الباب بحذر ليتسع قليلًا بحيث أتمكن من الدخول. أصدر مفصل الباب صريرًا حانقًا. تحرك أحد الرجال، وتوقف قلبي. لعنت نفسي لتلك الحماقة التي أضرت بفرصنا للهروب؛ ولكن ما من شيء أمامي الآن إلا خوض المغامرة.

وصلت بقفزة سريعة وصامتة كالنمر إلى جوار الحارس الذي تحرك. حامت يدي حول عنقه في انتظار اللحظة التي يفتح فيها عينيه. بقيت مستعدًّا لفترة بدت لأعصابي المُجهدة كأنها أبدية. استدار الزميل مرة أخرى على جانبه، واستأنف تنفسه المنتظم في سباته العميق.

اخترت طريقي بعناية بين الجنود إلى أن وصلت للرف في الجانب الآخر من الغرفة. وهنا استدرت لألقي نظرة على الرجال النيام. كانوا جميعًا هادئين، يرتفع وينخفض تنفسهم المنتظم في إيقاع هادئ، بدا كأعذب موسيقى سمعتها على الإطلاق.

سحبت بحذر شديد سيفًا طويلًا من على الرف. احتكاك الغمد بمقبض السيف وأنا أسحبه كان يشبه كشط الحديد الزهر بمبرد كبير، فنظرت متصورًا أن أرى الغرفة امتلأت على الفور بالحراس الجزعين والمهاجمين. لكن أحدًا لم يحرك ساكنًا.

سحبت السيف الثاني دون صوت، لكن الثالث صلصل في غمده بضجة مخيفة. كنت أعرف أنها ستوقظ بعض الرجال على الأقل، وكنت مستعدًّا لتجنب هجومهم بانقضاض سريع نحو المدخل؛ لكن لدهشتي الشديدة مرة أخرى، لم يتحرك أي رجل أسود. إما أنهم يغطون في نوم عميق عجيب، وإما أن الضوضاء التي أحدثتها كانت حقًّا أقل بكثير مما تصورتها.

كنت على وشك مغادرة الرف عندما جذبت المسدسات انتباهي. أعرف أنني لا أستطيع أن أحمل أكثر من واحد معي، فقد كنت مثقلًا بأحمالي، بحيث يصعب تحركي بهدوء وسلامة أو سرعة. عندما أخذت

مسدسًا من مشبكه، وقعت عيني للمرة الأولى على نافذة مفتوحة بجانب الرف. آه، هنا وسيلة رائعة للهرب؛ لأنها تفتح مباشرة على الرصيف، تبعد أقل من عشرين قدمًا من حافة المياه.

وعندما هنأت نفسي، سمعت الباب المقابل يُفتح، وهناك وقف ضابط الحرس ينظر نحوي في مواجهتي تمامًا. يبدو أنه فهم الموقف بلمحة، وأدرك خطورته بنفس سرعة إدراكي له؛ فقد انطلق مسدسينا في وقت واحد، وكان صوت الرصاصتين كأنما صوت واحد صدر بضغطنا على أزرار التحكم في إطلاق الأعيرة النارية.

شعرت بريح رصاصته عندما مر أزيزها في أذني، ورأيته ينهار في اللحظة نفسها على الأرض. لا أعرف أين أصابته طلقتي، أو إذا كانت قتلته؛ فما إن بدأ ينهار، حتى عبرت من النافذة خلفي. وفي اللحظة التالية، كانت مياه أوميان فوق رأسي، ونجاهد ثلاثتنا للوصول إلى السفينة الفضائية الصغيرة على بعد مائة ياردة.

كان زودار يحمل الصبي، وأنا مُثقل بالسيوف الطويلة الثلاثة، أما المسدس فقد وقع. لذا، ورغم أنني وزودار نسبح بقوة، فقد بدا أننا نتحرك بوتيرة بطيئة خلال المياه. كنت أسبح تحت السطح تمامًا، لكن زودار كان مضطرًا للارتفاع تكرارًا ليسمح للشاب بالتنفس، ومن الغريب أننا لم نُكتشف قبل فترة طويلة.

وصلنا في واقع الأمر إلى جانب السفينة، وصعدنا جميعًا على متنها قبل أن تكشفنا دورية حراسة السفينة الحربية، التي أيقظتها الطلقات. انطلقت بندقية إنذار من مقدمة إحدى السفن، وتردد هديرها عميقًا

بصوت يصم الأذان تحت قبة أوميان الصخرية.

وعلى الفور استيقظ النائمون، وعددهم بالآلاف. امتلأت أسطح ألف سفينة ضخمة بالرجال المقاتلين، ذلك أن صدور إنذار من أوميان كان شيئًا نادر الحدوث.

انطلقنا قبل أن يزول صوت البندقية الأولى، وخرجنا من البحر في اللحظة التالية، إلى سطح سفينتنا. تمددت بكامل طولي على سطح السفينة وأمامي الروافع وأزرار التحكم. وتمدد زودار والصبي خلفي مباشرة.

همس زودار: «ارتفِع عاليًا. إنهم لا يجرؤن على إطلاق أسلحتهم الثقيلة تجاه القبة – فشظايا القذائف ستسقط مرة أخرى على سفنهم. إذا ارتفعنا بما يكفي، ستحمينا ألواح عارضة السفينة من نيران البنادق».

فعلت كما قال. كان بإمكاننا أن نرى أسفلنا الرجال يقفزون في الماء بالمئات، ويجاهدون للوصول إلى السفن الصغيرة والطائرات التي تتسع لرجل واحد وترسو حول السفن الكبيرة. تحركت السفينة الكبيرة في أعقابنا بسرعة، لكن دون أن ترتفع عن الماء.

صاح زودار: «قليلًا إلى اليمين، فلا توجد أي مؤشرات للبوصلة فوق أوميان حيث كل اتجاه مقرر هو نحو الشمال».

كان الهرج والمرج الذي اندلع أسفلنا يصم الآذان. البنادق تتفجر ، والضباط يطلقون الأوامر، والرجال يصيحون للإشارة إلى الاتجاهات لبعضهم بعضًا من الماء ومن أسطح السفن العديدة، بينما نسمع خلال

ذلك كله خرخرة عدد لا يحصى من المراوح تشق الماء والهواء.

لم أجرؤ على جذب ذراع السرعة إلى أقصاها خشية أن أتجاوز فتحة البئر الذي يمر من قبة أوميان إلى العالم أعلاه، ومع ذلك كنا نتحرك بسرعة مذهلة أشك أن هناك مثلها على الإطلاق فوق البحر الهادئ.

بدأت الطائرات الصغيرة ترتفع في اتجاهنا. صاح زودار: «البئر! البئر! أمامنا مباشرة». رأيت الفتحة، سوداء في القبة المتوهجة لهذا العالم السفلي.

ارتفعت أمامنا مباشرة سفينة فضائية تضم عشرة رجال، في محاولة لقطع طريق هروبنا. كانت السفينة الوحيدة التي وقفت في طريقنا، لكنها بمعدل حركتها ستأتي بيننا وبين البئر في وقت كاف لإحباط خططنا.

ارتفعت السفينة أمامنا بزاوية مقدارها خمسٍ وأربعين درجة تقريبًا، بنية واضحة لتصفيتنا بخطافاتها المثبتة من أعلى، وهي تزأر منخفضة على سطح سفينتنا.

لم يكن أمامنا سوى فرصة أمل واحد بائس، واقتنصتها. ليس مُجديًا محاولة المرور فوقها، فذلك سيسمح لها إجبارنا على الاصطدام بالقبة الصخرية في أعلى، حيث كنا قريبين جدًّا منها الفعل. أما محاولة الغوص أدنى السفينة، فسوف تضعنا بالكامل تحت رحمتها، وهذا تحديدًا ما نريده. تتهددنا على الجانبين مائة سفينة أخرى تسرع في اتجاهنا. وكان البديل محفوفًا بالمخاطر من جميع الجوانب، وفرصة نجاحه ضئيلة.

ارتفعت عندما اقتربنا من السفينة، كأنما سأطير فوقها، فقامت بما

توقعته بالفعل وهو الارتفاع بزاوية أكثر انحدارًا لإجباري على البقاء مرتفعًا. وعندما أصبحنا فوقها تقريبًا، طلبت من رفاقي التشبث جيدًا، وانطلقت بسفينتنا الصغيرة بأقصى سرعتها، مع الانحراف بمقدمتها في نفس اللحظة إلى أن أصبحنا نطير أفقيًّا بسرعة مذهلة نحو عارضة السفينة الكبيرة مباشرة.

ربما أدرك قائدها الآن نواياي، ولكن بعد فوات الأوان. وفي لحظة التصادم، أدرت مقدمة سفينتنا إلى أعلى، فتصادمنا باهتزاز ساحق. حدث ما كنت أتمناه. فالسفينة الكبيرة، التي انحرفت بالفعل بزاوية خطرة، ارتدت تمامًا إلى الخلف على أثر اصطدامها بسفينتي الصغيرة. سقط طاقمها متلويًا وصارخًا في الهواء على مسافة بعيدة لأسفل؛ ثم غاصت مقدمة سفينتهم، التي لا تزال مراوحها تدور بجنون، إلى قاع بحر أوميان.

سحق الاصطدام مقدمة سفينتنا الصلبة، وكان كل جهد نبذله يقترب من وقوعنا من على سطح السفينة. سقطنا ككومة متشبثة بعنف في أقصى السفينة، إذ نجحت أنا وزودار في الإمساك بالدرابزين، وكاد الصبي أن يسقط من متنها، إلا أنني أمسكت بكاحله لحسن الحظ، حيث كان بالفعل خارجها جزئيًّا.

انحرفت سفينتنا بعنف في طيرانها الجنوني، دون توجيه، وزاد ارتفاعها مقتربة من الصخور أعلاه. على أن الأمر لم يستغرق سوى ثانية كي أستعيد الروافع؛ ومع السقف أعلانا بخمسين قدمًا، أدرت مقدمة السفينة مرة أخرى إلى مستوى أفقي ووجهتها ثانية نحو فتحة البئر السوداء.

أدى الاصطدام إلى تأخير تقدمنا، واقتربت منا الآن مئات من سفن الاستطلاع السريعة. أخبرني زودار أن صعود البئر بفضل أشعة الارتداد وحدها سوف يعطي خصومنا فرصة أفضل للحاق بنا؛ إذ ستتعطل مراوحنا، وعند ارتفاعنا سيتفوق علينا الكثير من مطاردينا. إن أسرع سفينة نادرًا ما تكون مجهزة بخزانات طفو كبيرة؛ نظرًا لأن الجزء الأكبر منها يميل إلى الحد من سرعة السفينة.

ولأن العديد من الزوارق أصبحت الآن قريبة جدًّا منا، فمن المحتم أن تلحق بنا بسرعة في البئر، وتأسرنا أو تقتلنا بأمر سريع.

بيد أنني أنظر دائمًا إلى الفوز بالجانب الآخر من المشكلة. إذا لم نتمكن من المرور أعلاها أو أسفلها أو حولها، لماذا إذن لا يوجد سوى بديل واحد، وهو المرور من خلالها؛ لا أستطيع الالتفاف حول حقيقة أن العديد من هذه السفن الأخرى قادرة على الارتفاع أسرع من سفينتنا نظرًا لقدرة طفوها الأكبر، لكني صممت الوصول إلى العالم الخارجي قبلهم أو الموت ميتة اختارها في حالة الفشل.

صرخ زودار خلفي: «اعكس الاتجاه؟ باسم حب جدك الأول، اعكس الاتجاه. نحن في البئر».

أجبته صارخًا: «تشبثا جيدًا! أمسِك الصبي وتشبثا جيدًا- نحن نصعد مباشرة أعلى البئر».

كانت الكلمات تخرج من فمي بشق الأنفس، ونحن ننزلق تحت الفتحة شديدة السواد. وجهت مقدمة السفينة بقوة إلى أعلى، وسحبت ذراع السرعة إلى درجته الأخيرة، وتشبثت بعمود بيد واحدة وبعجلة

القيادة باليد الأخرى، مُعلقًا مثل الموت القاتم ومُودِّعًا روحي إلى خالقها.

سمعت صيحة صغيرة تنم عن المفاجأة أطلقها زودار، تلتها ضحكة متجهمة. ضحك الصبي أيضًا، وقال شيئًا لم أسمعه بسبب صفير الريح نتيجة لسرعتنا المخيفة.

رفعت رأسي ناظرًا إلى أعلى، على أمل اللحاق بومضات النجوم التي يمكن أن توجه مسارنا وتحمل الشيء المندفع الذي يحملنا نحو مركز مدخل البئر بدقة. إذا لمسنا جانب البئر بالسرعة التي نتحرك بها، سنموت جميعًا على الفور دون شك. لم يظهر أي نجم في أعلى، فقط الظلام الغامض المطلق.

ألقيت نظرة إلى أسفل، ورأيت دائرة من الضوء تتناقص بسرعة- فم الفتحة فوق توهج أوميان الفوسفوري. قدت السفينة بناء على ذلك، ساعيًا إلى إبقاء دائرة الضوء أدناي بدقة مطلقة. كانت في أحسن الأحوال بمثابة حبل نحيل يقينا من الدمار، وأعتقد أنني قدت السفينة في تلك الليلة اعتمادًا على الحدس والإيمان الأعمى أكثر منه على المهارة أو العقل.

لم نستغرق وقتًا طويلًا في البئر، وربما أنقذتنا سرعتنا الهائلة، فمن الواضح أننا بدأنا في الاتجاه الصحيح؛ ولأننا خرجنا بسرعة، لم يكن لدينا أي وقت لتغيير مسارنا. ربما يقع أوميان على عمق ميلين تحت القشرة السطحية للمريخ. ومن المؤكد أن سرعتنا اقتربت من مائتي ميل في الساعة، فالسفن الفضائية المريخية سريعة، فلم نستغرق في البئر أكثر من أربعين ثانية.

من المؤكد أننا خرجنا من البئر منذ بضع ثوان، قبل أن أدرك أننا أنجزنا المستحيل. كان الظلام الأسود يلفنا. لا توجد أقمار أو نجوم. لم أشهد أبدًا من قبل شيئًا مماثلًا على المريخ، وارتبكت للحظة، ثم جاءني التفسير. كنا في فصل الصيف، في القطب الجنوبي، والغطاء الجليدي يذوب؛ وكانت تلك الظواهر النيزكية والغيوم، غير المعروفة لدى الجزء الأكبر من برسوم، تحجب ضوء السماء عن هذا الجزء من الكوكب.

يا له من حسن الحظ؛ ولم أستغرق وقتًا طويلًا لإدراك فرصة الهرب التي منحتنا إياها هذه الظروف السعيدة. حافظت على مقدمة السفينة بزاوية ثابتة، وأسرعت بها نحو الستار المبهم الذي علقته الطبيعة فوق هذا العالم المحتضر لإبعادنا من مرمى بصر مطاردينا الأعداء.

غطسنا خلال الضباب البارد الرطب دون إنقاص سرعتنا، وبعد لحظة خرجنا إلى الضوء المجيد للقمرين وملايين النجوم. انخفضت إلى مسار أفقي، واتجهت نحو الشمال. كان خصومنا على بعد نصف ساعة وراءنا دون تصور لاتجاهنا. لقد حققنا معجزة وخرجنا سالمين من آلاف الأخطار– هربنا من أرض الأبناء الأوائل. لم ينجح في ذلك أي سجين عبر جميع العصور في برسوم. وعندما أتذكر الأمر الآن، لا يبدو بهذه الصعوبة.

قلت ذلك لزودار، من فوق كتفي.

فأجاب: «هذا رائع جدًّا؛ ومع ذلك، لم يكن بإمكان أي شخص

إنجاز ذلك سوى جون كارتر».

قفز الفتى واقفًا على قدميه عند سماعه الاسم.

صاح: «جون كارتر! جون كارتر! لماذا، يا رجل، جون كارتر، أمير هيليوم، توفى منذ سنوات. أنا ابنه».

* * *

(١٤)

أعين في الظلام

ابني! لم أستطع تصديق أذني. نهضت ببطء، ونظرت إلى الشاب الوسيم. الآن، وبعد أن نظرت إليه عن كثب، بدأت أعرف لماذا جذبتني ملامح وجهه وشخصيته بقوة. تحمل ملامحه المحددة قدرًا كبيرًا من جمال والدته الذي لا يُضاهى؛ لكن جماله ذكوري، أما عيناه الرماديتان وتعبيرهما فهي مثل عينيَّ.

وقف الصبي أمامي، ونظرته نصفها أمل ونصفها عدم يقين.

قلت: «أخبرني عن والدتك. قل لي جميع ما يمكنك قوله عن السنوات التي سرقني فيها مصيري الصارم من رفقتها العزيزة».

انطلق نحوي صائحًا في سرور، وألقى ذراعيه حول رقبتي. ولدقائق وجيزة وأنا أحتضن ابني، انهمرت الدموع من عيني، وشعرت أنني أختنق كأحمق يجهش بالبكاء- لكني لست نادمًا على ذلك، ولست خجلا. لقد علمتني الحياة الطويلة أن الرجل قد يبدو ضعيفًا عندما يتعلق الأمر بالنساء والأطفال، لكنه قد يتصف بأي شيء إلا الضعف في طريق الحياة الصارم.

قال الصبي: «إن قامتك، وطريقتك، وضراوة مهارتك الرهيبة في المبارزة، هي كما وصفتها والدتي لي ألف مرة– ولكن حتى مع هذه الأدلة، بالكاد ما يمكنني تصديق حقيقة تبدو بعيدة الاحتمال، وإن كنت أرغب كثيرًا أن تكون صحيحة. هل تعرف ما الشيء الذي أقنعني أكثر من كل الأشياء الأخرى؟».

سألته: «ما هو يا بني؟».

«أول كلمات قلتها لي – هي كلمات أمي».

«لسنوات طويلة، يا بني، لا أتذكر لحظة لم يكن فيها رؤية وجه أمك المُضيء أمامي. أخبرني عنها».

«يقول من عرفوها لفترة أطول إنها لم تتغير، لكنها أصبحت أكثر جمالًا. وفقط عندما تُفكر أنني لست على وشك رؤيتها، يصبح وجهها شديد الحزن، أوه، بل شديد الكآبة. وهي دائمة التفكير فيك يا أبي، وهيليوم كلها تحزن معها ولها. شعب جدها يحبها. أحبوك أنت أيضًا، ويقدسون ذكراك كمنقذ برسوم».

«يُقام احتفال كبير على شرفك سنويًا، في ذكرى اليوم الذي شهد سعيك، عبر عالم على وشك الموت، لحل سر تلك البوابة النكراء التي تكمن وراءها قوة جبارة لحياة ملايين لا تُحصى. وخلال الاحتفال، تختلط الدموع بالشكر؛ دموع أسف حقيقي؛ لأن من حقق هذه السعادة ليس معهم ليشاركهم متعة الحياة التي مات ليمنحها لهم. لا يوجد في برسوم كلها اسم أعظم من جون كارتر».

سألته: «وما الاسم الذي سمتك به أمك يا بني؟».

«طلب شعب هيليوم تسميتي باسم أبي، لكن أمي لم توافق؛ لأنكما اخترتما معًا اسمًا لي، ويجب احترام رغبتك قبل أي شيء آخر، وبالتالي سمتني بالاسم الذي رغبت أنت فيه، وهو مزيج من اسمها واسمك- كارثوريس».

كان زودار على عجلة القيادة، خلال حديثي مع ابني، والآن يناديني.

قال: «تنخفض رأس السفينة بشكل سيئ، جون كارتر. لم نلحظ ذلك طوال ارتفاعنا بزاوية ثابتة، لكن الأمر الآن مختلف وأنا أحاول الحفاظ على مسار أفقي. لقد أدت الإصابة في مقدمتها إلى فتح إحدى الخزانات الأمامية للأشعة».

كان ما قاله صحيح؛ وقد وجدت، بعد أن فحصت الأضرار، أن الوضع أخطر مما توقعت. لم يقتصر الأمر على أن الزاوية القسرية التي اضطررنا إليها للحفاظ على مقدمة السفينة في مسار أفقي كانت تعوق سرعتنا كثيرًا؛ بل أيضًا بهذا المعدل من فقد الأشعة الارتدادية من الخزانات الأمامية، لم تكن إلا مسألة ساعة أو أكثر ونطفو بصرامة وبلا حيلة لنا.

لقد خفضنا سرعتنا قليلًا مع بداية الشعور بالأمن. توليت الآن دفة القيادة مرة أخرى، وفتحت المحرك الصغير الممتاز واسعًا لنتمكن من الانطلاق ثانية نحو الشمال في سرعة هائلة. وفي الوقت نفسه، كان كارثوريس وزودار يعملان بتفان، بالأدوات المتاحة، لإصلاح الشق الكبير بالمقدمة في محاولة يائسة لوقف مد الأشعة الهاربة.

كان الظلام لا يزال مخيمًا عندما مررنا عبر الحدود الشمالية للغطاء الجليدي ومنطقة السُّحب. وكان المشهد في أسفل مريخيًّا نموذجيًّا: اللون الأصفر المتموج لقيعان البحار التي ماتت منذ زمن طويل، والتلال المنخفضة المحيطة، ومدن الماضي الميت الصامتة القاتمة تتناثر هنا وهناك؛ وأكوام كبيرة من الأبنية الجبارة التي لا تسكنها سوى ذكريات عتيقة لعِرق كان قويًّا في يوم ما، فضلًا عن قرود برسوم البيضاء الكبيرة.

زادت تدريجيًّا صعوبة الحفاظ على سفينتنا الصغيرة في وضع أفقي. زاد انخفاض المقدمة حتى أصبح من الضروري وقف المحرك لمنع رحلتنا من أن تنتهي غوص سريع نحو الأرض.

ارتفعت الشمس واكتسح نور يوم جديد ظلام الليل، مما منح سفينتنا اندفاعة متقطعة نهائية وانقلب نصفها على جانبه، ثم مال سطحها بزاوية جعلتها تتأرجح في دائرة بطيئة، وشهدت كل لحظة زياد سقوط مقدمتها.

تشبثنا بالدرابزين والأعمدة، وأخيرًا رأينا النهاية تقترب، فنزعت مشابك عتادنا عن الحلقات الجانبية. وفي لحظة تالية أخرى ارتفع سطح السفينة بزاوية مقدارها ٩٠ درجة، وتعلقنا في جلود عتادنا وأقدامنا تتدلى على مسافة تبعد عن الأرض بألف ياردة.

كنت أتأرجح بالقرب من أجهزة التحكم، فمددت يدي إلى الذراع الذي يوجه أشعة الارتداد. استجابت السفينة للمسة الضغط، وبدأنا نغوص بلطف شديد في اتجاه الأرض.

مرت نصف ساعة كاملة قبل أن نصل. ارتفعت مباشرة من الشمال مجموعة تلال شامخة، وقررنا التوجه إليها لأنها تتيح فرصة أكبر للاختباء

من مطاردينا الذين كنا على ثقة أنهم قد يسيرون في هذا الاتجاه.

وبعد ساعة وجدنا وديانًا دائرية قديمة تمر بالتلال، وسط النباتات المزهرة الجميلة التي تكثر في الأماكن القاحلة الجافة في برسوم. كما وجدنا أعدادًا ضخمة من الشجيرات المنتجة للبن - هذا النبات الغريب الذي يقوم بدرجة كبيرة مقام الطعام والشراب لجماعات الرجال الخُضر المتوحشة. لقد كانت نعمة بحق، فقد كنا جميعًا على وشك الموت جوعًا.

استلقينا للنوم تحت مجموعة من تلك الأشجار التي توفر غطاء مثاليًّا يقينا طائرات الاستطلاع الجوي؛ أول مرة أنام منذ ساعات عديدة. هذه هي بداية يومي الخامس على برسوم منذ أن وجدت نفسي أنتقل فجأة من كوخي على نهر هدسون إلى دور، الوادي الجميل والبشع. وخلال كل هذا الوقت لم أنم سوى مرتين، رغم أن مرة منهما كانت على مدار الساعة داخل مخزن الثيرن.

أيقظني شخص يمسك بيدي ويغطيني بالقبلات، في منتصف بعد ظهر اليوم. وعندما فتحت عيني، وجدتني أنظر إلى وجه ثوفيا الجميل.

صاحت في سعادة غامرة: «يا أميري! يا أميري! لقد بكيتك باعتبارك مُت. لقد أكرمني أجدادي؛ لم أعش عبثًا».

أيقظ صوت الفتاة زودار وكارثوريس. حدق الصبي في المرأة متفاجئًا. لكنها لم تدرك وجود آخرين غيري؛ إذ كادت أن تلقي ذراعيها حول رقبتي وتغمرني بالمداعبات، إن لم أبعدها عني بلطف ولكن بحزم.

قلت بهدوء: «تعالي، تعالي، ثوفيا؛ أنتِ مُجهدة من المخاطر والمصاعب التي مررت خلالها. لقد نسيتِ نفسكِ، كما نسيتِ أنني زوج أميرة هيليوم».

أجابت: «لم أنس شيئًا يا أميري. أنت لم تخاطبني بأي كلمة حب، كما لم أتوقع أبدًا أن تقوم بذلك؛ ولكن ما من شيء يمكن أن يحول دون محبتي لك. لن آخذ مكان ديجاه ثوريس. طموحي الأكبر أن أخدمك إلى الأبد، يا أميري، كأَمَةٍ لك. لا يمكنني أن أطلب نعمة أكبر، ولا يمكنني أن أتوق لشرف أكبر، أو آمل في سعادة أكبر».

أنا لست رجلًا مولعًا بالنساء، كما ذكرت قلت من قبل. ويجب أن أعترف أنني نادرًا ما شعرت بعدم الراحة والحرج كما شعرت في تلك اللحظة. وعلى الرغم من أنني على دراية تامة بالعادات المريخية التي تسمح بالإماء لرجال المريخ، الذين يُعد دائمًا سمو شرفهم وشهامتهم حماية وافية لكل امرأة في بيته، فإنني أختار الرجال لخدمتي.

قلت: «ثوفيا، ستأتين معي عندما أعود إلى هيليوم، ولكن ليس كعبدة وإنما كشخص كريم على قدم المساواة. وهناك ستجدين الكثير من الشباب الوسيم من النبلاء القادرين على مواجهة إيسوس نفسها للفوز بابتسامة منك، وسرعان ما سنزوجك إلى أفضلهم. عليك نسيان إعجابك الأحمق الناتج عن امتنانك، وصورته لك براءتك بالخطأ أنه حب. أنا أحب صداقتك أفضل، ثوفيا».

أجابت ببساطة، وإن كان بمسحة حزن في صوتها: «أنت سيدي؛ والأمر كما تقول».

سألتها: «كيف جئت هنا، ثوفيا؟ وأين تارس تاركاس؟».

أجابت بأسف: «أخشى أن الثاركي العظيم قد مات. كان مقاتلًا قويًا، لكن حشدًا من المحاربين الخُضر من جماعة أخرى غير جماعته قهرته. المرة الأخيرة التي رأيته فيها كانوا يحملونه، مجروحًا وينزف، إلى المدينة المهجورة التي ارتحلوا منها لمهاجمتنا».

سألتها: «إذن أنت لست متأكدة من موته؟ وأين تلك المدينة التي تتحدثين عنها؟».

«إنها خارج نطاق هذه التلال مباشرة. إن السفينة التي تركتها بنُبلك لتخلي لنا مكانًا لنجد مهربًا، قد تحدت مهارتنا القليلة في الملاحة، ونتيجة لذلك انجرفنا على غير هدى لمدة يومين. قررنا بعد ذلك التخلي عنها ومحاولة شق طريقنا سيرًا على الأقدام إلى أقرب مجرى مائي. عبرنا أمس هذه التلال، ووصلنا إلى مدينة ميتة وراءها. سرنا في شوارعها متجهين نحو وسطها، عندما شاهدنا عند طريق متقاطع مجموعة من المحاربين الخُضر يقتربون.

كان تارس تاركاس متقدمًا، فشاهدوه، لكنهم لم يروني. انطلق الثاركي إلى الخلف بجانبي، وأجبرني على الدخول إلى مدخل مجاور، وطلب مني أن أبقى مختبئة حتى أتمكن من الهرب، وأشق طريقي إلى هيليوم إذا أمكنني.

قال: ’ليس لدي مهرب الآن، فهؤلاء هم الوارهونيون الجنوبيون. وعندما يرون معادني، فهذا موتي‘.

ثم خرج لملاقاتهم. آه يا أميري، يا له من قتال! تكاثروا حوله لمدة ساعة، إلى أن شكل القتلى الوارهونيين تلة حيث كان واقفًا. لكنهم تغلبوا عليه في النهاية، فقد أخذت المجموعة التي تقف في الخلف تدفع المجموعة الأمامية نحوه إلى أن تعذر وجود مساحة يهز فيها سيفه العظيم؛ ثم تعثر وسقط، فانقضوا فوقه كموجة ضخمة. عندما حملوه بعيدًا نحو قلب المدينة، كان ميتًا، على ما أعتقد، فلم أره يتحرك».

قلت: «قبل أن نذهب أبعد، يجب أن نتأكد. لا يمكن أن أترك تارس تاركاس على قيد الحياة بين الوارهونيين. سوف أدخل المدينة الليلة وأتأكد».

قال كارثوريس: «وسوف أذهب معك».

قال زودار: «وأنا».

قلت: «لن يذهب أي منكما. هذا عمل يتطلب تسللًا واستراتيجية، وليس قوة. قد ينجح رجل واحد بمفرده، بينما قد يتسبب أكثر من رجل في كارثة. سأذهب بمفردي. وإذا احتجت إلى مساعدتكما، سأعود إليكما».

لم يعجبهما ذلك، لكنهما كانا جنديين جيدين، واتفقنا على ضرورة أن أتولى القيادة. كانت الشمس منخفضة فعلًا، وبالتالي لم يتطلب الأمر أن أنتظر طويلًا قبل أن يبتلعنا ظلام برسوم المفاجئ.

أعطيت قبل ذهابي تعليمات أخيرة لكارثوريس وزودار في حالة عدم عودتي، وودعتهما، ثم انطلقت في هرولة سريعة نحو المدينة.

عندما خرجت من التلال، كان القمر الأقرب يحلق في رحلتة الجامحة خلال السماوات، وأشعته المتألقة تُحول الروعة البربرية للمدينة القديمة إلى فضة مصقولة. لقد بُنيت المدينة على سفوح الجبال المتموجة بلطف، التي انحدرت في الماضي البعيد القاتم لتلتقي بالبحر. وبسبب هذه الحقيقة، لم أجد صعوبة في دخول الشوارع دون أن يلحظني أحد.

يندر أن تشغل الجماعات الخضراء التي تستخدم هذه المدن المهجورة أكثر من بضعة مساحات مربعة حول الساحة المركزية؛ ونظرًا لأنهم يتحركون دائمًا ذهابًا وإيابًا عبر قيعان البحر الميت التي تواجه المدن، فمن اليسير نسبيًّا الدخول من جانب التل.

وصلت إلى شوارع المدينة، وبقيت قريبًا من الظلال الكثيفة للجدران. كنت أتوقف للحظة عند التقاطعات للتأكد من عدم وجود أي شخص على مرمى البصر قبل أن أنطلق مسرعًا إلى ظلال الجانب الآخر. وهكذا نجحت رحلتي دون انكشاف إلى المنطقة المجاورة للساحة. وعندما اقتربت من الأحياء المجاورة للجزء المأهول بالسكان من المدينة، أدركت أنني اقتربت من أحياء المحاربين؛ لأنني سمعت صياح وشخير حيوانات الثوات والزيتيدار المتجمعة في الساحات الفارغة التي شكلتها المباني المحيطة بكل ساحة.

تدفقت داخلي رعشة سرور عندما سمعت هذه الأصوات القديمة المألوفة، التي تُميز حياة المريخيين الخُضر؛ مثلما يشعر المرء عند عودته إلى الوطن بعد غياب طويل. لقد توددت للمرة الأولى إلى ديجاه ثوريس

التي لا تُضاهى وسط هذه الأصوات في القاعات الرخامية القديمة لمدينة كوراد الميتة.

عندما وقفت في الظلال، عند الزاوية البعيدة من أول مسكن يضم أفرادًا من الجماعة، رأيت محاربين يخرجون من مبانٍ عديدة، ويذهبون جميعًا في نفس الاتجاه، نحو مبنى ضخم في وسط الساحة. أقنعتني معرفتي بعادات المريخيين الخُضر أن هذا المبنى هو مقر الزعيم الرئيس أو يضم القاعة العامة التي يجتمع فيها الجيداك مع الجِد والزعماء الأقل. وفي الحالتين، من الواضح أن شيئًا ما كان يجري على قدم وساق، وربما يتعلق بالقبض مؤخرًا على تارس تاركاس.

شعرت بضرورة الوصول إلى هذا المبنى، وهو ما يتطلب اجتياز طول أحد المقرات بالكامل وعبور طريق عريض وجزء من الساحة. عرفت من أصوات الحيوانات التي تأتي من كل فناء حولي، أن المباني المحيطة تضم أناسًا كثيرين- ربما عدة مجتمعات من جماعة وارهون الجنوبية الكبيرة.

كان المرور دون انكشاف بين جميع هؤلاء يُعد في حد ذاته مهمة صعبة. ولكن إذا كنت لأجد الثاركي العظيم وأنقذه، فيجب أن أتوقع عقبات هائلة قبل تحقيق النجاح. لقد دخلت المدينة من الجنوب، وأقف الآن على ناصية الشارع الذي مررت من خلاله، وهو أول شارع متقاطع جنوب الساحة. تبدو المباني في هذه الناحية الجنوبية غير مأهولة؛ إذ لا توجد أي أضواء، ولذا قررت الوصول إلى الفناء الداخلي عن طريق إحداها.

لم يحدث أي شيء يعرقل تقدمي خلال الكومة المهجورة التي اخترتها، ووصلت إلى الفناء الداخلي القريب لجدران المباني الشرقية الخلفية دون انكشاف. رأيت داخل الفناء قطيعًا كبيرًا من حيوانات الثوات والزيتيدار، يتحركون في اضطراب وهم يلتهمون النباتات الصفراء التي تشبه الطحالب وتغطي عمليًّا كامل المنطقة غير المزروعة في المريخ. هب نسيم من الشمال الغربي، وبالتالي هناك خطر ضئيل أن تشم الحيوانات رائحتي. فإذا حدث، سيرتفع أنينهم وشخيرهم على نحو يجذب انتباه المحاربين داخل المباني.

بالقرب من الجدار الشرقي، وتحت شرفات الطوابق الثانية المتدلية، تسللت متواريًا في الظلال الكثيفة على طول الفناء، إلى أن وصلت إلى مباني الجهة الشمالية. كانت ثلاثة طوابق منها مضاءة، ولكن كل شيء كان مظلمًا أعلى الطابق الثالث.

لم تكن فكرة المرور من خلال الغرف المضاءة مطروحة، بطبيعة الحال؛ نظرًا لاحتشاد رجال ونساء المريخ الخُضر. وكان مساري الوحيد من خلال الطوابق العليا، التي يتطلب الوصول إليها تسلق سطح الجدار. تمكنت بسهولة من الوصول إلى شرفة الطابق الثاني؛ فقد أتاحت قفزة رشيقة أن تقبض يداي على الدرابزين الحجري أعلاه. وفي اللحظة التالية سحبت نفسي إلى الشرفة.

وهنا رأيت، من خلال النوافذ المفتوحة، القوم الخُضر جاثمين على حرير وفراء النوم. وعندما اقتربت للاستماع إلى كلماتهم، دخل محارب الغرفة من خارج القاعة.

صاح: «هيا، تان جاما، علينا أن نأخذ الثاركي أمام كاب كادجا. عليك إحضار شخص آخر معك».

نهض المحارب، وأومأ إلى زميل يجلس القرفصاء، واستدار الثلاثة، وغادروا الشقة.

إذا تمكنت من متابعتهم، قد تأتي الفرصة لتحرير تارس تاركاس على الفور؛ أو يمكنني على الأقل أن أعرف مكان سجنه.

يوجد على يميني باب يقود من الشرفة إلى المبنى، ويقع في نهاية قاعة غير مضيئة؛ وانطلاقًا من حماس اللحظة، خطوت إلى الداخل. كانت القاعة واسعة وتقود مباشرة إلى الجزء الأمامي من المبنى، وتوجد على الجانبين مداخل العديد من الشقق المصطفة.

دخلت إلى الممر ورأيت المحاربين الثلاثة في طرفه الآخر – الذين رأيتهم للتو يغادرون الشقة. أبعدهم انعطافهم إلى اليمين عن مرمى بصري ثانية. سارعت على طول الممر للحاق بهم. كنت أسير بتهور، لكني شعرت أن القدر كان كريمًا معي بأن ألقى فرصة كهذه في متناول يدي، ولا يمكن أن أسمح لها بالإفلات مني الآن.

وجدت في أقصى نهاية الممر سلمًا حلزونيًّا يؤدي إلى الطوابق العليا والدنيا. يبدو أن الثلاثة غادروا الطابق من هذا الطريق. أكدت لي معرفتي بهذه المباني القديمة وأساليب الوارهون، أنهم توجهوا إلى أسفل وليس إلى أعلى.

لقد كنت مرة سجينًا لدى جحافل وارهون الشمالية، ولا تزال ذكرى

القبو تحت الأرض الذي وضعوني فيه حية في ذاكرتي. ولذا شعرت أن تارس تاركاس يوجد بالتأكيد في حُفر مظلمة تحت مبنى قريب، وأنني يجب أن أعثر في هذا الاتجاه على مسار المحاربين الثلاثة المؤدي إلى زنزانته.

لم أكن مخطئًا. ففي الجزء السفلي من الطريق، أو بالأحرى عند الهبوط إلى الطابق الأدنى، رأيت البئر يهبط نحو الحفر السفلية، وكشفت ومضات ضوء شعلة عن الثلاثة الذين أتبعهم.

توجهوا إلى الحُفر تحت المبنى، وتابعت وميض الشعلة على مسافة آمنة خلفهم. أدى الطريق إلى متاهة من الممرات المتعرجة، لا ينيرها سوى الضوء المرتعش الذي يحملوه. سرنا ربما مائة ياردة، ثم استدارت المجموعة فجأة نحو مدخل على يمينهم. أسرعت بقدر ما أجرؤ خلال الظلام إلى أن وصلت إلى النقطة التي غادروا عندها الممر. هناك، ومن خلال باب مفتوح، رأيتهم يزيلون السلاسل التي تربط الثاركي العظيم تارس تاركاس بالجدار.

حشروه بخشونة بينهم وخرجوا من الغرفة على الفور بسرعة شديدة، بحيث إنني كنت أقرب إلى أن يدركوا وجودي. لكنني تمكنت من الإسراع على طول الممر في الاتجاه الذي سرت فيه خلال مطاردتي لهم، وابتعدت مسافة كافية لأكون خارج شعاع الضوء الضئيل وهم يخرجون من الزنزانة.

افترضت بطبيعة الحال أنهم سيعودون مع تارس تاركاس من نفس الطريق الذي جاءوا منه، وهو ما كان سيحملهم بعيدًا عني؛ لكنهم، مع

الأسف، انعطفوا مباشرة في اتجاهي وهم يغادرون الغرفة. لم يكن أمامي إلا أن أسرع قبلهم وأبتعد عن ضوء شعلتهم. لم أجرؤ على محاولة الوقوف في الظلام في أي من الممرات العديدة المتقاطعة، فلم أكن أعرف شيئًا عن الاتجاه الذي سيتخذونه، ومن المرجح أنه قد لا يأخذني إلى ذات الممر الذي يختارون دخوله.

كان إحساس التحرك بسرعة خلال هذه الممرات مظلمة لا يبعث على الاطمئنان إطلاقًا. ولم أكن أعرف في أي لحظة يمكن أن أهوى إلى إحدى تلك الحفر الرهيبة، أو أقابل بعض المخلوقات الشنيعة كالغيلان التي تسكن هذه العوالم السفلية تحت مدن المريخ المحتضر. تسرب شعاع باهت من شعلة الرجال خلفي- ما يكفي للسماح بتتبع اتجاه الممرات المتعرجة أمامي مباشرة، وبالتالي يبعدني عن الاصطدام بالجدران في المنعطفات.

وصلت الآن إلى مكان يتشعب من نقطة مشتركة بين خمسة ممرات. سارعت على طول إحداها لمسافة قصيرة، ثم اختفى فجأة ضوء الشعلة الخافت ورائي. توقفت لأستمع إلى أصوات المجموعة خلفي، لكن الصمت كان مطلقًا، كصمت القبور.

أدركت بسرعة أن المحاربين اتخذوا أحد الممرات الأخرى مع سجينهم، ولذا أسرعت عائدًا مرة أخرى ويخامرني شعورٌ براحة كبيرة لاتخاذ موقع أفضل وأكثر أمانًا وراءهم. على أن طريق العودة كان أبطأ كثيرًا، فالظلام الآن مطلق كالصمت.

كان من الضروري أن أتلمس كل خطوة على الطريق ويدي على

الجدار الجانبي، حتى لا أتجاوز نقطة تشعب الطرق الخمسة. وبعد ما بدا كأنه الأبدية، وصلت إلى المكان، وتعرفت عليه بتلمس طريقي عبر مداخل عدة ممرات إلى أن أحصيت خمسة منهم. مع ذلك، لم تظهر في أي منهم أضعف علامة ضوء.

أصغيت باهتمام، لكن أقدام الرجال الخُضر العارية لم تبعث أي أصداء إرشادية. أعتقد أنني تبينت الآن قعقعة الأسلحة الجانبية على مسافة بعيدة في الممر الأوسط. سارعت بحثًا عن الضوء، وكنت أتوقف أحيانًا لأستمع إلى تكرار الصوت؛ لكنني سرعان ما اضطررت إلى الاعتراف أنني أسير كالأعمى، إذ كانت المكافأة الوحيدة على جهودي هي الظلام والصمت.

عدت مرة أخرى إلى مفترق الطرق، ولدهشتي وجدتني عند مدخل ثلاثة ممرات مختلفة، ربما اجتزت أيًّا منها خلال اندفاعي المتعجل وراء الفكرة الخاطئة التي كنت أتبعها. يا له من مأزق كبير بالفعل! إذا عدت إلى نقطة التقاء الممرات الخمسة، يمكنني انتظار عودة المحاربين مع تارس تاركاس. معرفتي بعاداتهم جعلتني أعتقد أنهم اصطحبوه إلى القاعة العامة لإصدار الحكم عليه. لم يكن لدي أدنى شك في أنهم سيحافظون على محارب شجاع كالثاركي العظيم للمشاركة في الرياضة النادرة التي يمكنه تقديمها في المباريات الكبرى.

ولكن إن لم أجد طريقي إلى تلك النقطة، حيث الفرص ممتازة، فسوف أتجول لأيام خلال هذا السواد الفظيع إلى أن أموت بعد أن يهزمني العطش والجوع، أو .... ما هذا!

سمعت أقدامًا خافتة خلفي، فألقيت نظرة خاطفة سريعة جمدت الدم في عروقي لما رأيته. لم يكن الخوف من الخطر الحالي، بمثل ما كانت الذكريات المروعة التي استدعاها المشهد عن تلك الفترة التي اقتربت فيها من حافة الجنون وأنا بجوار جثة الرجل الذي قتلته في زنازين الوارهونيين، وظهرت أعين متوهجة من التجاويف المظلمة وسحبت الشيء الذي كان رجلًا من براثني وسمعتهم يشقون طريقهم وهم يحملونه إلى احتفالهم الرهيب.

أنظر الآن، في هذه الحفر السوداء لدى الوارهون الآخرين، إلى تلك العيون النارية نفسها، متوهجة في وجهي خلال الظلام الرهيب، دون أن تكشف عن أي علامة على الوحش وراءها. أعتقد أن أكثر سمة مخيفة لهذه المخلوقات هي صمتهم الرهيب، وحقيقة أن أحدًا لا يراهم أبدًا – لا شيء سوى تلك الأعين المؤذية، تلمع دون أن ترف في الظلام الفارغ خلفها.

أحكمت تشبثي بسيفي الطويل في يدي، وتراجعت ببطء على طول الممر بعيدًا عن الشيء الذي شاهدني. لكنني كلما تراجعت، تتقدم العيون؛ لم يكن هناك أي صوت، ولا حتى صوت التنفس، ما عدا صوت جرجرة الأرجل أحيانًا الناجمة عن سحب ميت من أطرافه، والتي كانت أول ما جذب انتباهي.

واصلت تحركي دون أن أتمكن من الفرار من مطاردي الشرير. وفجأة سمعت ضوضاء جرجرة الأقدام على يميني. نظرت، فرأيت زوجًا آخر من الأعين، من الواضح أنه يقترب من ممر التقاطع. عندما بدأت أتراجع

ببطء ثانية، سمعت الضوضاء تتكرر ورائي، وقبل أن استدير سمعتها مرة أخرى على يساري.

أحاطت بي كل تلك الأشياء، وحاصرتني عند تقاطع ممرين. انقطع التراجع في كل الاتجاهات، إلا إذا اخترت مهاجمة أحد الوحوش. حتى ذلك الحين لم يكن لدي شك أن الآخرين سوف يلقون أنفسهم فوق ظهري. لم أستطع حتى تخمين حجم أو طبيعة هذه المخلوقات الغريبة. خمنت أنها ذات أبعاد ضخمة؛ لأن الأعين كانت على مستوى عينيَّ.

لماذا يؤدي الظلام إلى تضخيم الأخطار التي نواجهها؟ في النهار، كنت لأهاجم البانث الكبير نفسه عند الضرورة، لكنني ترددت أمام زوج الأعين وأنا محاط بظلام هذه الحفر الصامتة.

سرعان ما أدركت أن المسألة ستفلت تمامًا من يدي؛ فالأعين على يميني تتحرك ببطء مقتربة مني، كما كان حال الأعين على يساري وورائي وأمامي. كانوا يقتربون مني تدريجيًّا- ولا يزال هذا الصمت الخفي فظيعًا!

أخذت الأعين تقترب تدريجيًّا أكثر وأكثر، لفترة بدت عدة ساعات، حتى شعرت أنني سأجن رعبًا. كنت أنعطف باستمرار في هذا الطريق لمنع أي اندفاع مفاجئ من الخلف، إلى أن تهالكت. لم أكن قادرًا على التحمل أكثر، فقبضت بقوة على سيفي الطويل واستدرت فجأة مهاجمًا أحد مُعذبيَّ.

عندما كنت فوقه تقريبًا، تراجع الشيء أمامي؛ لكن صوتًا من خلفي جعلني أستدير في الوقت المناسب، لأرى ثلاثة أزواج من الأعين تندفع

نحوي من الخلف. التفتُ صارخًا في غضب لمواجهة الوحوش الجبناء، وعندما تقدمت تراجعوا كما فعل زميلهم. اكتشفت بنظرة أخرى أن الأعين الأولى تتسلل نحوي مرة أخرى، هاجمتها ثانية ووجدتها تتراجع أمامي وسمعت الاندفاع المكتوم للثلاثة خلفي.

واصلنا على هذا النحو، والأعين تقترب تدريجيًّا حتى ظننت أنني أكاد أن أُجن من ضغط هذه المحنة الرهيب. من الواضح أنهم في انتظار القفز على ظهري، ومن الواضح أيضًا أن الوقت لن يطول قبل أن ينجحوا في ذلك؛ إذ لم أكن قادرًا على تحمل تكرار هذا الهجوم والهجوم المضاد إلى أجل غير مسمى. وفي الواقع، كنت أشعر أنني بدأت أضعف من هذا الإجهاد الذهني والبدني.

ألقيت في تلك اللحظة لمحة أخرى من طرف عيني على زوج من الأعين في ظهري يستعد للاندفاع المفاجئ ناحيتي، فاستدرت لمواجهة الهجمة. اندفع ثلاثة بسرعة من الاتجاه الآخر، لكني صممت على متابعة زوج الأعين لأسوي حسابي على الأقل مع أحد الوحوش، وبالتالي استريح من ضغط مواجهة الهجمات من الاتجاهين.

لم أسمع أي صوت في الممر إلا صوت تنفسي، لكني أعرف أن تلك المخلوقات الخارقة الثلاثة على وشك أن تنقض علي. لم تعُد الأعين التي تواجهني تتراجع بسرعة الآن، وبإمكاني أن أصل إليه بسيفي. رفعت سيفي لأضربه ضربة تحررني، وعندئذ شعرت بجسم ثقيل فوق ظهري. شيء بارد ورطب وغروي، انقض على حلقي. تعثرت، وسقطتُ.

(١٥)

الفرار والمطاردة

لم أفقد الوعي أكثر من بضع ثوان، ومع ذلك كنت أعرف أنني فقدت الوعي؛ فالشيء التالي الذي أدركته أن شعاعًا متزايدًا ينير الممر حولي، والأعين اختفت.

لم أُصب بأي أذى باستثناء كدمة طفيفة على جبهتي، حيث اصطدمت بالحجر عندما سقطت واهنًا.

وقفت للتأكد من مصدر الضوء. جاء من شعلة في يد واحد من مجموعة من أربعة محاربين خُضر، يسرعون عبر الممر في اتجاهي. لم يروني بعد، ولذا لم أضع أي وقت وتسللت إلى أول ممر وجدته في التقاطع. لكنني هذه المرة لم أتقدم بعيدًا عن الممر الرئيس كما حدث في المرة السابقة التي أسفرت عن فقداني تارس تاركاس وحراسه.

أسرعت المجموعة تجاه فتحة الممر حيث كنت منحنيًا على الجدار. تنفست الصعداء بعد مرورهم. لم يكتشفوني، والأفضل من ذلك كله أن هذه المجموعة هي نفسها التي تبعتها إلى الحُفر. وكانت تضم تارس تاركاس وحراسه الثلاثة.

سرت خلفهم، وسرعان ما وصلنا إلى الزنزانة التي كان الثاركي العظيم مقيدًا فيها بالسلاسل. ظل اثنان من المحاربين في الخارج، بينما دخل الرجل الذي يحمل المفاتيح مع الثاركي ليشد وثاقه الحديدي مرة أخرى. أخذ الاثنان في الخارج يتجولان ببطء في اتجاه المسار اللولبي الذي يقود إلى الطوابق العليا، وفي لحظة اختفيا لإلقاء نظرة إلى منعطف الممر.

كانت الشعلة معلقة في تجويف بجانب الباب، بحيث تنير أشعتها الممر والزنزانة في وقت واحد. ما إن اختفى المحاربان، حتى اقتربت من مدخل الزنزانة، وقد وضعت بالفعل خطة محكمة.

على الرغم من أنني لم أكن سعيدًا بما قررت القيام به، فما من بديل إذا أردنا أنا وتارس تاركاس أن نعود معًا إلى مخيمي الصغير في التلال.

اقتربت من باب زنزانة تارس تاركاس، محتفظًا بمكاني قرب الجدار، حيث وقفت وسيفي الطويل فوق رأسي. أمسكته بكلتا يدي لأتمكن من إسقاطه بضربة واحدة سريعة على جمجمة السجان عند خروجه.

أكره أن أحكي بإسهاب ما حدث بعد أن سمعت خطوات الرجل وهو يقترب من المدخل. يكفي القول إنه خلال دقيقة أو دقيقتين، كان تارس تاركاس يرتدي معدن زعيم وارهوني، ويسرع أسفل الممر نحو الطريق اللولبي، حاملًا شعلة الوارهوني لتضيء طريقه. وخلفه بعشر خطوات يتبعه جون كارتر، أمير هيليوم.

أما رفيقا الرجل الذي يرقد حاليًا بجوار باب زنزانة تارس تاركاس،

فقد بدأ الآن يصعدا السلم وشاهدا الثاركي.

صاح أحدهما: «لماذا تأخرت، تان جاما؟».

أجاب تارس تاركاس: «واجهت مشكلة مع القفل. واكتشف الآن أنني تركت سيفي القصير في الزنزانة. اذهبا، وسوف ألحق بكما».

أجاب الحارس الذي تكلم من قبل: «كما تشاء، تان جاما. سوف نراك في الطابق الأعلى مباشرة».

أجاب تارس تاركاس: «نعم»، واستدار كأنما يعود بخطواته إلى الزنزانة، لكنه انتظر فقط حتى اختفى الاثنان في الطابق العلوي. ثم انضممت له وأطفأنا الشعلة، وتسللنا معًا نحو المنحدر اللولبي الذي يقود إلى الطوابق العليا من المبنى.

في الطابق الأول وجدنا أن الرواق ينتهي عند منتصف الطريق، مما يستلزم عبور الغرفة الخلفية المملوءة بالقوم الخُضر قبل أن نصل إلى الفناء الداخلي، ولذا لم يكن أمامنا سوى شيء واحد وهو الوصول إلى الطابق الثاني وعبور الرواق الذي سبق أن اجتزته على طول المبنى.

صعدنا بحذر. كان يمكننا سماع أصوات المحادثة القادمة من الغرفة العلوية، لكن القاعة لا تزال غير مضيئة، ولم يكن هناك أحد على مرمى البصر ونحن نصل إلى الجزء العلوي من السلم. شققنا طريقنا معًا بحذر عبر القاعة الطويلة، ووصلنا إلى شرفة تطل على الفناء، دون انكشاف.

تقع على يميننا نافذة الغرفة التي سبق أن رأيت فيها تان جاما والمحاربين الآخرين عندما خرجوا متجهين نحو زنزانة تارس تاركاس

في وقت سابق من مساء اليوم. لقد عاد رفاقه، وسمعنا الآن جزءًا من حديثهما.

سأل أحدهما: «ماذا يؤخر تان جاما؟».

قال آخر: «من المؤكد أنه يستغرق كل هذا الوقت لإحضار سيفه القصير من زنزانة الثاركي».

سألت امرأة: «سيفه القصير؟، ماذا تعني؟»

أوضح المتحدث الأول: «ترك تان جاما سيفه القصير في زنزانة الثاركي، وتركنا عند السلم وعاد، لإحضاره».

قالت المرأة: «تان جاما ليس معه سيفه القصير هذه الليلة. فقد تحطم في معركة اليوم مع الثاركي، وأعطاه لي تان جاما لإصلاحه. انظر، ها هو»؛ وجذبت سيف تان جاما القصير من تحت الحرير والفراء المخصص لنومها.

انطلق المحاربان على الفور.

صاح أحدهم: «هناك شيء خاطئ».

قال الآخر: «هذا ما تصورته عندما تركنا تان جاما عند السلم. فقد تصورت حينذاك أن صوته بدا غريبًا».

«هيا! فلنسرع إلى الحُفر».

لم ننتظر لنسمع المزيد. حوّلت شرائط عتادي إلى حزام واحد طويل بعد ربطها، وأنزلت تارس تاركاس إلى الفناء، وبعد لحظة نزلت إلى جانبه.

بالكاد ما قلنا عدة كلمات منذ أن أجهزت على تان جاما عند باب الزنزانة، ورأيت على ضوء الشعلة تعبير الذهول المطلق على وجه الثاركي العظيم.

وهنا قال: «كان يجب أن أتعلم ألا أتعجب من أي شيء يقوم به جون كارتر». هذا كل ما قاله. لم يكن بحاجة إلى أن يخبرني أنه يعرب عن تقديره للصداقة التي دفعتني للمخاطرة بحياتي لإنقاذه، كما لم يكن بحاجة إلى القول إنه سعيد لرؤيتي.

لقد كان هذا المحارب الأخضر الشرس أول من حيّاني ذلك اليوم الذي شهد وصولي للمرة الأولى إلى كوكب المريخ، والآن مضت عشرون سنة. لقد استقبلني برمح مصوب وكراهية قاسية في قلبه وهو يميل على جانب حيوانه الثوات القوي وأنا أقف بجانب حاضنة جماعته عند قاع البحر الميت وراء كوراد. والآن لا أجد بين سكان العالمين صديقًا أفضل من تارس تاركاس، جيداك ثارك.

عندما وصلنا إلى الفناء، وقفنا لحظة في الظلال تحت الشرفة لمناقشة خططنا.

قلت: « تضم مجموعتنا الآن خمسة، تارس تاركاس: ثوفيا، زودار، كارثوريس، ونحن. سنحتاج إلى خمسة حيوانات ثوات لتحملنا».

صاح: «كارثوريس! ابنك؟».

«نعم. لقد وجدته في سجن شادور على بحر أوميان، في أرض الأبناء الأوائل».

«لا أعرف أي من هذه الأماكن، جون كارتر، هل هي في برسوم؟».

«على برسوم وتحتها يا صديقي؛ انتظر حتى ينجح هروبنا، وسوف تستمع إلى أغرب قصة سمعها على الإطلاق أي برسومي في العالم الخارجي. علينا الآن أن نسرق الثوات ونبتعد أيضًا نحو الشمال قبل أن يكتشف هؤلاء الزملاء كيف خدعناهم».

وصلنا بأمان إلى البوابات الكبيرة في أقصى الفناء، والتي كان من الضروري أن نأخذ الثوات من خلالها إلى الشارع وراءها. يصعب التعامل مع خمسة من هذه الوحوش الكبيرة العنيفة، التي بطبيعتها جامحة وشرسة كأسيادها الذين لا يُخضعونها إلا بالقسوة والقوة الغاشمة.

شمت الثوات رائحتنا غير المألوفة، عند اقترابنا، وتحلقت حولنا بشخير غاضب. ارتفعت أعناقهم الطويلة الضخمة، فاغرة أفواهها عاليًا فوق رؤوسنا. إنهم في أحسن الأحوال وحوش مخيفة المظهر، ولكن عند استثارتهم يصبحون تمامًا بمثل خطورة مظهرهم. يرتفع الثوات أعلى من كتفي بحوالي عشرة أقدام. بشرته ملساء وخالية من الشعر، ويوجد على ظهره وجانبيه ما يشبه اللوح الاردوازي داكن اللون، ويظلل لونه سيقانه الثماني وصولًا إلى اللون الأصفر الزاهي في أقدامه الضخمة، المبطنة، دون أظافر. أما بطنه فلونها أبيض ناصع؛ وذيله العريض المُسطح، وهو عند طرفه أكبر منه عند منبته، يُكمل صورة هذه البهيمة الشرسة لدى المريخيين الخُضر- حصان حرب مناسب لهؤلاء الناس المحبون للحرب.

ونظرًا لأن الثوات لا يسترشد إلا بوسيلة التخاطر، لم تكن هناك

حاجة لكبح جماحها أو لجامها؛ وبالتالي أصبح هدفنا الآن هو العثور على اثنين منهما يطيعان أوامرنا غير المنطوقة. عندما هاجمتنا الحيوانات، نجحنا في السيطرة عليها بما يكفي لمنع أي هجوم مشترك علينا، لكن ضجيج أنينهم كان يمكن أن يجلب محاربين إلى الفناء لاستطلاع الأمر إذا استمر لفترة أطول.

نجحت أخيرًا في الوصول إلى جانب أحد الوحوش الكبيرة. وقبل أن يعرف ما سأفعله، كنت أجلس بحزم منفرج الساقين فوق ظهره اللامع. وبعد لحظة أخرى، أمسك تارس تاركاس بحيوان آخر وامتطاه، وقدنا معًا ثلاثة أو أربعة آخرين نحو البوابات الكبيرة.

سار تارس تاركاس أمامي، وانحنى ليصل إلى المزلاج، وفتح الحواجز، بينما أمسكت أنا بالثوات الطليقة حتى لا تعود مرة أخرى إلى القطيع. سرنا معًا إلى الطريق بالحيوانات المسروقة، دون انتظار لإغلاق البوابات، وأسرعنا نحو الحدود الجنوبية للمدينة.

لم يكن هروبنا حتى الآن أقل من الرائع، ولم يخذلنا حظنا؛ فقد مررنا بالمناطق الخارجية للمدينة الميتة، ووصلنا إلى مخيمنا دون سماع أي صوت ضعيف حتى لمطاردة.

وهنا الصفير الخافت، والإشارة المتفق عليها مسبقًا، أخبرت مجموعتنا بعودتي، واستقبلنا الثلاثة بكل مظاهر الابتهاج المتحمس.

لم يضع سوى القليل من الوقت في سرد مغامرتنا. تبادل تارس تاركاس وكارثوريس التحيات الكريمة غير الرسمية في برسوم، ويمكنني القول بحدسي إن الثاركي أحب ابني وأن كارثوريس بادله المحبة.

قمت بتقديم زودار والجيداك الأخضر رسميًّا لبعضهما. أجلسنا ثوفيا فوق أقل ثوات عِندًا، وامتطى زودار وكارثوريس اثنين آخرين، وانطلقنا بخطى سريعة نحو الشرق. اتخذنا عند أقصى حدود المدينة طريقًا دائريًّا نحو الشمال، وأسرعنا دون صوت تحت أشعة القمرين المجيدة عبر قاع البحر الميت، بعيدًا عن الوارهون والأبناء الأوائل، لكننا لم نكن نعرف المخاطر والمغامرات الجديدة التي قد تواجهنا.

توقفنا في ظهر اليوم التالي لنستريح وتسترح بهائمنا، التي أخذت تتحرك ببطء وهي تتناول النباتات الصفراء شبيه الطحالب، وشكلت طعامها وشرابها خلال المسيرة. تطوعت ثوفيا أن تتولى المراقبة، بينما تنام باقي المجموعة لمدة ساعة.

يبدو أنني كنت على وشك أن أغلق عيني، عندما شعرت بيدها على كتفي وسمعت صوتها الناعم يحذرني من خطر جديد.

قالت همسًا: «انهض يا أميري. هناك من أتوا خلفنا، ويدل مظهرهم أنهم مجموعة كبيرة من المطاردين».

وقفت الفتاة تشير إلى الاتجاه الذي جئنا منه، وعندما نظرت تصورت أيضًا أنني أرى خطًّا داكنًا رفيعًا يلوح في الأفق البعيد. أيقظت الآخرين. كان بإمكان تارس تاركاس أن يرى أبعد، حيث كانت قامته العملاقة تعلونا جميعًا.

وقال: «إنها مجموعة كبيرة من الرجال الراكبين، ويتحركون بسرعة عالية».

لم يكن هناك وقت لنضيعه. انطلقنا إلى حيواناتنا المكبلة، وأطلقنا سراحها وأمتطيناها، ثم أدرنا وجوهنا مرة أخرى نحو الشمال، وأخذت رحلتنا مرة أخرى أعلى سرعة لأبطأ وحوشنا.

ركضنا عبر البرية الصفراء، لما تبقى من اليوم والليلة التالية كلها، ومطاردونا خلفنا ويزداد اقترابهم منا. كانوا يقللون المسافة بيننا وبينهم ببطء، ولكن بيقين. وفقط قبل حلول الظلام، أصبحوا قريبين بما يكفي لأن نميز بوضوح أنهم من المريخيين الخُضر، وفي أثناء الليل الطويل سمعنا بوضوح قعقعة تجهيزاتهم خلفنا.

كشف ارتفاع الشمس، في اليوم الثاني من رحلتنا، عن وجود جحافل المطاردين على بُعد أقل من نصف ميل خلفنا. ولما رأونا، ارتفعت من بين صفوفهم صرخات النصر الوحشية.

توجد أمامنا بعدة أميال مجموعة من التلال، على شاطئ البحر الميت الذي عبرناه. إذا أمكننا فقط أن نصل إلى هذه التلال، ستتعزز إلى حد كبير فرصنا في الهرب. لكن ركوبة ثوفيا، على الرغم من أنها تحمل أخف عبء، بدأت تتضح عليها علامات الإنهاك. كنت أركب بالقرب منها عندما ترنح فجأة حيوانها ومال ناحيتي. رأيت أنه سوف يسقط، لكني حملتُ الفتاة من فوق ظهره قبل أن يسقط، وأرجحتها إلى مكان خلفي فوق حيواني، حيث تشبثت بذراعيها حولي.

سرعان ما أثبت هذا العبء المزدوج أنه ثقيل جدًّا على حيواني المرهق أصلًا. وهكذا تضاءلت سرعتنا بشدة، ذلك أن الآخرين لا يمكن أن يسيروا أسرع من سرعة أبطأنا. ما من أحد في هذه المجموعة الصغيرة

يمكن أن يتخلى عن آخر؛ رغم أننا من بلدان مختلفة، وألوان مختلفة، وأعراق مختلفة، وأديان مختلفة، بل وأحدنا من عالم مختلف.

كنا نقترب من التلال، لكن الوارهون كانوا مسرعين إلى حد أننا فقدنا كل أمل في الوصول إلى التلال في الوقت المناسب. كنت وثوفيا في الخلف، ذلك أن حيواننا كان يتخلف أكثر وأكثر. وفجأة شعرت بالشفاه الحارة للفتاة تضغط قبلة على كتفي، وغمغمت قائلة: «من أجلك يا أميري»، ثم تركت ذراعيها ينزلقان من حول خصري، وسقطت.

استدرت وعرفت أنها انزلقت عمدًا على الأرض في نفس مسار الشياطين القساة الذين يطاردوننا، متصورة أنها بتخفيف الحِمل على دابتي يمكن للدابة أن تحملني إلى الأمان في التلال. يا لها من طفلة مسكينة! كان يجب أن تعرف جون كارتر أفضل من ذلك.

أدرت اتجاه حيواني الثوات، وقمت بحثِّه أملًا في الوصول إليها وحملها مرة أخرى في رحلتنا اليائسة. ألقى كارثوريس نظرة وراءه في نفس الوقت تقريبًا وأدرك الموقف؛ إذ في الوقت الذي وصلت فيه إلى جانب ثوفيا كان هو هناك أيضًا، وقفز من دابته وألقى ثوفيا على ظهرها، وأدار رأس الحيوان نحو التلال بعد أن غز الوحش بحدة في ردفه بسطح سيفه. ثم حاول أن يفعل الشيء نفسه معي.

امتلأت فخرًا بشجاعة الصبي وفروسيته في التضحية بالنفس، ولم يهمني أن تصرفه انتزع فرصة هروبنا الأخيرة الواهية. اقترب الآن الوارهون كثيرًا. اكتشف تارس تاركاس وزودار غيابنا، فأسرعا لدعمنا. كان كل شيء يشير إلى نهاية رائعة لرحلتي الثانية إلى برسوم. كرهت

أن أذهب دون أن أرى أميرتي الإلهية، وأحملها بين ذراعي مرة أخرى؛ ولكن إذا لم يكن مُقدرًا لنا ذلك، فسوف أقوم بأقصى ما أستطيع. وفي هذه اللحظات القليلة الأخيرة المالحة قبل أن أنتقل إلى ذلك المستقبل المجهول، يمكنني على الأقل تقدير نفسي في مهنتي المختارة بما سأتركه لوارهوني الجنوب من غذاء لأحاديث عشرين جيلًا قادمًا.

ولما كان كارثوريس مترجلًا، انزلقت من الجزء الخلفي من دابتي، وأخذت مكاني بجواره لمواجهة هجوم الشياطين الذين ينقضون علينا صارخين. وبعد لحظة، كان تاركس تاركاس وزودار يرتبان نفسيهما من الجانبين، مع إطلاق حيواناتهما الثوات لنكون جميعًا على قدم المساواة.

كان الوارهون ربما على بُعد مائة ياردة منا عندما دوى انفجار قوي من فوقنا ووراء ظهورنا، وفي نفس اللحظة تقريبًا انفجرت قذيفة في صفوفهم المتقدمة. وعلى الفور، ساد ارتباك. سقط مئات المحاربين على الأرض. واندفعت الثوات الطليقة بلا ركاب هنا وهناك بين الموتى والمحتضرين. سُحق المحاربون المترجلون تحت الأقدام في التدافع الجماعي الذي حدث في أعقاب ذلك. انتهت جميع مظاهر النظام في صفوف الرجال الخُضر، وعندما نظروا عاليًا فوق رؤوسنا لتتبع منشأ هذا الهجوم غير المتوقع، تحول الاضطراب إلى التراجع، وتحول التراجع إلى حالة من الذعر الجامح. وفي لحظة أخرى كانوا يبتعدون بجنون، بمثل ما كانوا يهجمونه علينا من قبل.

استدرنا للنظر في الاتجاه الذي صدر منه الانفجار الأول، وهناك شاهدنا، عند قمم التلال القريبة، سفينة فضائية حربية كبيرة تتمايل بمهابة

في الهواء. انطلقت ثانية بندقية مقدمتها حتى ونحن ننظر، وانفجرت قذيفة أخرى بين الوارهون الفارين.

مع اقتراب السفينة، لم أتمكن من إخفاء صرخة ابتهاج جامحة، إذ رأيت شعار هيليوم فوق مقدمتها.

* * *

(١٦)

في الأسر

وقفت مع كارثوريس وزودار وتارس تاركاس نحدق في السفينة الرائعة التي تعني لنا جميعًا الكثير؛ رأينا سفينة ثانية ثم ثالثة أعلى قمة التلال، تتهادى برشاقة بعد السفينة الأولى.

انطلقت الآن عشرات من طائرات الراكب الواحد الاستطلاعية من الأسطح العليا للسفينة الأقرب، وبعد دقيقة كان عدد أكبر يسرع في غطس طويل وسريع إلى الأرض حولنا.

وفي لحظة أخرى، أصبحنا محاطين ببحارة مسلحين وتقدم ضابط لمخاطبتنا، عندما سقطت عيناه على كارثوريس. انطلق إلى الأمام وعلى وجهه علامات السعادة والاندهاش، ووضع يديه على كتف الصبي، وناداه بالاسم.

هتف: «كارثوريس، أميري، كاور! كاور! إن هور فاستوس يُحيي ابن ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، وزوجها جون كارتر. أين كنت يا أميري؟ لقد انغمست هيليوم كلها في الحزن. لقد حلت مصائب رهيبة ببلد جدك الأكبر منذ ذلك اليوم الكارثي الذي شهد مغادرتك من بيننا».

صاح كارثوريس: «لا تحزن، هور فاستوس الطيب، فأنا لن أعود بمفردي فقط لأسعد قلب أمي وقلوب شعبي الحبيب، لكن معي أيضًا أكثر من تحبه برسوم كلها، أعظم محاربيها ومنقذها، جون كارتر، أمير هيليوم!».

استدار هور فستوس في الاتجاه الذي يشير إليه كارثوريس، ولما رآني كان كأنما انهار من هول المفاجأة.

صاح متعجبًا: «جون كارتر!»، ثم لاحت في عينيه نظرة مضطربة مفاجئة. قال: «يا أميري، أين ...»، ثم توقف؛ لكنني كنت أعرف السؤال الذي لم تجرؤ شفتاه على النطق به. فالزميل الوفي لن يكون من سيجبرني على الاعتراف بالحقيقة المروعة أنني عدت من حضن إيس، نهر الغموض، عائدًا من شاطئ بحر كوراس المفقود، ووادي دور.

«آه، يا أميري»، واصل حديثه كأنما لم تقطع أي فكرة تحيته، «يكفي أنك عدت، وسيف هور فاستوس له عظيم الشرف أن يكون تحت أقدامك». مع هذه الكلمات، فك الزميل النبيل غمد سيفه ووضعه أمامي على الأرض.

من يعرف عادات وطبائع المريخيين الحُمر، سوف يُقدر عمق المعنى الذي نقله هذا التصرف البسيط لي ولنا جميعًا- نحن من شهدناه. عبارته كانت تعادل القول: «سيفي، جسدي، حياتي، روحي، كلها لك تفعل بها ما تشاء. وإلى أن أموت وبعد الموت، أعتبرك أنت فقط سلطة كل فِعل من أفعالي. سواء كنت أنت على صواب أو خطأ، فإن كلمتك ستكون بالنسبة لي الحقيقة الوحيدة. وكل من يرفع يده ضدك، سيرد عليه سيفي».

إنه يمين الولاء الذي يقسم به الرجال أحيانًا أمام الجيداك الذي سمو شخصيته وشهامة أفعاله تلهم اتباعه بحب حماسي. لم أعرف أبدًا مثل هذه الإشادة الرفيعة لبشري أقل من جيداك. لم يكن هناك سوى رد واحد ممكن. انحنيت، ورفعت السيف من الأرض، ورفعت المقبض إلى شفتي، ثم خطوت إلى هور فاستوس، وشبكت السلاح عليه بيدي.

«هور فاستوس»، قلت وأنا أضع يدي على كتفه، «أنت أعلم بما في قلبك. ليس لدي شك أنني سأحتاج سيفك، وأرجو أن تقبل من جون كارتر وبشرفه المقدس تأكيده أنه لن يدعوك أبدًا إلى استخدام هذا السيف إلا دفاعًا عن الحق والعدل والإنصاف».

أجاب: «أعرف هذا، يا أميري، قبل أن ألقي بسيفي الحبيب تحت أقدامك».

خلال حديثنا، كانت هناك طائرات أخرى تحلق جيئة وذهابًا بين الأرض والسفينة الحربية. وانطلقت الآن من السفينة الحربية طائرة كبيرة، تسع ربما عشرات الأشخاص، وهبطت بالقرب منا. وما إن لمست الأرض، حتى انطلق ضابط من سطحها متقدمًا إلى هور فاستوس لتحيته.

وقال: «يود كانتوس كان أن تتوجه هذه المجموعة التي أنقذناها إلى سطح سفينة زافاريان على الفور».

مع اقترابنا من السفينة الصغيرة، نظرت نحو أفراد مجموعتي، ولاحظت للمرة الأولى أن ثوفيا لم تكن بينها. أوضح سؤالي حقيقة أن أحدًا لم يرها منذ أن نغز كارثوريس حيوانها الثوات بحيث أخذ يركض بجنون نحو التلال، أملًا في إبعادها عن طريق الأذى.

أرسل هور فاستوس على الفور عشرات من طائرات الاستطلاع الجوي في العديد من الاتجاهات للبحث عنها. لا يمكن أن تبتعد كثيرًا منذ أن رأيناها آخر مرة. صعدنا إلى سطح المركبة التي أُرسلت لإحضارنا، وخلال لحظة كنا على سطح زافاريان.

كان أول رجل يتقدم لتحيتي هو كانتوس كان نفسه. لقد ارتقى صديقي القديم إلى أعلى مكان في سلاح بحرية هيليوم، لكنه لا يزال رفيقي الشجاع نفسه الذي شاركني الحرمان في زنزانة وارهون، والفظائع الرهيبة في المباريات الكبرى، ثم لاحقًا في مخاطر بحثنا عن ديجاه ثوريس داخل مدينة زودانجا المعادية.

هذا إضافة إلى أنني كنت جوالًا مجهولًا على كوكب غريب، وكان هو بادوار(١٩) بسيطًا في سلاح البحرية بهيليوم. واليوم، يقود جميع أهوال هيليوم الكبيرة في الفضاء، وأنا كنت أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم.

لم يسألني أين كنت. مثله مثل هور فاستوس، كان يُخمن أيضًا الحقيقة، ولن يكون هو من ينتزعها مني. كان على يقين أنه سيعرف في وقت ما، وإلى أن يحين هذا الوقت، كان يشعر بالارتياح لمجرد معرفته أنني معه مرة أخرى. استقبل كارثوريس وتاركس تاركاس بسعادة كبيرة، ولم يسأل أيًّا منهما أين كان. ونادرًا ما كان يبعد يديه عن الصبي.

قال لي: «أنت لا تعرف، جون كارتر، مدى حب هيليوم لابنك.

---

(١٩) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar – المترجمة.

كأنما كل الحب الكبير الذي حملناه لوالده النبيل ووالدته المسكينة قد تركز فيه. وعندما عرفنا أنه مفقود، بكى ١٠ مليون شخص».

همست: «ماذا تعني، كانتوس كان، بقولك 'والدته المسكينة'؟»، إذ بدت الكلمات محملة بمعنى شرير لم أستطع فهمه.

أخذني جانبًا.

وقال: «منذ سنة، أي منذ أن اختفى كارثوريس، حزنت ديجاه ثوريس وندبت ابنها المفقود. لقد صُدمت منذ سنوات طوال، عندما لم تعُد من مصنع الجو، لكن الصدمة خفت إلى حد ما بواجبات الأمومة، عندما حطم ابنك قشرته البيضاء في تلك الليلة نفسها.

عرفت هيليوم كلها أن معاناتها رهيبة، ألم تكن هيليوم كلها تعاني معها فقدان أميرها! ومع فقدان الصبي، لم يبق شيء. وبعد أن عادت بعثة وراء الأخرى بنفس القصة اليائسة حول عدم معرفة أي دليل عن مكان وجوده، زاد ذبول أميرتنا المحبوبة أكثر فأكثر، إلى أن أصبح كل من يراها يشعر أنها مسألة أيام قبل أن تذهب لتنضم إلى أحبائها داخل حدود وادي دور.

وكملاذ أخير، تولى والدها مورس كاجاك وجدها تاردوس مورس قيادة حملتين قويتين، وأبحرا منذ شهر لاستكشاف كل شبر من الأرض في نصف الكرة الشمالي من برسوم. لم تصلنا منهما أي كلمة لمدة أسبوعين، وانتشرت شائعات أنهما واجها كارثة مروعة، وأن الجميع لقي حتفه.

في حوالي ذلك الوقت، جدد زات أراس إلحاحه بطلب يدها للزواج. كان دائم الإلحاح عليها بعد اختفائك. هي تكرهه وتخشاه،

ولكن مع فقدان والدها وجدها، أصبح زات أراس قويًّا جدًّا؛ لأنه لا يزال جِد[٢٠] زودانجا، الموقع الذي تاردوس مور عينه فيه، لعلك تتذكر، بعد أن رفضت أنت هذا الشرف.

كانت لديه مقابلة سرية معها منذ ستة أيام. لا يعرف أحد ماذا حدث، لكن ديجاه ثوريس اختفت في اليوم التالي ومعها عشرات من حراس منزلها وحرسها الشخصي، بمن فيهم سولا، المرأة الخضراء ابنة تارس تاركاس، كما تذكر. لم يتركوا أي كلمة تشير إلى نواياهم، لكن هذه دائمًا هي عادة من يذهبون إلى الحج الطوعي الذي لم يعُد منه أحد. لا يمكننا التفكير في أي شيء آخر سوى أن ديجاه ثوريس سعت إلى أن الحضن الجليدي لنهر إيس، وأن خدمها المخلصين اختاروا مرافقتها.

كان زات أراس في هيليوم عندما اختفت. وأمر هذا الأسطول بالبحث عنها، ونحن نبحث عنها منذ ذلك الحين، ولم نعثر لها على أثر، وأخشى أن يكون سعينا دون جدوى».

بينما كنا نتحدث، عادت طائرات هور فاستوس إلى زافاريان. لم يعثر أحد على أثر لثوفيا. كنت مكتئبًا من خبر اختفاء ديجاه ثوريس، والآن أضيف عبء آخر من المخاوف بشأن مصير هذه الفتاة التي أعتقد أنها ابنة من بيت أحد نبلاء برسوم، وكانت نيتي أن أبذل كل جهدي لإعادتها إلى أهلها.

كنت على وشك أن أطلب من كانتوس كان إرسال بعثة أخرى للبحث عنها، عندما وصلت طائرة من سفن الأسطول الرئيسة إلى

(٢٠) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed – المترجمة.

زافاريان وبها ضابط يحمل رسالة من زات أراس إلى كانتوس كان.

قرأ صديقي الرسالة ثم استدار ناحيتي.

«يأمرني زات أراس أن أحضر 'السجناء' للمثول أمامه. لا يوجد شيء آخر يمكن القيام به. إنه قائد أعلى في هيليوم، على أن تقاليد الفروسية والذوق السليم تقتضي أن يحضر هو إلى هنا ويقدم التحية لمنقذ برسوم مع مرتبة الشرف التي يستحقها».

قلت مبتسمًا: «تعرف جيدًا يا صديقي أن زات أراس لديه سبب وجيه لكراهيتي. لا شيء سوف يسعده أكثر من إذلالي ثم قتلي. والآن لديه عذر ممتاز، فلنذهب ونرى إن كانت لديه الشجاعة للاستفادة من هذه الفرصة».

استدعيت كارثوريس وتارس تاركاس وزودار، ودخلنا الطائرة الصغيرة مع كانتوس كان والضابط الذي أرسله زات أراس، وخلال دقيقة كنا نخطو إلى ظهر السفينة الرئيسة التي تحمل زات أراس.

لم تظهر على وجه جِد زودانجا، عندما اقتربنا منه، أي علامة على الترحيب أو الامتنان؛ ولم يوجه حتى إلى كارثوريس كلمة ودية. كان موقفه باردًا ومتعجرفًا ومتصلبًا.

«كاور، زات أراس»، قلت مُرحبًا، لكنه لم يرد.

سأل كانتوس كان: «لماذا لم تنزع سلاح هؤلاء الأسرى؟».

أجاب الضابط: «إنهم ليسوا أسرى، زات أراس».

«اثنان منهم من أنبل أسرة في هيليوم. وتارس تاركاس، جيداك

ثارك، هو أفضل حليف أحبه تاردوس مورس. والآخر هو صديق ورفيق أمير هيليوم، وهذا كاف بالنسبة لي».

رد زات أراس بحسم: «لكنه غير كاف بالنسبة لي. يجب أن أسمع أكثر من مجرد أسماء من ذهبوا إلى الحج. أين كنت، جون كارتر؟».

أجبته: «لقد عدت توًّا من وادي دور وأرض الأبناء الأوائل، زات أراس».

صاح بسرور واضح: «آه! أنت لا تنكر إذن؟ أنت عائد من حضن نهر إيس؟».

«لقد عدت من أرض أمل زائف، من وادي التعذيب والموت؛ وتمكنت مع رفاقي من الفرار من براثن شياطين الكذب البشعة. وأعود إلى برسوم التي أنقذتها من موت مؤلم لأنقذها مرة أخرى، ولكن هذه المرة من أكثر أشكال الموت رعبًا».

صاح زات أراس: «توقف، أيها الكافر! لا تأمل في إنقاذ نفسك يا جبان باختلاق أكاذيب مروعة .....» لكنه لم يواصل. لا أحد يصف جون كارتر بأنه 'جبان' و'كاذب' بهذه البساطة، وكان يجب أن يعرف زات أراس ذلك. وقبل أن تتمكن يد من وقفي، كنت بجانبه وقبضت على رقبته بيد واحدة.

«سواء أتيت من السماء أو الجحيم، زات أراس، سوف تجدني جون كارتر نفسه دائمًا؛ لم يَدْعُني أحد من قبل بمثل هذه الصفات وعاش- دون أن يعتذر». وبعد ذلك، بدأت أميله للخلف بركبتي وأشدد

قبضتي حول رقبته.

صاح زات أراس: «أمسكوه!»، وانطلق أكثر من عشرة ضباط نحوه لمساعدته.

اقترب مني كانتوس كان، وقال هامسًا:

«كف عن ذلك أرجوك. سوف يشملنا هذا جميعًا، فلا يمكنني مشاهدة هؤلاء الرجال يضعون أيديهم عليك دون أن أساعدك. سوف ينضم لي ضباطي ورجالي وسيحدث تمرد، وقد يؤدي إلى الثورة. من أجل تاردوس مورس وهيليوم، كف عن ذلك».

ونتيجة لكلماته، أطلقت سراح زات أراس وأدرت ظهري له، وسرت نحو درابزين السفينة.

قلت: «هيا، كانتوس كان، أمير هيليوم سيعود إلى زافاريان».

لم يتدخل أحد. وقف زات أراس ولونه تحول إلى الأبيض، ويرتجف وسط ضباطه. نظر إليه البعض بازدراء وتوجهوا نحوي؛ بينما رجل، كان في خدمة تاردوس مورس لفترة طويلة وحظي بثقته، تحدث معي بنبرة منخفضة عندما مررت به.

قال: «يمكنك أن تحسب معدني بين مقاتليك، جون كارتر».

شكرته، وواصلت طريقي. تحركنا في صمت، وبعد فترة وجيزة وصلنا ثانية إلى ظهر السفينة زافاريان. وبعد خمس عشرة دقيقة تلقينا أوامر من السفينة الرئيسة بالمضي قدمًا نحو هيليوم.

كانت رحلتنا هادئة. كنت وكارثوريس نتصور أكثر الأفكار تشاؤمًا.

واستغرق كانتوس كان متجهمًا في تأمل مصيبة أخرى قد تقع على هيليوم إن حاول زات أراس اتباع السابقة قديمة العهد التي تخصص موتًا رهيبًا للهاربين من وادي دور. وتارس تاركاس كان حزينًا لفقدان ابنته. أما زودار، فقد كان وحده هو الهارب والخارج عن القانون، والخالي من الهموم، فلا يمكن أن يكون في هيليوم أسوأ حالًا من أي مكان آخر.

وقال: «دعونا نأمل أننا على الأقل نخرج بدم أحمر جيد على سيوفنا». كانت رغبة بسيطة، والأرجح أنها تُرضيه.

فكرت أن أستشف تقسيم فصائل ضباط زافاريان قبل وصولنا إلى هيليوم. هناك من يتجمعون حولي أنا وكارثوريس كلما حانت فرصة، بينما هناك عدد متساو تقريبًا يبتعد عنا. يعاملوننا فقط بتهذيب شديد، لكنهم يلتزمون بمعتقداتهم الخرافية في تعاليم دور وإيس وكوراس. لا يمكنني لومهم، فأنا أعرف مدى قوة العقيدة، مهما كان سخفها، على أشخاص مثلهم.

بعودتنا من دور ارتكبنا تدنيسًا للمقدسات؛ وبسرد مغامراتنا هناك وذكر الحقائق كما توجد، انتهكنا دين آبائهم. نحن كفرة- هراطقة كاذبون. وحتى من لا يزالون يتشبثون بنا انطلاقًا من الحب الشخصي والولاء، أعتقد أنهم يفعلون ذلك في مواجهة حقيقة أنهم يتشككون في قلوبهم من صدقنا- فمن الصعب قبول دين جديد بدلًا من دين قديم، بغض النظر عن مدى إغراء الوعود الجديدة؛ وإنما رفض القديم كنسيج من الأكاذيب دون منحهم أي شيء بدلًا منه، هو في الواقع أصعب شيء يمكن أن تطلبه من أي شخص.

لم يرغب كانتوس كان في التحدث عن تجاربنا بين الثيرن والأبناء الأوائل.

وقال: «يكفي أنني عرضت حياتي للخطر هنا وفي الآخرة بمساندتكم- لا تطلبوا مني أن أضيف المزيد إلى آثامي بالاستماع إلى ما تعلمت دائمًا أنه هرطقة صارخة».

كنت أعرف أنه عاجلًا أو أجلًا سيحين وقت يضطر فيه الأصدقاء والأعداء الإعلان عن أنفسهم علنًا. عندما نصل إلى هيليوم، يجب محاسبتنا، وإذا لم يكن تاردوس مورس قد عاد أخشى أن عداوة زات أراس ستزداد ثقلًا ضدنا؛ لأنه يمثل حكومة هيليوم. واتخاذ موقف ضده يماثل الخيانة. ومما لا شك فيه أن غالبية القوات ستحذو حذو ضباطهم، وأعرف أن الكثير من الرجال في أعلى وأقوى المناصب بالقوات البرية والجوية سوف تنحاز إلى جون كارتر في مواجهة هذا الإله، رجلًا كان أو شيطانًا.

ومن ناحية أخرى، ما من شك في أن غالبية السكان ستطلب الحكم علينا بعقوبة تدنيس المقدسات. تبدو التوقعات مظلمة من أي زاوية أنظر منها، لكن ذهني يمزقه الكرب من التفكير في ديجاه ثوريس التي أدرك الآن أنني لم أعط محنة هيليوم الرهيبة سوى اهتمام ضئيل في ذلك الوقت.

كان يلازمني دائمًا، ليلًا ونهارًا، كابوس فظيع من مشاهد مخيفة أعرف أن أميرتي قد تعانيها الآن- رجال النبات المرعبين، والقرود البيضاء الشرسة. وفي بعض الأحيان كنت أغطي وجهي بيدي في محاولة عقيمة لإبعاد هذا التفكير المخيف من ذهني.

وصلنا في صدر النهار إلى أعلى البرج القرمزي الذي يبلغ ارتفاعه ميلًا ويُعد علامة على هيليوم الكبرى، مُميزا إياها عن شقيقتها التوأم. وخلال هبوطنا في دوائر كبرى على الأرصفة البحرية، رأيت حشودًا ضخمة تتدافع في الشوارع تحتنا. لقد عرفت هيليوم باقترابنا عن طريق رسالة جوية لاسلكية.

من على سطح السفينة الفضائية زافاريان، نقلونا نحن الأربعة- كارثوريس، تاركس تاركاس، زودار، وأنا- إلى طائرة أصغر تطير بنا إلى مقرنا داخل معبد الجزاء، حيث تتحقق في هذا المكان العدالة المريخية لفاعل الخير وفاعل الشر. هنا يُقلد البطل وسامًا. وهنا يُدان المجرم. أخذونا إلى المعبد من منصة الهبوط على السطح، حتى لا نمر بين الناس على الإطلاق، كما هي العادة. رأيت من قبل السجناء السياسيين، أو المتجولين رفيعي المقام العائدين، يسيرون في موكب من بوابة الجيداك إلى معبد الجزاء عبر شارع الأجداد الواسع خلال حشود كثيفة من المواطنين الذين يهتفون إما ازدراء وإما فرحًا.

كنت أعرف أن زات أراس لا يجرؤ على الوثوق في الناس القريبة منا؛ لأنه يخشى أن حبهم لكارثوريس ولي قد يتفجر في مظاهرة من شأنها أن تمحو الرعب الخرافي من الجريمة الموجهة لنا. لم أستطع إلا تخمين ما كان يخطط له، لكن الشر كان واضحًا من اختياره لمن صاحبونا على الطائرة المتجهة إلى معبد الجزاء، فقط خدمه الأكثر ثقة.

أودعونا في غرفة عند الجانب الجنوبي من المعبد تطل على شارع الأجداد، حيث يمكننا أن نرى كامل الطريق إلى بوابة الجيداك، مسافة

خمسة أميال. كان الناس في ساحة المعبد، وفي الشوارع لمسافة ميل كامل، يقفون متزاحمين إلى أقرب موقع يمكنهم الوصول إليه. كانوا منظمين جدًّا- لا يسخرون أو يستحسنون، وعندما رأونا في النافذة أعلاهم، دفن العديد منهم وجوههم في أذرعتهم وبكوا.

في وقت متأخر بعد ظهر اليوم، وصل رسول من زات أراس ليبلغنا أننا سنُحاكم أمام هيئة غير متحيزة من النبلاء في القاعة الكبرى للمعبد في الزود(*) الأول من اليوم التالي، أو حاولي الساعة ٠٨:٤٠ صباحًا بتوقيت كوكب الأرض.

❋ ❋ ❋

(*) أينما استخدم كابتن كارتر القياسات المريخية للزمن، والمسافة، والوزن، وما شابهها، كنت أترجمها إلى ما يعادلها تقريبًا بالقيم المناظرة في كوكب الأرض قدر الإمكان. تضم مذكراته العديد من الجداول المريخية، وكمية كبيرة من البيانات العلمية، ولكن نظرًا لأن الجمعية الفلكية الدولية منشغلة حاليًا في التصنيف والتقصي والتحقق من هذا الصندوق الضخم من المعلومات الرائعة والقيمة، فقد شعرت بأنه لن يضيف شيئًا لمصلحة قصة كابتن كارتر أو لمجموع المعرفة البشرية الحفاظ على التزام صارم بهذه المخطوطة الأصلية في هذه المسائل، حيث إنه قد يُسهل الخلط لدى القارئ ويبعده عن أهمية التاريخ. مع ذلك، وللمهتمين، سأشرح أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على مدة ٢٤ ساعة و٣٧ دقيقة المدة (بتوقيت كوكب الأرض). وهذا يقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية، حيث يبدأ اليوم في حوالي الساعة السادسة صباحًا بتوقيت كوكب الأرض. ينقسم الزود إلى خمسين فترة أقصر، يتكون كل منها بدوره من ٢٠٠ فترة زمنية قصيرة تعادل تقريبًا الثانية في كوكب الأرض. الجدول البرسومي للزمن الذي أعرضه هنا ليس سوى جزء من الجدول الكامل الوارد في مذكرات كابتن كارتر.

الجدول

٢٠٠ تال .... ١ شات

٥٠ زات .... ١ زود

١٠ زود .... ١ دورة للمريخ على محوره.

(١٧)

عقوبة الإعدام

قبل لحظات قليلة من الوقت المحدد في صباح اليوم التالي، ظهر حارس قوي من ضباط زات أراس أمام مسكننا؛ لقيادتنا إلى قاعة المعبد الكبرى.

دخلنا الغرفة اثنين اثنين، وسرنا عبر ممر واسع يُسمى ممر الأمل، إلى أن وصلنا إلى المنصة في وسط القاعة. سار أمامنا وخلفنا حراس مسلحون، بينما اصطفت ثلاثة صفوف من جنود زودانجا على جانبي الممر من المدخل المؤدي إلى المنصة.

عندما وصلنا إلى موقعنا المرتفع، رأيت قضاتنا؛ ٣١ قاضيًا كما هو العرف في برسوم، ومن المفترض أنهم مختارون من جانب الكثير من رجال الطبقة النبيلة، إذ لا يتعرض النبلاء للمحاكمة. واندهشت أني حين رأيت لم أشهد أي وجه ودود واحد بينهم. كانوا جميعهم عمليًّا من الزودانجيين، وكنت أنا من ألحق بزودانجا الهزيمة على يد جماعات الخُضر وأخضعتها لاحقًا بهيليوم. ما من عدالة هنا لجون كارتر، أو ابنه، أو للثاركي الكبير الذي قد قاد رجال القبائل الهمجية الذين اجتاحوا

الطرق الواسعة في زودانجا، ونهبوا وحرقوا وقتلوا.

اكتظ المدرج الدائري الواسع حولنا بكامل طاقته. كانت جميع الفئات- جميع الإعمار ومن الجنسين. بدخولنا القاعة، توقفت همهمة المحادثات إلى أن وقفنا على المنصة، أو عرش الحق، وكان صمت الموت يلف العشرة آلاف متفرج.

جلس القضاة في دائرة كبيرة حول محيط المنصة الدائرية. خُصصت لنا مقاعد مع ظهورنا نحو منصة صغيرة تقع بالدقة في وسط المنصة الأكبر. هذا وضعنا في مواجهة القضاة والجمهور. يأخذ كل شخص مكانه عند المنصة الأصغر خلال الاستماع إلى قضيته.

جلس زات أراس نفسه على الكرسي الذهبي لرئيس المحكمة. جلسنا وحراسنا بعيدًا، أسفل السلم المؤدي إلى المنصة. نهض زات أراس ونادى على اسمي.

صاح: «جون كارتر، خذ مكانك عند قاعدة تمثال الحقيقة ليتم الحكم عليك دون تحيز وفقًا لأفعالك وهنا لتعرف الجزاء الذي تستحقه»، ثم تحرك ذهابًا وإيابًا نحو الجمهور، وهو يروي الأفعال التي بناء على قيمتها سيتحدد جزائي.

قال: «تعرفون أيها القضاة ويعرف شعب هيليوم أن جون كارتر، الذي كان في يوم ما أمير هيليوم، قد عاد كما قال هو نفسه من وادي دور وحتى من معبد إيسوس نفسها. أي أنه في حضور العديد من رجال هيليوم قد نطق كُفرًا ضد إيس المقدس، وضد وادي دور، وبحر كوراس المفقود، والثيرن المقدسين أنفسهم، وحتى ضد إيسوس، إلهة الموت

والحياة الأبدية. وكما تشهد أعينكم أيضًا، ترونه هنا الآن عند قاعدة تمثال الحقيقة، وقد عاد بالفعل من تلك المناطق المقدسة بما يخالف عاداتنا القديمة، وينتهك حرمة ديننا القديم».

«إن من يموت مرة لا يحيا مرة أخرى. ومن يحاول ذلك يجب أن يموت إلى الأبد. أيها القضاة، واجبكم يكمن واضحًا أمامكم- لا يمكن أن توجد هنا شهادة تخالف الحقيقة. ما الجزاء الذي يجب أن يلقاه جون كارتر وفقًا للأفعال التي ارتكبها؟».

صاح أحد القضاة: «الموت!».

ثم وقف رجل من الحضور على قدميه، ورفع يده عاليًا وهتف: «العدالة! العدالة! العدالة!». إنه كانتوس كان، وتوجهت جميع الأعين نحوه، فقفز عبر جنود زودانجا، وانطلق إلى المنصة.

صاح موجهًا كلامه إلى زات أراس: ما هذه الطريقة للعدالة؟ لم نستمع إلى المُدعى عليه، ولم تُتح له فرصة لاستدعاء آخرين. باسم شعب هيليوم، أنا أطالب بمعاملة عادلة وغير متحيزة لأمير هيليوم».

ارتفع هتاف الجمهور عاليًا: «العدالة! العدالة! العدالة!»، ولم يجرؤ زات أراس على الرفض.

زمجر موجهًا كلامه لي: «تحدث إذن؛ لكن دون أن تنطق كفرًا ضد مقدسات برسوم».

«يا رجال هيليوم»، صحت مستديرًا نحو الجمهور، ومتحدثًا من فوق رؤوس قضاتي، «كيف يمكن أن يتوقع جون كارتر العدالة من

رجال زودانجا؟ لا يمكنه، ولا يطلبه. لكنه سيطرح قضيته لرجال هيليوم، ولن يلتمس الرحمة. إنه لا يتحدث الآن عن قضيته الخاصة – بل هي قضيتكم. إنها قضية زوجاتكم وبناتكم، والزوجات والبنات اللاتي لم يولدن بعد. إنها قضية إنقاذهن من الإهانات البشعة التي لا يمكن تصورها التي رأيتها تنهال على نساء برسوم الجميلات في المكان الذي يسميه الرجال معبد إيسوس. إنها قضية إنقاذهن من الأحضان الماصة لرجال النبات، ومن أنياب القرود البيضاء الكبيرة في دور، ومن الشهوة القاسية للثيرن المقدسين، ومن كل ما يحملهن إليه نهر إيس الميت البارد، من بيوت الحب والحياة والسعادة.

لا يجلس هنا أي رجل لا يعرف تاريخ جون كارتر. كيف جاء بينكم من عالم آخر وارتفع من أسير بين الرجال الخُضر، خلال التعذيب والاضطهاد، إلى مكانة عالية بين أعلى أناس برسوم. كما تعرفون أن جون كارتر لا يمكن أن يكذب لمصلحته، أو يقول أي شيء قد يلحق الضرر بشعب برسوم، أو يتحدث بخفة عن الدين الغريب الذي يحترمه دون أن يفهمه.

لا يوجد أي رجل هنا أو في أي مكان آخر، يعيش اليوم على برسوم، لا يدين بحياته مباشرة إلى عمل واحد من أعمالي، حيث ضحيت بنفسي وبسعادة أميرتي. وهكذا يا رجال هيليوم، أعتقد أنه يحق لي المطالبة بأن تسمعوني، وتصدقوني، وأن تسمحوا لي بخدمتكم وإنقاذكم من آخرة دور وإيسوس الزائفة كما أنقذتكم من الموت الحقيقي في ذلك اليوم البعيد.

إنني أتحدث الآن إليكم يا شعب هيليوم. وعندما أنتهي، فلينفذ رجال زودانجا إرادتهم معي. لقد أخذ مني زات أراس سيفي، بحيث لم يعُد رجال زودانجا يخشونني. هل ستستمعون؟».

هتف نبيل جليل من بين الجمهور: «تكلم جون كارتر، أمير هيليوم»، وردد الحشد هتافه حتى هز المبنى بضجيج مظاهرتهم.

كان زات أراس يعرف أنه من الأفضل ألا يتدخل في مثل تلك المشاعر التي أعرب عنها الناس ذلك اليوم في معبد الجزاء، ولذلك بقيت أتحدث لمدة ساعتين مع شعب هيليوم.

وعندما انتهيت، نهض زات أراس وتحول إلى القضاة، وقال بنبرة منخفضة: «يا نبلاء، سمعتم حجة جون كارتر؛ لقد أُعطي كل فرصة لإثبات براءته إن لم يكن مذنبًا؛ لكنه بدلًا من ذلك استخدم الوقت في مزيد من الكفر. ما حكمكم، أيها السادة؟».

«الموت للكافر!»، صاح شخص وهو ينهض على قدميه. وفي لحظة وقف القضاة الواحد والثلاثون جميعهم وسيوفهم مرفوعة رمزًا على إجماع حكمهم.

إذا لم يكن الناس قد سمعوا الاتهام الذي وجهه زات أراس، فقد سمعوا بالتأكيد الحكم الصادر عن المحكمة. ارتفعت همهمة غاضبة أكثر وأكثر في كافة أنحاء المدرج المزدحم، ورفع كانتوس كان يده كي يصمت الجميع – ولم يكن قد غادر المنصة منذ أن اتخذ مكانه بالقرب مني. وعندما ساد الصمت، تحدث إلى الناس بصوت هادئ ورزين.

«لقد سمعتم المصير الذي سيفرضه رجال زودانجا على أنبل بطل في هيليوم. وقد يكون من واجب رجال هيليوم قبول الحكم باعتباره نهائيًّا. ولكن، ليتصرف كل رجل وفقًا لما يمليه قلبه. هذا هو رد كانتوس كان، رئيس القوات البحرية لهيليوم، على زات أراس وقضاته»، وفك جراب سيفه، وألقى بسيفه عند قدمي.

وفي لحظة، تزاحم المواطنون والضباط والنبلاء عبر جنود زودانجا لشق طريقهم إلى عرش الحق. اندفع مئات الرجال إلى المنصة، واهتزت وصلصلت مئات السيوف على الأرض أمام قدمي. استشاط زات أراس وضباطه غضبًا، لكنهم كانوا بلا حيلة. رفعت السيوف واحدًا تلو الآخر إلى شفتي وأعدتهم مرة أخرى إلى أصحابها.

قال كانتوس كان: «هيا، سوف نصطحب جون كارتر ومجموعته المرافقة إلى قصره»؛ ثم كونوا تشكيلًا حولنا، وبدأنا نتحرك نحو السلم المؤدي إلى ممر الأمل».

صاح زات أراس: «توقفوا! جنود هيليوم لا يسمحون لأي سجين أن يغادر عرش الحق».

كان جنود زودانجا هم الكيان المنظم الوحيد لقوات هيليوم داخل المعبد، ولذا كان زات أراس واثقًا من أنهم سيطيعون أوامره، لكنني لا أعتقد أنه نظر إلى المعارضة التي أُثيرت في اللحظة التي تقدم فيها جنوده نحو العرش.

ومضت السيوف من كل أنحاء المدرج، وهرع الرجال يتوعدون الزودانجيين. صرخ شخص: «تاردوس مورس مات- فليعش جون

كارتر، جيداك هيليوم، ألف عام». عندما سمعت ذلك، ورأيت موقف رجال هيليوم القبيح تجاه جنود زات أراس، عرفت أن معجزة فقط هي التي يمكن أن تحول دون اشتباك قد ينتهي إلى حرب أهلية.

«توقفوا!»، صرخت وأنا أقفز إلى قاعدة تمثال الحقيقة مرة أخرى. «لا يتحرك أي منكم حتى أنتهي. إن طعنة سيف واحدة هنا اليوم قد تُغرق هيليوم في حرب دموية مريرة لا يمكن لأحد أن يتوقع نتائجها. سوف تؤدي إلى تحويل الأخ ضد أخيه والأب ضد ابنه. لا تستحق حياة أي إنسان تلك التضحية. إنني أُفضل أن أخضع بالأحرى لحكم زات أراس المتحيز عن أن أكون سببًا في حرب أهلية في هيليوم.

لنهدأ جميعًا، ولندع هذه المسألة برمتها تهدأ إلى أن يعود تاردوس مورس، أو ابنه مورس كاجاك. وإذا لم يعُد أي منهما في نهاية العام، تُعقد محاكمة ثانية - وهناك سابقة». ثم تحولت إلى زات أراس، وقلت بصوت منخفض: «إلا إذا كنت أكثر حماقة ممَّا أعتبرك، اغتنم الفرصة التي أعرضها لك قبل فوات الأوان. فما إن يتجه هذا الحشد من السيوف نحو جندك، حتى لن يمكن لأي رجل على برسوم - ولا حتى تاردوس مورس نفسه - أن يتجنب العواقب. ما قولك؟ تكلم بسرعة».

رفع جِد هيليوم الزودانجي صوته إلى البحر الغاضب في القاعة أدنى المنصة.

صاح وصوته يرتجف من الغضب: «أبعدوا أيديكم يا رجال هيليوم. لقد صدر حكم المحكمة، لكن يوم القصاص لم يتحدد بعد. وأنا، زات أراس، جِد زودانجا، تقديرًا للروابط الملكية للسجين وخدماته السابقة

لهيليوم وبرسوم، أمنح فترة تأجيل لمدة سنة واحدة، أو إلى حين عودة مورس كاجاك، أو تاردوس مورس إلى هيليوم. تفرقوا بهدوء إلى بيوتكم.

لم يتحرك أحد. بل وقفوا في صمت متوتر وأعينهم مثبتة نحوي كأنما ينتظرون إشارة الهجوم.

«عليكم إخلاء المعبد»، أمر زات أراس أحد ضباطه بنبرة منخفضة.

وخوفًا من نتيجة محاولة تنفيذ هذا الأمر بالقوة، صعدت إلى حافة المنصة مُشيرًا إلى المدخل الرئيس، وطلبت منهم الخروج. استداروا كرجل واحد بناء على طلبي، وساروا في صمت تهديدي عبر جنود زات أراس، جِد زودانجا، الذي وقف متذمرًا في غضب عاجز.

أما كانتوس كان والآخرون الذين قد أقسموا الولاء لي، فقد كانوا لا يزالون يقفون على عرش الحق معي.

قال لي كانتوس كان: «هيا، سوف نرافقك لقصرك يا أميري. هيا كارثوريس وزودار. هيا تارس تاركاس». ومع سخرية متعجرفة على شفتيه الوسيمتين تجاه زات أراس، استدار وخطا بخطوات كبيرة نحو سلالم العرش وإلى ممر الأمل. وسرنا وراءه نحن الأربعة، والمائة من أنصاره؛ ولم ترتفع يد واحدة لتبقينا، على الرغم من أن أعينًا متوهجة كانت تتابع مسيرتنا المنتصرة عبر المعبد.

وجدنا في الطرقات أعدادًا غفيرة من الناس، لكنهم فتحوا لنا الطريق، وعديدة هي السيوف التي كانت تُلقى أمام قدمي كلما مررت

خلال مدينة هيليوم تجاه قصري عند مشارفها. وهنا، في القصر، جلس عبيدي القدامى على ركبهم وقبلوا يدي وأنا أحييهم. لم يهتموا أين كنت. كان يكفي أنني عدت إليهم.

صاح أحدهم: «آه، يا سيدي، إذا كانت أميرتنا الإلهية هنا، لكان هذا اليوم ليصبح يومًا بالفعل».

طفرت الدموع إلى عيني، حتى اضطررت إلى الابتعاد لأخفي مشاعري. بكى كارثوريس علنًا عندما ضغط عليه العبيد بعبارات المودة، وكلمات الحزن لخسارتنا المشتركة. والآن عرف تارس تاركاس للمرة الأولى أن ابنته، سولا، صاحبت ديجاه ثوريس في رحلة الحج الطويل الأخير. لم يسمح لي قلبي أن أقول له ما أخبرني به كانتوس كان. وبرزانة المريخيين الخُضر، لم يُظهر أي علامة على المعاناة، لكنني أعرف أن حزنه كان حادًّا كحزني؛ فلديه شكل متطور من السمات البشرية الرقيقة من الحب والصداقة وعمل الخير، تتناقض بوضوح مع سمات عِرقه.

كنا مجموعة حزينة وكئيبة، تلك التي جلست في وليمة الترحيب بقاعة الطعام الكبيرة بقصر أمير هيليوم في ذلك اليوم. أكثر من مائة رجل قوي، دون حساب عدد أفراد بلاطي الصغير، فقد حافظنا أنا وديجاه ثوريس على أسرة تتسق ومرتبتنا الملكية.

تتخذ المائدة، ووفقًا للعُرف المريخي الأحمر، شكلًا مثلثًا؛ فأسرتنا تتكون من ثلاثة أفراد. جلست أنا وكارثوريس في وسط جانبي المائدة - في منتصف الجانب الثالث، كان كرسي ديجاه ثوريس المنحوت عالي الظهر شاغرًا، باستثناء الأغطية ومجوهرات زفافها الرائعة التي تكسوه.

وقف عبد في الخلف كما كان الحال في تلك الأيام عندما كانت سيدته تحتل مكانها على المائدة، مستعدًّا لتلبية أوامرها. هذه هي الطريقة في برسوم، ولذا تحملت الكرب، فقد اعتصر قلبي رؤية هذا الكرسي الصامت، بينما كانت أميرتي الضحوك المرحة تجعل القاعة كبيرة ترن ببهجتها المرحة.

جلس كانتوس كان على يميني، بينما جلس تارس تاركاس على يمين مكان ديجاه ثوريس الفارغ، على كرسي ضخم أمام قسم مرتفع من المائدة، بنيته منذ سنوات ليلبي متطلبات جسمه الضخم. يوجد دائمًا موقع الشرف على المائدة المريخية على يمين المضيف، واحتفظت ديجاه ثوريس به دومًا للثاركي العظيم خلال مناسبات وجوده في هيليوم.

جلس هور فاستوس في مقعد الشرف عند جانب كارثوريس من المائدة. كان حديثنا العام قليلًا. كانت وليمة هادئة وحزينة. ففقدان ديجاه ثوريس لا يزال ماثلًا في أذهان الجميع، ويُضاف إليه الخوف على سلامة تاردوس مورس ومورس كاجاك، فضلًا عن الشك وعدم اليقين بشأن مصير هيليوم، إذا ثبت بالفعل أنها حُرمت بشكل دائم من جيداكها العظيم.

وفجأة جذب اهتمامنا صوت صياح بعيد لأناس عديدين يرفعون أصواتهم في وقت واحد، ولكن هل من الغضب أو السرور، لا نعرف. اقتربت الضوضاء أكثر وأكثر. هرع عبد إلى قاعة الطعام وهو يصيح أن تجمعًا كبيرًا من الناس يتزاحمون عند بوابات القصر. حدث تفجر ثان في أعقاب الأول متناوبًا بين الضحك والصراخ كالمجانين.

هتف: «ديجاه ثوريس وُجِدت! وصل رسول من ديجاه ثوريس!».

لم أنتظر لأسمع أكثر. كانت النوافذ الكبيرة لقاعة الطعام تطل على الطريق المؤدي إلى البوابات الرئيسة- كانوا على الجانب الآخر من القاعة، والمائدة تعترضني. لم أُضع الوقت في الدوران حول المائدة الكبيرة؛ تخطيت بقفزة واحدة المائدة والجالسين حولها منطلقًا إلى الشرفة. على بعد ثلاثين قدمًا أدناه، امتدت مرجة العشب القرمزية وتزاحم وراءها العديد من الناس حول ثوات ضخم يحمل راكبًا يتجه نحو القصر. قفزت إلى الأرض أدناه، وركضت سريعًا نحو الجمع المتقدم.

عندما اقتربت منهم، رأيت أن الشخص الذي يمتطي الثوات هو سولا.

صرخت: «أين أميرة هيليوم؟».

انزلقت الفتاة الخضراء من دابتها القوية، وركضت نحوي.

بكت قائلة: «أوه يا أميري!، لقد ذهبت إلى الأبد. فهي الآن قد تكون أسيرة عند القمر الأصغر. لقد سرقها قراصنة برسوم السود».

* * *

(١٨)

قصة سولا

ما إن دخلنا القصر، حتى أخذت سولا إلى قاعة الطعام؛ وبعد أن قدمت التحية لوالدها على الطريقة الرسمية للرجال الخُضر، حكت قصة الحج والقبض على ديجاه ثوريس.

«منذ سبعة أيام، بعد مقابلتها مع زات أراس، حاولت ديجاه ثوريس التسلل من القصر في عتمة الليل. على الرغم من أنني لم أعرف نتيجة مقابلتها مع زات أراس، فقد أدركت أن شيئًا قد حدث وسبب لها أشد معاناة عقلية، وعندما اكتشفت أنها تسللت من القصر لم أكن في حاجة إلى أن يُقال لي وجهتها.

أيقظت على عجل ما يزيد على عشرة من أكثر حراسها إخلاصًا، وشرحت لهم مخاوفي، وخرجنا معًا لتتبع أميرتنا المحبوبة في ترحالها، حتى إلى نهر إيس المقدس ووادي دور. وصلنا إليها على مسافة قصيرة من القصر. كان معها الكلب وولا المخلص، ولكن لا شيء آخر. عندما لحقنا بها، تظاهرت بالغضب وأمرتنا بالعودة إلى القصر، لكننا ولأول مرة عصيناها، وعندما وجدت أننا لن نتركها تذهب إلى رحلة الحج الطويلة

الأخيرة بمفردها، بكت وعانقتنا، وخرجنا معًا في الليل نحو الجنوب».

«وصلنا في اليوم التالي إلى قطيع من الثوات الصغيرة، فامتطيناها في الوقت المناسب. تحركنا بسرعة كبيرة ولمسافة بعيدة نحو الجنوب إلى أن شاهدنا في صباح اليوم الخامس أسطولًا كبيرًا من السفن الحربية يبحر نحو الشمال. شاهدونا قبل أن نجد مأوى، وسرعان ما أصبحنا محاطين بحشد من الرجال السود. قاتَل حارس الأميرة بنبل حتى النهاية، لكنهم سرعان ما تغلبوا علينا وشرعوا في القتل. لم يبقوا إلا علينا أنا وديجاه ثوريس.

عندما أدركت أنها وقعت في براثن القراصنة السود، حاولت أن تقتل نفسها، لكن أحد السود انتزع منها خنجرها، ثم قيدونا نحن الاثنتين بحيث لا يمكننا أن نستخدم أيدينا.

واصل الأسطول طريقه نحو الشمال بعد أسرنا. كان يضم حوالي عشرين سفينة حربية كبيرة، إلى جانب عدد من السفن السريعة الصغيرة. وفي ذلك المساء عادت إحدى السفن الصغيرة التي كانت متقدمة كثيرًا عن الأسطول، عادت ومعها أسيرة - فتاة حمراء وجدوها في مجموعة من التلال القريبة، كما قالوا، أسفل مقدمة أسطول من ثلاث سفن حربية تابعة للمريخيين الحُمر.

من نُبذ المحادثة التي تمكنا من سماعها، فهمنا أن القراصنة السود يبحثون عن مجموعة من الهاربين الفارين قبل عدة أيام. كان واضحا من المقابلة الطويلة والجادة التي أجراها معها قائد الأسطول عند إحضارها له، أنهم يعتبرون أن القبض على المرأة الشابة مهمًّا. وفي وقت لاحق

قيدوها ووضعوها في مقصورة معي أنا وديجاه ثوريس.

كانت الأسيرة الجديدة فتاة جميلة جدًّا. وقد أخبرت ديجاه ثوريس أنها منذ سنوات عديدة اتخذت الحج الطوعي من بلاط والدها، جيداك بتارث. كانت ثوفيا، أميرة بتارث. ثم سألت ديجاه ثوريس من هي، وعندما سمعت، جلست على ركبتيها وقبلت يدي ديجاه ثوريس المقيدتين، وأخبرتها أنها هذا الصباح بالذات كانت مع جون كارتر أمير هيليوم، وكارثوريس ابنها».

«لم تصدقها ديجاه ثوريس في البداية، وأخيرًا عندما روت الفتاة جميع المغامرات الغريبة التي صادفتها منذ أن التقت بجون كارتر، وأخبرتها بالأشياء التي حكاها جون كارتر وكارثوريس وزودار عن مغامراتهم في أرض الأبناء الأوائل، عرفت ديجاه ثوريس أنه لا يمكن إلا أن يكون أمير هيليوم؛ وقالت: 'لا يوجد على برسوم كلها أحد غير جون كارتر يمكنه أن يفعل الأشياء التي ترويها'. وعندما حكت ثوفيا لديجاه ثوريس عن حبها لجون كارتر، وولاءه وإخلاصه للأميرة التي اختارها، انهارت ديجاه ثوريس وبكت، وهي تلعن زات أراس والمصير القاسي الذي دفعها خارج هيليوم قبل بضعة أيام قصيرة من عودة أميرها الحبيب.

وقالت: 'لا ألومك على حبِّك له، ثوفيا، ويمكنني من صراحتك في المجاهرة بذلك لي تصديق أن عاطفتك تجاهه نقية ومخلصة'.

تابع الأسطول طريقه شمالًا إلى هيليوم تقريبًا، لكنهم أدركوا الليلة الماضية أن جون كارتر هرب منهم بالفعل، وبالتالي حولوا اتجاههم نحو الجنوب مرة أخرى. وبعد ذلك بوقت قصير، دخل حارس إلى مقصورتنا

وأخذني إلى سطح السفينة.

وقال: 'لا يوجد مكان في أرض الأبناء الأوائل لشخص أخضر'، ثم دفعني بقوة هائلة أطاحتني من على ظهر السفينة الحربية. يبدو أنها أسهل طريقة لتخليص السفينة من وجودي وقتلي في الوقت نفسه.

لكن القدر الكريم تدخل، وتمكنت من الفرار بمعجزة مع بعض الكدمات الطفيفة. كانت السفينة تتحرك ببطء في ذلك الوقت، ولذا عندما اندفعت من سطحها نحو الظلام أدناه ارتجفت خوفًا من الغوص الفظيع الذي ظننت أنه ينتظرني؛ فقد أبحر الأسطول طوال اليوم آلاف الأقدام فوق سطح الأرض. ولكني، لدهشتي الشديدة، وقعت على كتلة ناعمة من الغطاء النباتي لا يقل بُعدها عن عشرين قدمًا من سطح السفينة. يبدو في الواقع أن عارضة السفينة كانت تمس سطح الأرض في ذلك الوقت.

استلقيت الليل كله حيث سقطتُ، وجلب لي صباح اليوم التالي تفسيرًا للمصادفة المحظوظة التي أنقذتني من موت رهيب. عندما ارتفعت الشمس، رأيت بانوراما واسعة لقاع البحر والتلال البعيدة التي تقع أسفلي بكثير. كنت عند أعلى قمة لسلسلة جبال شامخة. ففي ظلام الليلة السابقة كاد الأسطول أن يمس قمة التلال، وفي غضون فترة وجيزة طاف بالقرب من السطح الذي ألقاني منه الحارس الأسود إلى حتفي، كما كان يفترض.

كان يوجد ممر مائي كبير على بعد بضعة أميال غربًا. وعندما وصلت إليه، وجدت أنه، لسعادتي، ينتمي إلى هيليوم. وهنا حصلت

على الثوات- وأنتم تعرفون البقية».

صمت الجميع لعدة دقائق. ديجاه ثوريس في براثن الأبناء الأوائل! ارتعدت من هذا التفكير، ولكن فجأة تدفقت خلالي تلك النار القديمة بالثقة بالنفس التي لا تُقهر. قفزت واقفًا، ورفعت كتفي وتعهدت رسميًّا وأنا أرفع سيفي أن أصل إلى أميرتي، وأنقذها، وأنتقم لها.

انطلق مائة سيف من غمده، وقفز مائة مقاتل إلى أعلى المائدة وتعهدوا لي بحياتهم ومصائرهم في الحملة. وضعت خططي بالفعل. وشكرت كل صديق مخلص، وتركتهم في ضيافة كارثوريس، وانسحبت إلى غرفتي العامة ومعي كانتوس كان وتارس تاركاس وزودار وهور فاستوس.

ناقشنا مطولًا تفاصيل حملتنا إلى ما بعد حلول الظلام. كان زودار على يقين أن إيسوس ستختار كلًّا من ديجاه ثوريس وثوفيا لخدمتها لمدة سنة.

وقال: «ستكونان طوال هذه المدة على الأقل في أمان نسبيًّا، وسنعرف أين نبحث عنهما».

تركت لكانتوس كان وزودار تفاصيل تجهيز أسطول ليدخل أوميان. وافق كانتوس كان على أن نأخذ ما نريده من سفن إلى الرصيف بأسرع ما يمكن، حيث يتولى زودار توجيه معداتها مع مراوح المياه.

لقد ظل السود لسنوات يتولون مسؤولية ترميم السفن الفضائية الحربية التي يجري الاستيلاء عليها ويمكنها الإبحار في أوميان، وبالتالي

كانوا على دراية ببنية المراوح، والمعدات، والتروس الإضافية المطلوبة.

كان تقديرنا أننا نحتاج إلى ستة أشهر لاستكمال استعداداتنا، على ضوء ضرورة العمل بسرية تامة للحفاظ على المشروع بعيدًا عن آذان زات أراس. فقد استثرنا طموحاته، حسبما يرى كانتوس كان، ولن يُرضيه أي شيء أقل من لقب جيداك هيليوم.

وقال: «أشك أنه حتى سيرحب بعودة ديجاه ثوريس؛ لأن ذلك سيعني أن هناك شخصًا آخر أقرب منه إلى العرش. بإبعادك أنت وكارثوريس عن الطريق، لا يوجد ما يمنعه من اتخاذ لقب جيداك، ويجب أن تعلم عن يقين أنه ما دام هو الأعلى هنا، لا يوجد أمان لأي منكما».

صاح هور فاستوس: «هناك طريقة لمنعه بشكل فعال وإلى الأبد».

سألت: «ما هي؟».

«سوف أهمس بها هنا، ولكن في يوم ما سوف أقف فوق قبة معبد الجزاء، وأهتف بها للجموع الحاشدة أدناه».

سأل كانتوس كان: «ماذا تقصد؟».

قال هور فاستوس بصوت منخفض «جون كارتر، جيداك هيليوم».

أضاءت أعين مرافقيَّ، وملأت ابتسامات قاتمة من السرور والترقب وجوههم، وتحولت كل الأعين نحوي متساءلة. لكني هززت رأسي.

قلت مبتسمًا: «كلا يا أصدقائي، أشكركم، ولكن هذا لا يمكن أن يحدث. ليس بعد، على الأقل. عندما نعرف أن تاردوس مورس ومورس كاجاك لن يعودا مرة أخرى؛ إذا كنت هنا، فسوف أنضم لكم جميعًا لنرى

شعب هيليوم متاحًا له أن يختار بإنصاف الجيداك المقبل. ومن يختارونه يمكنه أن يعتمد على ولاء سيفي، ولن أسعى إلى هذا الشرف لنفسي. وإلى ذلك الحين، فإن تاردوس مورس هو جيداك هيليوم، وزات أراس ممثل له».

قال هور فاستوس: «كما تشاء جون كارتر، ولكن ... ما هذا؟»، همس مشيرًا نحو نافذة تطل على الحدائق.

كانت الكلمات تخرج بشق الأنفس من فمه قبل أن يقفز إلى الشرفة الخارجية.

صاح منفعلًا: «ها هو يذهب! يا حراس! هناك، أدناه! يا حراس!».

اقتربنا وراءه، وشهدنا جميعًا هيئة رجل يركض بسرعة عبر مساحة صغيرة من المرجة، واختفى في الشجيرات خلفها.

صاح هور فاستوس: «كان على الشرفة عندما رأيته أولًا. فلنسرع! لنتتبعه!».

ركضنا معًا إلى الحدائق، وعلى الرغم من أننا قمنا بتمشيط الحديقة مع الحرس كاملًا لمدة ساعة، لم نتمكن من اقتفاء أي أثر لهذا المُغير الليلي.

سأل تارس تاركاس: «ما رأيك في هذا، كانتوس كان؟».

فأجاب: «جاسوس أرسله زات أراس. هذه هي طريقته دائمًا».

ضحك هور فاستوس قائلًا: «لديه شيء مثير للاهتمام يخبر به سيده إذن».

قلت: «أتمنى أنه لم يسمع سوى إشاراتنا إلى جيداك جديد. فإذا كان قد سمع خططنا لإنقاذ ديجاه ثوريس، فهذا معناه حرب أهلية لأنه سيحاول إحباطنا، وهنا لن يمنعني أحد. عندئذ قد أتحول ضد تاردوس مورس نفسه، إن تطلب الأمر. وإذا ألقى ذلك هيليوم كلها في صراع دموي، سوف أستمر في هذه الخطط لإنقاذ أميرتي. لن يوقفني شيء الآن أقل من الموت، وإذا مت يا أصدقائي، فهل تقسمون على مواصلة البحث عنها وإعادتها بأمان إلى بلاط جدها؟».

أقسم كل منهم، عند مقبض سيفه، بأن يفعل ما طلبته.

اتفقنا على أن تتوجه السفن الفضائية الحربية التي من المقرر تجديدها إلى هاستور- مدينة هيليومية أخرى، تقع في الجنوب الغربي. وعرفنا من كانتوس كان أن أحواض السفن هناك، بالإضافة إلى عملها العادي، سوف تستوعب على الأقل ست سفن حربية في وقت واحد. ونظرًا لأنه القائد الأعلى للقوات البحرية، يمكنه ببساطة أن يأمر بنقل السفن إلى هناك وتجديدها، ثم الحفاظ على الأسطول المُجدّد في الأجزاء النائية من الإمبراطورية إلى أن نصبح مستعدين لتجميعه للانطلاق على أوميان.

كان الوقت متأخرًا في تلك الليلة قبل أن ينفض اجتماعنا، لكننا رسمنا تفاصيل الخطة بكاملها وتحدد لكل رجل مهامه الخاصة المحددة.

تمثلت مهمة كانتوس كان وزودار في متابعة تجديد السفن. وتمثلت مهمة تارس تاركاس في التواصل مع الثاركيين ومعرفة مشاعر شعبه تجاه عودته من دور. فإذا كانت مواتية، عليه أن يعود على الفور إلى ثارك ويُكرس وقته لتجميع حشد ضخم من المحاربين الخُضر الذين كانت

خطتنا تقضي بإرسالهم بسفن نقل إلى وادي دور ومعبد إيسوس مباشرة، بينما يدخل الأسطول أوميان ويدمر سفن الأبناء الأوائل.

عهدنا إلى هور فاستوس مهمة دقيقة تتمثل في تنظيم قوة سرية من المقاتلين الذين أقسموا على اتباع جون كارتر بغض النظر عما يؤول إليه ذلك. وحسب تقديرنا أن الأمر سيتطلب أكثر من مليون رجل لتزويد الألف سفينة الكبيرة التي ننوي استخدامها في أوميان وسفن نقل الرجال الخُضر والسفن التي سترافقها؛ لم تكن مهمة هور فاستوس بسيطة.

بعد أن غادروا، تمنيت لكارثوريس ليلة طيبة، فقد كنت شديد الإرهاق. ذهبت إلى شقتي، وتحممت، واستلقيت على الحرير والفراء المخصص للنوم، في أول ليلة من النوم الجيد كنت أتطلع إليها منذ أن عدت إلى برسوم. على أنني أصبت أيضًا بخيبة أمل.

لا أعرف كم من الوقت نمت. وعندما استيقظت، وجدت فجأة نصف دزينة من الرجال الأقوياء ينقضون فوقي، وفمي مكمم بالفعل، وفي اللحظة التالية قيدوا ذراعي وساقي بإحكام. قاموا بعملهم بسرعة وبطريقة تفي بغرضهم، بحيث لم أكن قادرًا على مقاومتهم إطلاقًا عندما استيقظت تمامًا.

لم يقل أي منهم كلمة واحدة، ومنعتني الكمامة من التحدث. رفعوني بصمت وحملوني تجاه باب غرفتي. وعندما مروا من النافذة التي يلقي من خلالها القمر الأبعد أشعته الرائعة، رأيت أن وجه كل فرد في المجموعة ملفوف في طبقات من الحرير، ولم أتمكن من التعرف على أي منهم.

عند وصولهم إلى الممر وهم يحملوني، استداروا نحو لوح سري في الجدار يقود إلى ممر ينتهي إلى الحُفر أسفل القصر. أشك أن هناك من خارج أسرتي من يعلم بهذا اللوح. لم يتردد قائد الفريق لحظة؛ خطا مباشرة إلى اللوح، ولمس الزر الخفي، فتأرجح الباب مفتوحًا. وقف جانبًا بينما دخل رفاقه معي. ثم أغلق اللوح وراءه وتبعنا.

سرنا من خلال الممرات إلى الحُفر. طرق عليها القائد بمقبض سيفه - ثلاث ضربات حادة سريعة ثم توقف، ثم ثلاث ضربات أخرى ثم توقف ثانية، ثم ضربتين. تأرجح الجدار منفتحًا خلال ثانية، ودفعوني إلى غرفة مضاءة ببراعة يجلس فيها ثلاثة رجال يرتدون أغطية ثمينة.

التفت أحدهم نحوي بابتسامة تهكمية على شفتيه الرفيعتين القاسيتين- كان زات أراس.

❊ ❊ ❊

(١٩)

اليأس الأسود

قال زات أراس: «آها، لأي ظرف حسن أدين بسعادة هذه الزيارة غير المتوقعة من أمير هيليوم؟».

وبينما كان يتحدث، أزال أحد حُراسي الكمامة من فمي، لكني لم أرد على زات أراس. وقفت هناك ببساطة في صمت، بنظر محدقة رزينة ثابتة نحو جِد زودانجا. ولا أشك أن تعبيري كان مشوبًا بالازدراء الذي شعرت به تجاه الرجل.

كانت عيون الموجودين في الغرفة مثبتة أولًا نحوي، ثم نحو زات أراس، إلى أن زحف الغضب ببطء أخيرًا فوق وجهه.

«يمكنكم الذهاب»، قال موجهًا كلامه إلى الحُراس الذين أحضروني. وعندما لم يبق في الغرفة سوانا ومرافقيه، حدثني مرة أخرى بصوت كالجليد- ببطء شديد وتأن، مع توقفات كثيرة، كأنما يختار كلماته بحذر.

قال: «جون كارتر، لقد حُكم عليك بالموت، بموجب العُرف، وبموجب قانون ديننا، وبموجب حُكم من محكمة غير متحيزة. لا يمكن

أن ينقذك الشعب – أنا وحدي يمكنني إنقاذك. أنت في قبضتي تمامًا الآن لأفعل بك ما يحلو لي – يمكنني قتلك، أو تحريرك؛ وإذا اخترت أن أقتلك، لا شيء سيكون أكثر حكمة».

«إذا أطلقت سراحك في هيليوم لمدة عام، وفقًا لشروطك في التأجيل، أخشى ألا يستمر إصرار الناس على تنفيذ العقوبة المفروضة عليك».

«يمكنني إطلاق سراحك خلال دقيقتين، بشرط واحد: ألا يعود تاردوس مورس إلى هيليوم أبدًا، ولا يعود مورس كاجاك، ولا ديجاه ثوريس. يجب أن تختار هيليوم الجيداك الجديد خلال السنة. وسيكون زات أراس جيداك هيليوم. قل إنك ستتبنى قضيتي. هذا هو ثمن حريتك. أنا أنهيت كلامي».

كنت أعرف أن زات أراس يرغب في أعماق قلبه القاسي أن يدمرني. وإذا مُت، لا يوجد أي سبب وجيه للشك في أنه سيصبح بسهولة جيداك هيليوم. يمكنني وأنا متمع بحريتي مواصلة البحث عن ديجاه ثوريس. وإذا مت، قد لا يتمكن رفاقي الشجعان من تنفيذ خططنا. وبالتالي، برفضي الموافقة على طلبه، من المحتمل تمامًا ألا يقتصر الأمر على منعه من أن يصبح جيداك هيليوم، وإنما سأكون أيضًا وسيلة إنهاء حياة ديجاه ثوريس – بتعريضها، من خلال رفضي، لفظائع ساحة إيسوس.

شعرت بالحيرة للحظة، وفقط للحظة. إن الابنة الفخورة لألف جيداك ستختار الموت عن تحالف غير شريف مثل هذا، ولا يمكن أن يفعل جون كارتر لهيليوم أقل مما تفعله الأميرة.

عندئذ التفتُ إلى زات أراس.

وقلت: «لا يمكن أن يوجد تحالف بين خائن لهيليوم وأمير في بيت تاردوس مورس. لا أعتقد، زات أراس، أن الجيداك العظيم قد مات».

هز زات أراس كتفيه مستهجنًا.

وقال: «لن يمر وقت طويل، جون كارتر، قبل أن تنعدم فائدة آرائك حتى لنفسك، فاستفد منها بأفضل ما يمكنك ما دمت قادرًا. سوف يتيح لك زات أراس وقتًا مناسبًا للتفكير مليًّا في عرضه الكريم. سوف تدخل في صمت وظلام الحُفر وأنت تفكر هذه الليلة، مع العلم بأنك إذا أخفقت في غضون فترة زمنية معقولة في الموافقة على البديل الذي عرضته عليك، فلن تخرج أبدًا من الظلام والصمت مرة أخرى. ولن تعرف متى ستصل إليك يد تحمل خنجرًا حادًّا، خلال الظلام والصمت، ليسلبك آخر فرصة للفوز مرة أخرى بالدفء والحرية والبهجة في العالم الخارجي».

صفق زات أراس بيديه عندما توقف عن الكلام. وعاد الحراس.

لوح زات أراس بيده في اتجاهي.

وقال: «إلى الحُفر». هذا كل ما حدث. رافقني أربعة رجال إلى خارج الغرفة، وأضاءوا الطريق بضوء يدوي من الراديوم. اصطحبوني خلال أنفاق بدت بلا نهاية، إلى أسفل، أدنى من أي مكان على الإطلاق تحت مدينة هيليوم.

توقفوا طويلًا داخل غرفة مقبولة الحجم، ضمت حلقات مثبتة

في الجدران الصخرية ومُثبت بها سلاسل، وتوجد في نهايات العديد من السلاسل هياكل عظمية بشرية. ركلوا أحدها جانبًا، وفتحوا القفل الضخم الذي كان يحمل سلسلة حول ما كان كاحلًا بشريًّا، وأغلقوا الرباط الحديدي حول ساقي. ثم تركوني، آخذين الضوء معهم.

ساد الظلام التام. سمعت قعقعة التجهيزات لبضع دقائق، ثم بدأت هي الأخرى تخف تدريجيًّا إلى أن ساد الصمت كاملًا مثل الظلام. بقيت وحيدًا مع رفقتي البشعة – عظام الموتى الذين لا يدل مصيرهم على الأرجح إلا على مصيري.

لا أعرف قدر الوقت الذي بقيت فيه واقفًا أستمع في الظلام، لكن الصمت لم يكن متقطعًا، وفي النهاية غُصت على أرض زنزانتي الصلبة، وملت برأسي على الجدار الحجري ونمت.

من المؤكد أن عدة ساعات مرت قبل أن أستيقظ لأجد شابًّا يقف أمامي. يحمل في إحدى يديه ضوءًا، وفي الأخرى وعاء يحتوي على خليط مثل عصيدة – طعام السجن المعتاد في برسوم.

قال الشاب: «زات أراس يرسل لك تحياته، وأمرني أن أخبرك أنه وصلته بالكامل مؤامرة تنصيبك جيداك هيليوم، ومع ذلك لا يميل إلى سحب العرض الذي قدمه لك. وللحصول على حريتك، ليس عليك إلا أن تطلب مني إبلاغ زات أراس أنك قبلت شروط عرضه».

هززت رأسي. لم يقل الشاب أي شيء آخر، وبعد أن وضع الطعام على الأرض بجانبي، عاد إلى الممر، آخذًا الضوء معه.

للعديد من الأيام، ظل هذا الشاب يأتي مرتين يوميًّا إلى زنزانتي حاملًا الطعام، ويبلغني بتحيات زات أراس نفسها. حاولت لفترة طويلة الدخول معه في حديث حول مسائل أخرى، لكنه لم يتحدث، وبعد فترة طويلة كففت عن ذلك.

سعيت لشهور إلى ابتكار أساليب لإعلام كارثوريس بمكاني. وظللت لشهور أكشط وأخدش رابطة إحدى السلاسل الضخمة التي تقيدني، على أمل أن أخلعها وأتابع الشاب خلال الأنفاق المتعرجة إلى نقطة يمكنني فيها نيل حريتي.

كنت قلقًا لمعرفة التقدم المحرز في حملة إنقاذ ديجاه ثوريس. شعرت بأن كارثوريس لن يسمح بإهمال هذه المسألة. سينجز الحملة إذا كان يتمتع بحريته، ولكن ربما يكون سجينًا أيضًا في حُفر زات أراس.

عرفت أن جاسوس زات أراس سمع حديثنا عن اختيار الجيداك الجديد، وقبلها بدقائق ناقشنا تفاصيل خطة إنقاذ ديجاه ثوريس. ومن المحتمل أنه يعرف هذه المسألة أيضًا. قد يكون الآن حتى كارثوريس، وكانتوس كان، وتاركس تاركاس، وهور فاستوس، وزودار، ضحايا لقتلة زات أراس، أو في سجنه.

لقد عقدت العزم على بذل جهد واحد آخر على الأقل لأعرف أي شيء. وتحقيقًا لهذه الغاية اعتمدت استراتيجية لتنفيذها عندما يأتي الشاب إلى زنزانتي ثانية. لاحظت أنه وسيم، في حجم وَسِن كارثوريس تقريبًا. كما لاحظت أيضًا أنه يتصرف كرجل كريم ونبيل، رغم أغطيته البالية.

اعتمدت هذه الملاحظات أساسًا لبدء مفاوضاتي معه عند زيارته التالية.

قلت له: «أنت ودود جدًّا معي أثناء سجني هنا، وأشعر أنني في أحسن الأحوال لن أظل على قيد الحياة طويلًا هنا. ولذا أود، قبل فوات الأوان، تقديم ما يُعبر عن تقديري الكبير لكل ما تقوم به لتجعل سجني مُحتمَلًا».

«فأنت تحضر طعامي يوميًّا دون إبطاء، وتتأكد من نقائه وكفاية كميته. لم تحاول أبدًا سواء بالكلمة أو الفعل أن تنتهز حالتي الضعيفة لتهينني أو تعذبني. كما أنك تتحلى دومًا بالتهذيب والمراعاة- وهذا أكثر من أي شيء آخر يحرك شعوري بالامتنان ورغبتي في أن أعطيك رمزًا بسيطًا يعبر عن ذلك».

«في غرفة الحرس بقصري، توجد أغطية جميلة كثيرة. اذهب إلى هناك واختر العتاد الذي يحلو لك- سيكون ملكك. كل ما أطلبه منك أن ترتديه، بحيث أعلم أن أمنيتي قد تحققت. قل لي أنك ستفعل ذلك».

أضاءت عينا الصبي بالسرور خلال حديثي، ورأيته يحول بصره بنظرة خاطفة من أغطيته الصدئة إلى روعة أغطيتي. وقف دقيقة يفكر قبل أن يتكلم، وفي هذه الدقيقة توقف قلبي عن الخفقان - كان الكثير بالنسبة لي يتعلق بمضمون إجابته.

«ولكن إذا ذهبت إلى قصر أمير هيليوم بطلب من هذا القبيل، سوف يضحكون. وفي هذه الصفقة، من الأكثر ترجيحًا أنهم سيلقون بي إلى الشارع. كلا، لا يمكن، على الرغم من أنني أشكرك على هذا العرض.

كما أن زات أراس، لو مجرد حلم بأنني فكرت في شيء من هذا القبيل، فسوف ينتزع قلبي».

ألححت قائلًا: «لا يوجد أي ضرر يا بني. يمكنك الذهاب ليلًا إلى قصري مع مذكرة مني إلى ابني كارثوريس. ويمكنك قراءة الورقة قبل تسليمها لتعرف أنها لا تحتوي على أي شيء يضر بزات أراس. ابني كتوم، وبالتالي لن يعرف إلا ثلاثتنا. المسألة بسيطة جدًّا، وهذا العمل عديم الضرر ولا يمكن أن يدينه أحد».

مرة أخرى وقف صامتًا في تفكير عميق.

«وهناك سيف قصير مرصع أخذته من جثة جيداك الشمال. عندما تحصل على العتاد، تأكد من أن كارثوريس سيمنحك ذلك أيضًا. بهذا السيف، إضافة إلى العتاد الذي تختاره، لن يوجد في زودانجا كلها محارب آخر أكثر وسامة منك».

«أحضرْ معك مواد للكتابة عندما تأتي إلى زنزانتي المرة القادمة، وفي غضون ساعات قليلة سنراك مكسوًّا بأسلوب يليق بك».

ظل يفكر، ثم استدار وتركني دون كلمة. لم أستطع تخمين قراره، وجلست لساعات قلقًا على نتائج هذه المسألة.

إذا وافق على حمل رسالة إلى كارثوريس، فهذا يعني أن كارثوريس لا يزال يعيش وحرًّا. وإذا عاد مرتديًا العتاد والسيف، سأعرف أن كارثوريس قد تسلم رسالتي وعرف أنني لا أزال حيًّا. ويكفي أن حامل الرسالة زودانجي كي يعرف كارثوريس أنني سجين زات أراس.

مع مشاعر الإثارة التي يثيرها التوقع، والتي بالكاد ما أمكنني إخفاؤها، سمعت اقتراب الشاب في زيارته العادية التالية. لم أقل شيئًا خارج تحيتي المعتادة له. وعندما وضع الطعام على الأرض بجانبي، وضع أيضًا مواد الكتابة.

خفق قلبي فرحًا. لقد فزت بوجهة نظري. نظرت للحظة إلى هذه المواد متظاهرًا بالمفاجأة، وسرعان ما سمحت بتعبير ينم عن الفهم أن يظهر على وجهي، ثم أخذت الأدوات وكتبت أمرًا مختصرًا إلى كارثوريس بتسليم بارثاك العتاد الذي يختاره والسيف القصير الذي وصفته. كان هذا هو كتبته فقط، لكنه يعني كل شيء بالنسبة لي ولكارثوريس.

وضعت الرسالة مفتوحة على الأرض. التقطها بارثاك، وغادر دون كلمة.

أمضيت في الحُفر حتى الآن ثلاثمائة يوم، بقدر ما أمكنني التقدير. يجب إذن القيام الآن وبسرعة بأي شيء ممكن لإنقاذ ديجاه ثوريس؛ فنهايتها تقترب، إن لم تكن ماتت بالفعل؛ لأن من تختارهم إيسوس لا يعيشون إلا سنة واحدة.

في المرة التالية التي سمعت فيها اقتراب خطوات، انتظرت متشوقًا لأرى ما إذا كان بارثاك يرتدي العتاد والسيف. ولكن، لك أن تتخيل إن استطعت، مدى غمي وخيبة أملي عندما رأيت أن من حمل طعامي لم يكن بارثاك.

سألته: «ماذا حدث لبارثاك؟»، لكنه لم يجب، واستدار بمجرد أن

وضع طعامي عائدًا إلى العالم العلوي.

مرت الأيام، ولا يزال سجاني الجديد يواصل الواجب الموكل إليه، ولا يوجه لي أي كلمة على الإطلاق، سواء ردًّا على أبسط سؤال أو من تلقاء نفسه.

لم يكن بإمكاني إلا أن أتكهن سبب إبعاد بارثاك، من الواضح أن السبب يتعلق بشكل ما بالرسالة التي أعطيتها له. بعد كل فرحي، لم أكن أفضل حالًا من ذي قبل، فلا أعرف حتى ما إذا كان كارثوريس حيًّا؛ فإذا كان بارثاك قد رغب في الحصول على تقدير زات أراس، كان سيستمر في مجاراتي بحيث يمكنه أن يحمل رسالتي إلى سيده دليلًا على الولاء والإخلاص.

مر ثلاثون يومًا منذ أعطيت الشباب الرسالة. ومرت ثلاثمائة وثلاثون يومًا منذ حبسي. وبأقرب تقدير يمكنني حسابه، يتبقى فقط ثلاثون يومًا قبل أن يصدر أمر إلى ديجاه ثوريس بالذهاب إلى الحلبة في طقوس إيسوس.

عندما فرضت هذه الصورة الرهيبة نفسها حية على مخيلتي، دفنت وجهي في ذراعي، وتمكنت بصعوبة بالغة من كبت الدموع التي فرت من عيني على الرغم من كل جهد. فكرت في هذه المخلوقة الجميلة تمزقها الأنياب القاسية للقرود البيضاء البشعة! هذا لا يمكن تصوره. لا يمكن أن تحدث هذه الحقيقة البشعة؛ ومع ذلك قال لي عقلي إن أميرتي التي لا تُضاهى سوف تقتلها هذه الحيوانات شديدة الشراسة في غضون ثلاثين يومًا في حلبة الأبناء الأوائل، وسيجرون جثمانها النازف خلال التراب

والغبار، إلى أن يتم تخليص جزء منه في نهاية المطاف ليُقدم بمثابة غذاء على مائدة النبلاء السود.

كنت على وشك الجنون. سمعت صوت سجاني يقترب، مما صرف انتباهي عن الأفكار الرهيبة التي كانت شغلي الشاغل تمامًا. تبادرت إلى ذهني الآن فكرة جديد قاتمة. يجب أن أقوم بجهد بشري خارق حتى أتمكن من الهرب؛ أقتل سجاني بحيلة، وأثق أن قدري سيقودني إلى العالم الخارجي سالمًا.

مع الفكر، بدأ العمل الفوري. ألقيت نفسي على أرض زنزانتي بالقرب من الجدار، في وضع متوتر ومشوه، كأنما سقط ميتًا بعد صراع أو تشنجات. وعندما ينحني فوقي، سأقبض رقبته بيد واحدة وأضربه ضربة هائلة بسلاسلي التي أمسك بها بقوة في يدي اليمنى لهذا الغرض.

زاد اقتراب الرجل الذي قررت قتله. والآن أسمعه يقف أمامي. سمعت همهمة متعجبة، ثم خطوات وهو يأتي إلى جانبي. شعرت به يركع بجواري. شددت قبضتي على السلسلة. انحنى قريبًا مني. يجب أن أفتح عيني لأعثر على رقبته، وأمسك بها وأضربه ضربة قوية واحدة في اللحظة نفسها.

تحقق الهدف كما خططت له تمامًا. كان الفاصل الزمني بين فتح عيني وسقوط السلسلة قصيرًا جدًّا بحيث لم أتمكن من التحقق من الشخص، لكنني تعرفت في هذه الدقيقة الفاصلة على الوجه القريب جدًّا مني ... كان ابني، كارثوريس.

يا إلهي! ما هذا المصير القاسي والخبيث الذي أوصلني إلى هذه

النهاية المخيفة! أي سلسلة ملتوية من الظروف قادت ابني إلى جانبي في هذه اللحظة تحديدًا من حياتنا، لأضربه وأقتله، وأنا أجهل هويته! أغشت عناية إلهية كريمة بصري وعقلي، وأنا أغرق فاقد الوعي عند جسد ابني الوحيد.

عندما استعدت الوعي، شعرت بيد هادئة قوية تضغط على جبهتي. للحظة لم أفتح عيني. كنت أحاول جمع النهايات المفككة للعديد من الأفكار والذكريات التي طافت مراوغة عبر ذهني المتعب والمجهد.

تذكرت بالتفصيل قسوة ما فعلته في آخر تصرف واع لي، وعندئذ لم أجرؤ على فتح عيني خشية أن أرى الجسد المُلقى بجواري. تساءلت عن من أسعفني. من المؤكد أن كارثوريس كان بصحبته رفيق لم أره. حسنًا، يجب أن أواجه المحتوم في وقت ما، إذن لماذا ليس الآن، وفتحت عيني متنهدًا.

كان الذي يميل ناحيتي هو كارثوريس، وتوجد كدمة كبيرة على جبهته حيث ضربته السلسلة، لكنه على قيد الحياة، شكرًا يا إلهي، على قيد الحياة! لم يكن أحد معه. مددت ذراعي، وأخذت ابني داخلهما، فإذا كانت قد صدرت من أي كوكب صلاة امتنان حارة، فهي صلاتي هناك تحت قشرة المريخ المحتضر عندما شكرت السر الأبدي للحفاظ على حياة ابني.

كانت اللحظة القصيرة لرؤيتي كارثوريس، والتعرُّف عليه قبل سقوط السلسلة، كافية للتحقق من قوة الضربة. قال لي إنه سقط فاقد الوعي لفترة، لكنه لا يعرف لكم من الوقت.

«كيف وصلت إلى هنا أساسًا؟»، سألته مندهشًا من أنه وجدني دون مرشد.

«إنها فطنتك التي أبلغتني بوجودك وحبسك، من خلال الشاب بارثاك. كنا نتصور أنك ميت، إلى أن جاء من أجل عتاده وسيفه. عندما قرأت رسالتك، فعلت ما طلبته مني وأعطيت بارثاك ما اختاره من عتاد في غرفة الحرس، وبعد ذلك جلبت له السيف القصير المرصع. ولكني في اللحظة التي أوفيت فيها بوعدك له، توقف التزامي تجاهه. وشرعت بعد ذلك في استجوابه، لكنه لم يعطني أي معلومات عن مكان وجودك. كان شديد الولاء لزات أراس.

وفي النهاية، أعطيته خيارًا عادلًا بين الحرية والحُفر تحت القصر - ثمن الحرية هو معلومات كاملة حول مكان سجنك والاتجاهات التي تقودنا إليك؛ لكنه حافظ على تشدده العنيد. ولأني كنت يائسًا، أبعدته إلى الحفر، حيث لا يزال هناك.

لم تُحركه أي تهديدات بالتعذيب أو الموت، ولا الرشاوى مهما كانت فاخرة. كان رده الوحيد على إلحاحنا هو أنه عندما يموت بارثاك، سواء غدًا أو بعد ألف سنة، لن يقول أي رجل بحق 'خائن ذهب إلى بيداءه'.

وأخيرًا، وضع زودار، وهو بارع في المكر، خطة يمكن بمقتضاها أن نستنبط المعلومات منه. وهكذا، ارتدى هور فاستوس عتاد معدن جندي زودانجي، وقيدناه بالسلاسل في زنزانة بارثاك بجواره. ولمدة خمسة عشر يومًا، وقد ضعف هور فاستوس النبيل في ظلام الحفر، ولكن لم

يكن ذلك دون جدوى. فقد فاز شيئًا فشيئًا بثقة وصداقة الزودانجي، إلى أن تحدث بارثاك اليوم فقط، متصورًا أنه لا يتكلم مع ابن بلده فحسب، وإنما مع صديق عزيز، وكشف لهور فاستوس عن موقع الزنزانة الدقيق التي توجد أنت فيها.

لم يستغرق الأمر مني سوى وقت قصير لتحديد خرائط حُفر هيليوم في الأوراق الرسمية. مع ذلك، كان الوصول إليك مسألة صعبة. فكما تعرف، بينما ترتبط جميع الحُفر ببعضها تحت المدينة، فلا يوجد سوى مدخل واحدة من تلك المداخل الموجودة تحت كل قسم وما يجاوره، وهذا عند المستوى الأعلى الموجود تحت الأرض مباشرة.

وهناك، بطبيعة الحال، حراسة دائمة للفتحات التي تؤدي من الحفر المتجاورة إلى تلك الموجودة تحت المباني الحكومية. وبالتالي، وصلت بسهولة إلى مدخل الحُفر تحت القصر الذي يشغله زات أراس، ووجدته تحت حراسة جندي زودانجي. تركته عندما مررت به، لكن روحه لم تعد معه».

أنهى كلامه ضاحكًا: «وها أنا الآن، فقط في الوقت المناسب لتقتلني».

كان كارثوريس خلال حديثه يحاول فك القفل الذي يقيدني؛ والآن، وبصيحة سعادة، أسقط نهاية السلسلة على الأرض. وقفت مرة أخرى، مطلق السراح من القيود الحديدية المزعجة التي أغضبتني لمدة سنة تقريبًا.

أحضر لي كارثوريس معه سيفًا طويلًا وخنجرًا، وانطلقنا مُسلحين

في رحلة العودة إلى قصري.

عند موقع مغادرتنا حُفر زات أراس، وجدنا جثة الحارس الذي قتله كارثوريس. لم تُكتشف بعد. وبغية تأخير البحث وإيقاع الحيرة في أناس الجِد، حملنا جثة الحارس معنا لمسافة قصيرة، وأخفيناها في زنزانة صغيرة قبالة الممر الرئيس للحُفر أسفل عقارات مجاورة.

وصلنا إلى الحُفر تحت قصرنا بعد حوالي نصف ساعة، وسرعان ما وصلنا إلى القاعة العامة بالقصر، حيث وجدنا كانتوس كان وتارس تاركاس وهور فاستوس وزودار ينتظروننا بفارغ الصبر.

لم نضيع الوقت في سرد عقيم لسجني؛ فقد كنت أرغب في معرفة مدى تنفيذ الخطط التي وضعناها منذ عام تقريبًا.

قال كانتوس كان: «لقد استغرق الأمر منا وقتًا أطول بكثير مما كنا نتوقع. فقد أعاقنا كثيرًا اضطرارنا إلى الحفاظ على السرية المطلقة. جواسيس زات أراس في كل مكان. مع ذلك، وعلى حد علمي، لم تصل أي كلمة من خططنا الحقيقية إلى أذن الشرير.

يوجد الليلة، حول أحواض السفن الكبيرة في هاستور، أسطول يضم ألفًا من أعتى السفن الفضائية الحربية التي أبحرت على الإطلاق فوق برسوم، وكل منها مجهزة للإبحار في هواء ومياه أوميان نفسه. وتحمل كل سفينة حربية خمس عشرة سفينة أصغر تضم كُلٌّ منها عشرة رجال، هذا بالإضافة إلى عشر طائرات استطلاع تحمل كل منها خمسة عشر رجلًا؛ أي في المجمل مائة وستة عشر ألف قطعة مزودة بمراوح الهواء والماء على حد سواء.

«وفي ثارك، توجد سفن لنقل المحاربين الخُضر التابعين لتارس تاركاس، تسعمائة سفينة جند كبيرة بقوافلها. ونحن جميعًا على أهبة الاستعداد منذ سبعة أيام، وانتظرنا على أمل أن نتمكن من إنقاذك في الوقت المناسب لكي تقود الحملة. ومن الجيد أننا انتظرنا، يا أميري».

سألت: « تارس تاركاس، كيف لم يتخذ رجال ثارك الإجراءات المعتادة ضد شخص عاد من حضن إيس؟».

أجاب الثاركي: «أرسلوا مجلسًا يضم خمسين زعيمًا للتحدث معي هنا. نحن شعب عادل. وعندما أخبرتهم القصة بأكملها، وافقوا كرجل واحد على أن التصرف تجاهي سوف يسترشد بتصرف هيليوم تجاه جون كارتر. وفي الوقت نفسه، وبناء على طلبهم، كان يتعين أن أستعيد عرشي كجيداك لثارك، حتى يمكنني التفاوض مع جحافل المحاربين المجاورة لتشكيل القوات البرية للحملة. وقد فعلت. جمعت مائتين وخمسين ألف مقاتل من الغطاء الجليدي في الشمال إلى الغطاء الجليدي في الجنوب، يمثلون ألف جماعة مختلفة، من مائة من الجحافل الشرسة المحبة للحرب، ويحتشدون الليلة في مدينة ثارك الكبيرة، وهم على أهبة الاستعداد للإبحار إلى أرض الأبناء الأوائل عندما أعطيهم الإشارة، وسيحاربون هناك إلى أن أطلب منهم التوقف. كل ما يطلبونه هو الغنائم التي يحصلون عليها، ونقلهم إلى أراضيهم عند انتهاء القتال وأخذ الغنائم. انتهى حديثي».

سألت: «وأنت، هور فستوس، ما النجاح الذي حققته؟».

أجاب: «هناك مليون مقاتل متمرس من الممرات المائية الصغيرة

في هيليوم يشكلون أطقم السفن الحربية، وسفن النقل، والقوافل. أقسم كل منهم على الولاء والسرية، ولم نُجند عددًا كبيرًا من المنطقة الواحدة حتى لا نثير الشك».

صحت: «جيد! قام كل بواجبه. والآن، كانتوس كان، أليس علينا أن نتجه على الفور إلى هاستور ونبدأ طريقنا قبل شمس الغد؟».

أجاب كانتوس كان: «يجب ألا نضيع أي وقت يا أميري. شعب هاستور يتساءل بالفعل عن غرض أسطول ضخم كهذا بأطقم كاملة من المقاتلين. وأتساءل كثيرًا عما إذا كان أي خبر قد وصل إلى زات أراس. هناك سفينة تنتظر في أعلى، في حوض السفن الخاص بك؛ فلنغادر في...» – قطع وابل من الطلقات من حدائق القصر كلماته.

هرعنا جميعًا إلى الشرفة في الوقت المناسب لنرى أكثر من عشرة من أفراد حرس قصري يختفون في ظلال بعض الشجيرات البعيدة، كأنما يطاردون شخصًا يفر. وأسفلنا مباشرة، فوق المرجة القرمزية، انحنت حفنة من رجال الحرس فوق شخص منبطح هامد.

أمرتهم بحمل الشخص وإحضاره إلى القاعة العامة حيث نجتمع. عندما مددوا الجسد أمام أقدامنا، رأينا أنه لرجل أحمر في مقتبل العمر– معادنه كانت عادية، مثل ملابس الجنود العاديين، أو من يرغبون في إخفاء هويتهم.

قال هور فاستوس: «جاسوس آخر من جواسيس زات أراس».

قلت: «يبدو ذلك»، ثم قلت للحارس: «يمكنك إخراج الجثة».

قال زودار: «انتظر!. بعد إذنك يا أمير، أطلب إحضار قطعة قماش، وقليلًا من زيت الثوات».

أشرت إلى أحد الجنود، فغادر الغرفة وعادة بالأشياء التي طلبها زودار. ركع الرجل الأسود بجانب الجثة، وغمس طرف القماش في زيت الثوات، وحك للحظة وجه الميت أمامه. ثم التفت لي بابتسامة، مُشيرًا إلى عمله. نظرت ورأيت أن زيت الثوات الذي وضعه زودار كشف عن وجه أبيض، أبيض كوجهي، ثم أمسك زودار الشعر الأسود من الجثة، وسحبه بشده على نحو مفاجئ، كاشفًا عن رأس أصلع تحته.

تزاحم الحرس والنبلاء مقتربين حول الشاهد الصامت على الأرض الرخامية. كثيرة كانت هتافات الدهشة والتساؤلات العجيبة، حيث أكدت أفعال زودار شكوكه.

همس تارس تاركاس: «ثيرني!».

أجاب زودار: «أخشى أنه أسوأ من ذلك. ولكن دعونا نرى».

سحب خنجره ومزق الحقيبة المقفلة التي كانت تتدلى من عتاد الثيرني، ومنها أخرج طوق ذهبي مرصع بجوهره كبيرة- كانت مماثلة لتلك التي أخذتها من ساتور ثروج.

قال زودار: «كان ثرنيًا مقدسًا. من حسن حظنا بالفعل أنه لم يهرب».

دخل ضابط الحرس إلى الغرفة في هذه اللحظة.

قال: «يا أميري، يجب أن أبلغك أن رفيق هذا الزميل هرب منا. وأعتقد أن ذلك كان بالتواطؤ من واحد أو أكثر من الرجال عند البوابة.

وقد أمرت باعتقالهم جميعًا».

سلمه زودار زيت الثوات وقطعة القماش.

وقال: «بهذا يمكنك اكتشاف الجاسوس بينكم».

أمرت على الفور بإجراء بحث سري داخل المدينة لكل نبيل مريخي يحتفظ بخدمة سرية خاصة به.

بعد نصف ساعة، جاء ضابط الحرس مرة أخرى بتقريره. وهذه المرة كان لتأكيد أسوأ مخاوفنا- نصف الحراس عند البوابة في تلك الليلة كانوا من الثيرن المتنكرين في زي الرجال الحُمر.

صحت: «هيا! يجب ألا نضيع أي وقت. إلى هاستور على الفور. وإذا حاول الثيرن التحقق منا عند الحافة الجنوبية للغطاء الجليدي، فقد يؤدي هذا إلى تدمير جميع خططنا وتدمير الحملة بالكامل».

وبعد عشر دقائق كنا نسرع خلال الليل نحو هاستور، على أهبة الاستعداد لتوجيه الضربة الأولى لحماية ديجاه ثوريس.

* * *

(٢٠)

المعركة الجوية

بعد أن تركنا قصري في هيليوم بساعتين، أو في حوالي منتصف الليل، وصلت مع كانتوس كان وزودار إلى هاستور. توجه كارثوريس وتارس تاركاس وهور فاستوس مباشرة إلى ثارك على سفينة فضائية أخرى.

بدأت سفن النقل تتحرك على الفور، متجهة ببطء نحو الجنوب. وسوف يلحق بها أسطول السفن الحربية في صباح اليوم الثاني.

في هاستور، وجدنا الجميع على أهبة الاستعداد. لقد خطط كانتوس كان بدقة كافة تفاصيل الحملة، بحيث حلق عاليًا أول جزء من الأسطول من رصيفه في غضون عشر دقائق من وصولنا، وبعد ذلك بثانية واحدة، طفت السفن الكبيرة برشاقة خلال الليل لتُشكل خطًّا رفيعًا طويلًا امتد لأميال نحو الجنوب.

لم أُفكر في السؤال عن تاريخ اليوم إلا بعد دخولنا مقصورة كانتوس كان، فحتى الآن لم أكن متيقنًا من المدة التي قضيتها في حُفر زات أراس. وعندما أخبرني كانتوس كان، أدركت بفزع أنني أخطأت في حساب

الوقت الذي قضيته في ظلام زنزانتي المطلق. لقد مرت ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا– تأخر الوقت كثيرًا لإنقاذ ديجاه ثوريس.

لم تعُد الحملة للإنقاذ، وإنما للانتقام. لم أُخبر تذكير كانتوس كان بهذه الحقيقة المروعة: أننا قبل أن نأمل في دخول معبد إيسوس، لن تكون أميرة هيليوم موجودة. وبقدر ما كنت أعرف، قد تكون ميتة بالفعل، إذ لا أعرف التاريخ الدقيق الذي شاهدت فيه إيسوس للمرة الأولى.

ما قيمة إثقال أصدقائي الآن بعبء أحزاني الشخصية الإضافية– لقد شاركوني تمامًا ما يكفي منها في الماضي. ومن الآن فصاعدًا، سوف أحتفظ بأحزاني لنفسي؛ ولذا لم أقل شيئًا لأي شخص عن حقيقة أننا تأخرنا جدًّا. على أن الحملة يمكن أن تفعل الكثير، إذا نجحت فقط في تعريف شعب برسوم بحقائق الخداع القاسية التي عاشوها لعدد لا يُحصى من العصور، وبالتالي إنقاذ آلاف سنويًّا من المصير المروع الذي ينتظرهم في نهاية الحج الطوعي.

إذا أمكن أن تفتح الحملة للرجال الحُمر وادي دور الجميل، تكون قد أنجزت الكثير؛ ففي أرض الأرواح الضائعة بين جبال أوتز والحاجز الجليدي، هناك العديد من الفدادين الواسعة التي لا تحتاج إلى الري لتثمر محاصيل غنية.

وهنا في الجزء السفلي من العالم المحتضر، توجد المساحة الإنتاجية الطبيعية الوحيدة على سطحه. وهنا فقط توجد النداوة والأمطار، وهنا فقط يوجد بحر مفتوح، وهنا يوجد الماء بوفرة؛ وكل هذا الآن ليس سوى منتجع مُفضل للمتوحشين الشرسين، ومن هذه الرقعة

الفسيحة الجميلة والخصبة منعت الفلول الشريرة لعِرقين كانا قويين في يوم ما جميع الملايين الأخرى في برسوم. إذا أمكنني أن أنجح فقط في كسر حاجز الخرافات الدينية التي أبقت الأعراق الحمراء عن هذه الأرض الثرية الرائعة، سيكون هذا نصبًا تذكاريًّا ملائمًا للفضائل الخالدة لأميرتي- يجب أن أخدم برسوم مرة أخرى، وعندئذ لن يكون استشهاد ديجاه ثوريس قد ضاع سدى.

مع أول إطلالة للفجر في صباح اليوم الثاني، جمعنا أسطول النقل الكبير والسفن المرافقة له، وسرعان ما اقتربت السفن بما يكفي لتبادل الإشارات. وجدير بالذكر أن الرسائل الجوية اللاسلكية يندر استخدامها، هذا إن استُخدمت أصلًا في وقت الحرب، أو لإرسال رسائل سرية في أي وقت؛ فبمجرد أن يضع بلد شفرة جديدة، أو يخترع أداة جديدة للأغراض اللاسلكية، يبذل جيرانه كل جهد حتى يتمكنوا من اعتراض الرسائل وترجمتها. وقد استمر ذلك لفترة طويلة بحيث استُنفِدت عمليًّا كل إمكانية للاتصال اللاسلكي، ولم تعد أي أمة تجرؤ على بث رسائل مهمة عبر هذا السبيل.

أفاد تارس تاركاس أن الأمور جيدة في سفن النقل. تحركت السفن الحربية لتتخذ موقفًا متقدمًا، وتحركت الأساطيل مجتمعة ببطء عبر الغطاء الجليدي، وهي تعانق السطح عن كثب حتى لا يكتشف الثيرن أننا نقترب من أراضيهم.

بعيدًا، ومتقدمًا عن الجميع، كان الخط الرفيع من طائرات الاستطلاع الجوي ذات الراكب الواحد تحمينا من المفاجأة. كانت تحيط بنا على

الجانبين، بينما يتولى عدد أصغر الحماية خلف سفن النقل بحوالي عشرين ميلًا. أحرز تشكيلنا هذا تقدمًا نحو مدخل أوميان لعدة ساعات، ثم عادت إحدى طائرات الاستطلاع من المقدمة لتفيد بأن قمة المدخل المخروطية أصبحت على مرمى البصر. وفي اللحظة نفسها تقريبًا، اتجهت طائرة استطلاع أخرى من الجناح الأيسر نحو السفينة الرئيسة.

دلت سرعتها الشديدة على أهمية معلوماتها. انتظرناها أنا وكانتوس كان على سطح السفينة الأمامي الصغير، الذي يناظر جسر السفن على كوكب الأرض. وقبل أن تستقر الطائرة الصغيرة على سطح الهبوط الواسع للسفينة الرئيسة، قفز الطيار متجهًا إلى حيث وقفنا مباشرة.

صاح: «هناك أسطول كبير من السفن الحربية جنوب الجنوب الشرقي، يا أميري. من المؤكد أنهم عدة آلاف، وأنهم يتجهون نحونا مباشرة».

قال لي كانتوس كان: «لم يكن وجود جواسيس الثيرن في قصر جون كارتر عبثًا. أوامرك، يا أمير».

«أرسل عشر سفن حربية لحراسة مدخل أوميان، مع أوامر بعدم السماح لأي عدو بالدخول أو الخروج من البئر. هذا سوف يسحق أسطول الأبناء الأوائل الضخم.

قم بتشكل السفن الحربية على شكل علامة V كبيرة، على أن تشير قمتها مباشرة نحو جنوب الجنوب الشرقي. وأصدر أمرًا إلى سفن النقل المحاطة بقوافلها بأن تتحرك عن كثب في أعقاب السفن الحربية إلى أن تدخل قمة العلامة V خط الأعداء، وعندئذ يجب فتح العلامة من عند

قمتها نحو الخارج، وتنخرط السفن الحربية بكل ساق من سيقان العلامة مع العدو بشراسة وتجبره على العودة لتشكيل ممر خلال خطه، ويجب أن تدخله سفن النقل وقوافلها بأقصى سرعة بحيث يمكنهم الفوز بموقع فوق معابد وحدائق الثيرن.

وهنا اسمح لهم بالهبوط وإعطاء الثيرن المقدسين درسًا في الحرب الشرسة لن ينسوه لعدد لا يُحصى من العصور. لم تكن نيتي صرف انتباهي عن القضية الرئيسة الخاصة بالحملة، لكننا يجب أن نُخمِد هذا الهجوم مع الثيرن مرة وإلى الأبد، أو لن يتحقق لنا أي سلام بينما لا يزال أسطولنا بالقرب من دور، وستتقلص كثيرًا فرص عودتنا على الإطلاق إلى العالم الخارجي».

قدم كانتوس كان التحية، واستدار لإيصال تعليماتي إلى مساعديه المنتظرين. وخلال فترة زمنية قصيرة جدًّا، تغير تشكيل السفن الحربية وفقًا لأوامري؛ أسرعت السفن العشرة المكلفة بحراسة الطريق إلى أوميان نحو وجهتها، واقتربت سفن نقل الجنود وقوافلها استعدادًا للتدفق من خلال الممر.

صدر الأمر باتخاذ السرعة الكاملة، وانطلق الأسطول عبر الهواء مثل مطاردات كلاب الصيد، وفي لحظة تالية أصبحت سفن العدو على مرمى البصر بالكامل. لقد شكلت خطًّا غير منتظم، بقدر ما يمكن أن تصل العين في الاتجاهين، وعلى عمق ثلاث سفن تقريبًا. كان هجومنا مفاجئًا بحيث لم يكن لديهم وقت للاستعداد له. كان غير متوقع، كالبرق من سماء صافية.

نجحت كل مرحلة من خطتي نجاحًا رائعًا. شقت سفننا الضخمة طريقها بالكامل خلال خط طائرات الثيرن الحربية؛ ثم انفتحت علامة V وظهر ممر واسع، قفزت خلاله سفن النقل متجهة نحو معابد الثيرن التي أصبحنا الآن نراها بوضوح تلمع في ضوء الشمس. وخلال الفترة التي استغرقها الثيرن للتجمع ثانية بعد هجومنا، كان مائة ألف محارب أخضر يتدفقون بالفعل عبر الساحات والحدائق، بينما مائة وخمسين ألف آخرين يميلون من سفن النقل التي تتأرجح منخفضة لتسديد طلقات الرماة الخارقة نحو جنود الثيرن الرابضين عند الأسوار أو يحاولون الدفاع عن المعابد.

انخرط الآن الأسطولان الكبيران في صراع جبار فوق الجلبة الشيطانية للمعركة في حدائق الثيرن الرائعة. انضمت ببطء نهاية هذين الخطين من سفن هيليوم الحربية، ثم بدأت في التحليق داخل خط العدو بما يُعد سمة من سمات الحرب البحرية البرسومية.

دارت السفن هنا وهناك في مسارات بعضها بعضًا بقيادة كانتوس كان، إلى أن شكلت دائرة كاملة تقريبًا. وأخذت تتحرك بسرعة عالية بحيث كانت هدفًا صعبًا للعدو. قامت بهجمات مركزة واحدة تلو الأخرى، مع وصول كل سفينة إلى صفوف الثيرن. حاولت سفن الثيرن الاندفاع وتفريق التشكيل، لكن الأمر كان يماثل وقف منشار دائري بيد عارية.

من موقعي على سطح السفينة بجانب كانتوس كان، رأيت سفينة تلو الأخرى من سفن العدو تغطس بشكل مقزز فظيع، بما يعلن عن

تدميرها الكامل. تحركنا ببطء في دائرة الموت التي شيدناها، إلى أن أصبحنا فوق الحدائق حيث يشتبك محاربونا الخُضر. أصدرنا لهم الأمر بالبدء، وعندئذ ارتفعوا ببطء إلى موقع مركز الدائرة.

وفي الوقت نفسه، توقفت نيران الثيرن عمليًّا. نال الثيرن ما فيه الكفاية، وكأنهم يرغبون في تركنا نمضي في طريقنا بسلام. لكن هروبنا لم يكن ليحدث بهذه السهولة، فبمجرد أن واصلنا طريقنا ثانية في اتجاه مدخل أوميان، رأينا بعيدًا في الشمال خطًّا أسود كبير يتصدر الأفق. لا يمكن أن يكون أي شيء سوى أسطول حربي.

لم نتمكن حتى من تخمين انتماء هذا الأسطول أو إلى أين يتجه. ومع اقتربه، استقبل عامل اللاسلكي عند كانتوس كان رسالة جوية لاسلكية وسلمها فورًا إلى رفيقي، الذي قرأها وسلمها لي.

تقول الرسالة: «كانتوس كان، استسلم، باسم جيداك هيليوم؛ لأنك لن تتمكن من الهرب»، وكانت الرسالة بتوقيع «زات أراس».

من المؤكد أن الثيرن استقبلوا الرسالة وترجموها في نفس الوقت مثلنا؛ لأنهم جددوا على الفور الأعمال العدائية عندما أدركوا أن أعداء آخرين سيهاجموننا.

قبل أن يقترب زات أراس بما يكفي لإطلاق النار، اشتبكنا مرة أخرى بضراوة مع أسطول الثيرن، وما إن زاد اقتراب زات أراس، حتى بدأ في إطلاق وابل رهيب من النيران الكثيفة ضدنا. ترنحت سفينة بعد الأخرى وتهاوت متعطلة تحت النيران القاسية التي نتعرض لها.

كان يصعب استمرار هذا الوضع لفترة أطول؛ فأمرت سفن النقل بالهبوط مرة أخرى إلى حدائق الثيرن.

كانت رسالتي إلى الحلفاء الخُضر: «اشفوا غليل انتقامكم إلى أقصى حد، فلن يتبق بعد الليلة من يثأر لعدوانكم».

رأيت الآن السفن الحربية العشرة التي أمرتها بحراسة بئر أوميان. كانت عائدة بأقصى سرعة، وتطلق مدفعيتها الشديدة بشكل مستمر تقريبًا. لا يمكن أن يوجد إلا تفسير واحد: هناك أسطول مُعادٍ آخر يطاردها. حسنًا، لا يمكن أن يسوء الوضع أكثر من ذلك؛ حملتنا محكوم عليها بالفشل. لا يوجد إنسان شرع فيها سيعود عبر هذا الغطاء الجليدي الكئيب. كم تمنيت أن أواجه زات أراس بسيفي الطويل لمجرد لحظة قبل أن أموت! فهو سبب فشلنا.

بمثل ما شاهدت السفن العشرة قادمة، رأيت مطارديهم مسرعين على مرمى البصر. كان أسطولًا ضخمًا آخر. للحظة لم أصدق عيني، لكنني في النهاية اضطررت للاعتراف بأن الكارثة الأكثر فداحة قد حلت بالحملة. فالأسطول الذي رأيته لم يكن سوى أسطول الأبناء الأوائل، الذين من المفترض أننا عرقلنا تحركاتهم في أوميان. يا لها من سلسلة من المحن والكوارث! ما هذا المصير الفظيع الذي يحلق فوقي، ويواجهني بشكل رهيب في كل زاوية من بحثي عن حبي المفقود! هل هي لعنة إيسوس! أهناك، بالفعل، إله خبيث في ذلك الجسد البشع! لا أعتقد. رفعت كتفي، وركضت إلى السطح الأدنى للسفينة للانضمام إلى رجالي في صد من يحاولون الصعود إلى سفينتنا من إحدى مركبات الثيرن التي

اشتبكت معنا في هجوم مُركز. عاد أملي القديم الشجاع، مع الشهوة الجامحة للقتال وجهًا لوجه،. ومع سقوط الثيرن واحدًا تلو الآخر تحت ضربات سيفي، كدت أشعر أننا سنحقق النجاح في نهاية المطاف، حتى من هذا الفشل الظاهر.

وجودي بين الرجال شجعهم إلى حد كبير، فانقضوا على البيض قليلي الحظ بضراوة رهيبة جعلتنا خلال لحظات قليلة نقلب المائدة عليهم، وبعد ثانية، ونحن نتدفق إلى أسطح مركباتهم، شعرت بالارتياح لرؤية قائدهم يقفز قفزة طويلة من مقدمة سفينته رمزًا للاستسلام والهزيمة.

انضممت إلى كانتوس كان، الذي يشاهد ما حدث على سطح السفينة أدناه، ويبدو أن هذا أعطاه فكرة جديدة. أصدر على الفور أمرًا لأحد ضباطه، وعلى الفور انطلقت رايات أمير هيليوم من كل نقطة في السفينة الرئيسة. ارتفع هتاف كبير من رجال سفينتنا، هتاف رددته كل سفينة أخرى في حملتنا وهي تُطلِق راياتي من الأجزاء العلوية بسفنهم.

ثم أطلق كانتوس كان ضربته المفاجئة. ارتفعت عاليًا على السفينة الرئيسة إشارة واضحة لكل بحار بجميع الأساطيل المشتبكة في هذا الصراع العنيف.

كانت تُقرأ: «رجال هيليوم، من أجل أمير هيليوم، وضد جميع أعدائه». تنطلق الآن راياتي من إحدى سفن زات أراس، ثم من سفينة آخرى، ثم أخرى. رأينا في بعض سفنهم معارك شرسة بين جنود زودانجا وأطقم هيليوم، لكن رايات أمير هيليوم طافت عمليًّا فوق جميع السفن

التابعة لزات أراس- فقط سفينته الرئيسة لم ترفع الرايات.

لقد جلب زات أراس خمسة آلاف سفينة. وكانت السماء سوداء بثلاثة أساطيل ضخمة. أصبحت هيليوم في ساحة المعركة الآن، وانتهى القتال بعدد لا يحصى من المبارزات الفردية. تصعب مناورات الأساطيل في تلك السماء مزدحمة التي يمزقها النيران.

كانت سفينة زات أراس الرئيسة قريبة من سفينتي. وتبينت بوضوح، من حيث أقف، ملامح الرجل الرفيعة. شن طاقمه الزودانجي هجمات مركزة متتالية نحونا، وكنا نرد على نيرانهم بضراوة متساوية. زاد اقتراب السفينتين إلى أن تواجهتا على بُعد بضعة ياردات. قام المقاتلون بصف القضبان المتلامسة للسفينتين. كنا نستعد لقتال حتى الموت مع عدونا المكروه.

لم تكن تفصلنا سوى ياردة واحدة. هرعت إلى سطح السفينة لأكون بجانب رجالي وهم يصعدون. وبمجرد أن اصطدمت السفينتان صدمة طفيفة، شققت طريقي، وكنت أول من قفز إلى سطح سفينة زات أراس. تدفق بعدي صراخ وهتاف ولعنات غفيرة من أفضل مقاتلي هيليوم. لا شيء يمكن أن يوقفهم في حمى شهوة المعركة التي تفتنهم.

تساقط الزودانجيون أمام هذا المد المتزايد للحرب، وبعد أن أخلى رجالي الطوابق السفلية، انطلقت إلى سطح السفينة الأمامي حيث وقف زات أراس.

صحت: «أنت أسيري، زات أراس. استسلم وسوف أرحمك».

لم أتمكن للحظة من تحديد تفكيره؛ يوافق على طلبي أم يواجهني بالسيف. وقف مترددًا للحظة، ثم ألقى ذراعيه واستدار مندفعًا إلى الجانب الآخر من سطح السفينة. وقبل أنا أتمكن من اللحاق به، قفز عبر الدرابزين، وألقى بنفسه إلى الأعماق الفظيعة أدناه.

وهكذا وصل زات أراس، جِد زودانجا، إلى نهايته.

استمرت تلك المعركة الغريبة. لم يتحد الثيرن والسود ضدنا. أينما تلتقي سفينة ثيرنية مع سفينة للأبناء الأوائل، تكون المعركة شرسة؛ وفكرت أن هذا ربما خلاصنا. عندما كانت تُتاح فرصة تمرير رسائل بيننا دون أن يعترضها أعداؤنا، كنت أرسل كلمة بأن تنسحب جميع سفننا من المعركة بأسرع ما يمكن، وأن تتخذ وجهتها غرب وجنوب المقاتلين. كما أرسلت طائرة استطلاع جوي للمقاتلين الخُضر في الحدائق أدناه للاستعداد، ولسفن النقل لتنضم إلينا.

كما أصدرت تعليمات أيضًا إلى القادة بسرعة سحب الخصم، عند الاشتباك، نحو سفينة خصومه المتوارثين، وإجبار الاثنين عبر مناورة دقيقة على الاشتباك معًا، مما يتيح لهذا القائد وجنوده فرصة الانسحاب. نجحت هذه الخدعة إلى حد الكمال، وقبل غروب الشمس مباشرة، كنت مستريحًا لرؤية أن كل ما تبقى من أسطولي الذي كان قويًا قد تجمع على بعد حوالي عشرين ميلًا جنوب غرب المعركة التي لا تزال مشتعلة بين السود والبيض.

نقلت الآن زودار إلى سفينة حربية أخرى، وأرسلت معه جميع سفن النقل وخمسة آلاف سفينة حربية للتوجه مباشرة إلى معبد إيسوس.

وأخذت أنا وكارثوريس وكانتوس كان، السفن المتبقية وتوجهنا نحو مدخل أوميان.

خطتنا الآن هي محاولة شن هجوم مشترك على إيسوس فجر اليوم التالي: تارس تاركاس مع المحاربين الخُضر، وهور فاستوس مع الرجال الحُمر يهبطون، مسترشدين بزودار، داخل حديقة إيسوس أو السهول المحيطة بها؛ بينما أتولى ومعي كارثوريس وكانتوس كان، قيادة قوة أصغر من بحر أوميان عن طريق الحُفر تحت المعبد، التي يعرفها كارثوريس جيدًا.

علمت الآن للمرة الأولى سبب تراجع سفني العشرة من فوهة مدخل البئر. يبدو أنها عندما وصلت فوق البئر، كانت بحرية الأبناء الأوائل تتدفق بالفعل من فوهته. برزت عشرون سفينة، وعلى الرغم من أنها شنت معركة على الفور في محاولة لوقف المد التي توالى من الحفرة السوداء، فلم تكن فرصهم كبيرة جدًّا، وأُجبروا على الفرار.

اقتربنا بحذر شديد من البئر، تحت جنح الظلام. وعلى مسافة عدة أميال، أمرت الأسطول بالتوقف، ومن هناك تقدم كارثوريس بمفرده في طيارة لراكب واحد من أجل الاستطلاع. عاد بعد حوالي نصف ساعة، عاد ليخبرنا بعدم وجود أي علامة على قارب دورية أو عدو بأي شكل من الأشكال، وبالتالي تحركنا سريعًا في صمت إلى الأمام مرة أخرى نحو أوميان.

توقفنا ثانية عند فوهة البئر قليلًا حتى تصل جميع السفن إلى مواقعها المحددة مسبقًا، ثم هبطت بسرعة بالسفينة الرئيسة إلى الأعماق السوداء،

بينما تبعتني السفن الأخرى واحدة تلو الأخرى في تتابع سريع.

قررنا المغامرة، واقتناص الفرصة للوصول إلى المعبد من الطريق تحت الأرضي، ولذا لم نترك أي سفن حراسة في مدخل البئر. كما أنها لم تكن لتفيدنا إذا تركناها؛ فقواتنا ليست كافية؛ لأننا أبلغناها أن تصد أسطول الأبناء الأوائل البحري الهائل إذا عادوا للاشتباك معنا.

لسلامة دخولنا إلى أوميان، اعتمدنا إلى حد كبير على الجرأة، اعتقادًا بأن الأمر لن يستغرق سوى القليل من الوقت قبل أن يدرك حراس الأبناء الأوائل أن العدو وليس أسطولهم العائد هو الذي يدخل قبو البحر المدفون.

ثبتت صحة ذلك. ففي واقع الأمر، استقرت بأمان أربعمائة سفينة من أسطولي، المكون من خمسمائة سفينة، في حضن أوميان قبل إطلاق الطلقة الأولى. كانت المعركة قصيرة وحامية الوطيس، على أني لم أتوقع سوى نتيجة واحدة؛ ذلك أن الأبناء الأوائل، في ظل تصوراتهم الخيالية بأن أمنهم حصين، لم يتركوا سوى حفنة من سفن ثقيلة قديمة وبالية لحراسة ميناءهم الجبار.

وبناء على اقتراح كارثوريس، أخذنا أسرانا تحت حراسة إلى جزيرتين من أكبر الجزر، ثم سحبنا سفن الأبناء الأوائل إلى البئر، حيث نجحنا في حشر عدد منها بشكل آمن داخل البئر الكبير. ثم قمنا بتشغيل أشعة الطفو نحو باقي سفنهم، وسمحنا لهم بالارتفاع بغية زيادة عرقلة المرور إلى أوميان عند ملامستهم للسفن التي سبق أن استقرت هناك.

شعرنا الآن أن أمامنا بعض الوقت على الأقل قبل أن يتمكن الأبناء

الأوائل من الوصول إلى سطح أوميان، وأن أمامنا فرصة كبيرة للوصول إلى الممرات تحت الأرضية التي تؤدي إلى إيسوس. كانت أول خطوة اتخذها هي الإسراع شخصيًّا بقوة ذات حجم جيد إلى جزيرة الغواصة، وقد استوليت عليها دون مقاومة من جانب قوات الحرس صغيرة العدد هناك.

وجدت الغواصة في الحوض، وعلى الفور وضعت حراسة قوية عليها وعلى الجزيرة، وانتظرت قدوم كارثوريس والآخرين.

كان يرستيد، قائد الغواصة، من بين الأسرى. وقد تعرف علي من الرحلات الثلاث التي كنت معه فيها خلال أسري لدى الأبناء الأوائل.

سألته: «كيف يبدو الأمر بعد أن انقلبت الموائد؟ أن تكون سجينًا لدى أسيرك السابق؟».

ابتسم، ابتسامة قاتمة جدًّا محملة بمعان خفية.

أجاب: «لن يستمر ذلك لفترة طويلة، جون كارتر. كنا نتوقعكم، ونحن مستعدون».

أجبته: «هذا ما يبدو، فقد كنتم جميعًا مستعدين للوقوع في الأسر بمجرد هجمة تضرب من الجانبين».

قال: «من المؤكد أن الأسطول لم يدركك، لكنه سيعود إلى أوميان وعندئذ سيختلف الأمر كثيرًا بالنسبة إلى جون كارتر».

قلت: «لا أعرف أن الأسطول لم يدركني حتى الآن»، لكنه بالطبع لم يدرك معنى كلامي، وإنما بدا متحيرًا فقط.

سألته: «هل يسافر العديد من السجناء إلى إيسوس في مركبتك القاتمة، يرستيد؟».

قال موافقًا: «كثير جدًّا».

«هل تتذكر من بينهم شخصًا يدعوه الرجال ديجاه ثوريس؟».

«حسنا، أتذكرها في الواقع، لجمالها الرائع، وأيضًا لأنها كانت زوجة أول بشري يهرب على الإطلاق من إيسوس عبر جميع عصور ألوهيتها؛ وأيضًا بالطريقة التي تتذكرها بها إيسوس أكثر، فإنها زوجة شخص وأم شخص آخر رفع كلاهما إيديهم ضد إلهة الحياة الأبدية».

ارتعدت خوفًا من الانتقام الجبان الذي أعرف أن إيسوس قد تمارسه على ديجاه ثوريس البريئة لتدنيس ابنها وزوجها للمقدسات.

«وأين ديجاه ثوريس الآن؟»، سألته مع علمي أنه سيقول الكلمات التي تُعد أكثر ما يفزعني، لكني أحببتها لدرجة أنني لم استطع أن أمتنع عن الاستماع حتى إلى الأسوأ بشأن مصيرها. فالكلمات التي سقطت من شفاه أحد الذين شاهدوها مؤخرًا، كانت كأنما تجلبها بالقرب مني.

أجاب يرستيد: «عُقدت أمس الطقوس الشهرية لإيسوس، ورأيتها تجلس في مكانها المعتاد عند قدم إيسوس».

صحت: «ماذا، إنها ليست ميتة إذن؟».

أجاب الأسود: «لماذا؟ كلا، لم تمر سنة منذ أن حدقت في المجد الإلهي للوجه المشع لـ...».

قاطعته: «لم تمر سنة!».

أصر يرستيد: «لماذا، كلا. فالفترة لم تزد على ثلاثمائة وسبعين أو ثمانين يومًا».

تفجر ضوء كبير فوقي. كم كنت غبيًّا! بالكاد ما أمكنني الاحتفاظ بمظهر خارجي لفرحي العظيم. لماذا نسيت الفارق الكبير بين طول سنوات مريخ وكوكب الأرض! فالسنوات العشر بمقياس كوكب الأرض التي قضيتها في برسوم لم تكن سوى خمس سنوات وستة وتسعين يومًا بمقياس المريخ الذي يزيد طول يومه بمقدار ٤١ دقيقة على طول يوم كوكب الأرض، ويبلغ عدد أيام السنة فيه ستمائة وسبعة وثمانين يومًا.

وصلت في الوقت المناسب! وصلت في الوقت المناسب! اندفعت الكلمات من خلال ذهني مرارًا وتكرارًا، ومن المؤكد أنني في النهاية قلتها بصوت مسموع، ذلك أن يرستيد هز رأسه.

«في الوقت المناسب لإنقاذ أميرتك؟»، سألني ثم قال دون انتظار إجابتي: «كلا، جون كارتر، إيسوس لن تتخلى عنها؛ فهي تعرف أنك قادم، وقبل أن يضع أي مُخرّب قدمه داخل حرم معبد إيسوس، إن حدثت مثل هذه الكارثة، ستبتعد ديجاه ثوريس إلى الأبد وينتهي آخر أمل طفيف لإنقاذها».

سألته: «تعني أنهم سيقتلونها فقط لصد تقدمي؟».

أجاب: «هذا ليس سوى الملاذ الأخير. هل سمعت من قبل عن معبد الشمس؟ سوف يضعونها هناك، حيث يقع بعيدًا داخل الساحة الداخلية لمعبد إيسوس. إنه معبد صغير يرتفع بُرجه الرفيع أعلى كثيرًا من أبراج

ومنارات المعبد العظيم الذي يحيط به. وأسفله، تحت الأرض، يقع الجسم الرئيس للمعبد ويتكون من ستمائة وسبعة وثمانين غرفة دائرية، واحد تحت الأخرى. وهناك ممر واحد ملحق بكل غرفة، يقود من خلال الصخور الصلبة إلى خارج حُفر إيسوس».

«يدور معبد الشمس كله مرة واحدة مع كل دورة لبرسوم حول الشمس. ومرة واحدة كل سنة، يأتي مدخل كل غرفة منفصلة أمام فتحة الممر الذي يُشكل صلته الوحيدة بالعالم الخارجي».

«هناك تضع إيسوس من يثيرون غضبها أو استياءها، لكنها لا تهتم بإعدامهم على الفور، أو تضع أحد نبلاء الأبناء الأوائل داخل غرفة في معبد الشمس لمدة سنة لمعاقبته. وكثيرًا ما تسجن الجلاد مع المُدان، بحيث يأتي الموت بفظاعة في يوم معين، أو لا تضع من الغذاء في الغرفة إلا ما يكفي للإبقاء على الحياة لعدد الأيام التي خصصتها إيسوس للعذاب النفسي».

«وهكذا سوف تموت ديجاه ثوريس، وسيتقرر مصيرها نهائيًّا مع خطوة أول قدم غريبة على عتبة إيسوس».

إذن سوف أُحبط في نهاية المطاف؛ فعلى الرغم من أنني قمت بمعجزة ولم يكن يفصلني عن أميرتي الإلهية سوى بضع دقائق قصيرة، فقد كنت بعيدًا عنها بمثل ما وقفت عند ضفاف هدسون على بعد ٤٨ مليون ميل.

(٢١)

عبر الفيضان واللهيب

أقنعتني معلومات يرستيد بأن الوقت المتبقي قصير. يجب أن أصل إلى معبد إيسوس سرًّا قبل أن تهاجمة القوات بقيادة تارس تاركاس عند الفجر. كنت على يقين أنني بمجرد أن أخطو داخل جدرانه الكريهة، سأتمكن من التغلب على حراس إيسوس وأحمل أميرتي بعيدًا، حيث ستأتي خلفي قوة كافية لهذه الفرصة.

انضم لي كارثوريس والآخرون، وبدأنا نقل رجالنا خلال الممر المغمور بالمياه إلى فوهة المسارات التي تؤدي من حوض الغواصة عند النفق المائي في نهاية المعبد إلى حُفر إيسوس.

تطلب الأمر عدة رحلات، لكننا وقفنا أخيرًا بأمان معًا مرة أخرى عند بداية نهاية مسعانا. كنا خمسة آلاف من المقاتلين الأقوياء المتمرسين، من أكثر عِرق مولع بالحرب من رجال برسوم الحُمر.

ونظرًا لأن كارثوريس فقط هو من يعرف الطرق الخفية بالأنفاق، لم نتمكن من أن نقسم مجموعتنا ونهاجم المعبد من عدة نقاط في نفس الوقت كما كنا نأمل، وهكذا قررنا أن يقودنا جميعًا في أسرع وقت ممكن

إلى نقطة قريبة من وسط المعبد.

عندما كنا على وشك مغادرة الحوض ودخول الممر، لفت ضابط انتباهي إلى المياه التي تطفو فوقها الغواصة. بدت المياه تتحرك في البداية لمجرد وجود جسم ما ضخم أسفل سطحها، وتوقعت على الفور أن غواصة أخرى ترتفع إلى السطح لمطاردتنا. على أنه اتضح الآن أن مستوى المياه آخذ في الارتفاع، ليس بسرعة قصوى، وإنما بسرعة كبيرة بالتأكيد، وأنها في أقرب وقت سوف تتجاوز جانبي الحوض وتُغرِق أرض الغرفة.

للحظة لم أستوعب تمامًا المغزى الرهيب لارتفاع المياه ببطء. بيد أن كارثوريس هو من أدرك المعني كاملا- دوافعه وأسبابه.

صرخ: «فلنسرع! سنضيع جميعًا إذا تأخرنا. فقد أوقفوا مضخات أوميان، سيغرقوننا كفئران في فخ. يجب أن نصل إلى المستويات العليا للحفر قبل الفيضان أو لن نصل إليها أبدًا. هيا».

صحت: «عليك أن تقود الطريق، كارثوريس. وسوف نتبعك».

بناء على أمري، قفز الشاب إلى أحد الممرات، وفي أعقابه الجنود بنظام جيد – اثنين اثنين في عمود، ولا تدخل كل مجموعة إلى الممر إلا بأمر من الدوار، أي الكابتن.

وصلت إلى الكاحل قبل خروج آخر مجموعة من الغرفة؛ وبدا واضحًا توتر الرجال العصبي. لم يكن الرجال الحُمر معتادين على المياه إطلاقًا إلا بالكميات التي تكفي لأغراض الشرب والاستحمام، ولذا

انكمشوا غريزيًّا بعيدًا عنها في هذه الأعماق الهائلة والنشاط التهديدي. كانت شجاعتهم والمياه تلتف وتدور حول الكاحلين تنم عن جرأتهم وانضباطهم.

كنت آخر من يغادر غرفة الغواصة، متحركًا في الجزء الخلفي من العمود نحو الممر خلال المياه التي وصلت إلى ركبتي. كان الممر أيضًا مغمورًا إلى العمق نفسه؛ فأرضيته تقع على نفس مستوى أرضية الغرفة التي تؤدي إليه، كما لا يوجد أي ارتفاع ملحوظ للعديد من الياردات.

كانت سرعة مسيرة القوات خلال الممر تتسق مع عدد الرجال الذين يتحركون عبر ممر ضيق على هذا النحو، لكنه لم يكن متسعًا ليسمح لنا تحقيق نجاح سريع ملموس في مسعانا. ومع ارتفاع مستوى الممر، ارتفعت المياه أيضًا بحيث أصبح واضحًا لي، أنا الذي كنت أعزز الخلفية، أن المياه تكتسب سرعة علينا. يمكنني أن أفهم السبب؛ فمع ضيق اتساع أوميان، وعندما ترتفع المياه نحو قمة قبته، تزيد سرعة ارتفاعها بنسبة عكسية لملء المساحة الآخذة في النقصان.

كنت مقتنعًا، لفترة طويلة قبل أن يأمل العمود الأخير الوصول إلى الحُفر العليا التي تقع فوق نقطة الخطر، بأن المياه ستندفع وراءنا بحجم ساحق، وأن نصف أفراد الحملة بالكامل سيموتون.

ألقيت نظري بحثًا عن بعض الوسائل لإنقاذ أكبر عدد ممكن من الرجال، رأيت ممرًّا متشعبًا يرتفع بزاوية حادة على يميني. كانت المياه تدور الآن حول خصري، وسرعان ما أصاب الذعر الرجال الموجودين أمامي مباشرة. يجب أن أتصرف على الفور، وإلا سيتدافعون بجنون إلى

الأمام على زملائهم ويدوسون على المئات منهم تحت الفيضان، وفي النهاية يسدون الممر وراء أي أمل في انسحاب مسبق.

رفعت صوتي إلى أقصاه، وأصدرت أمرًا إلى الدوار أمامي.

صرخت: «استدعوا آخر خمسة وعشرين رجلًا. تبدو هنا وسيلة للهرب. عودوا واتبعوني».

أطاع أوامري أقرب ثلاثين رجلًا، بحيث أسرع حوالي ثلاثة آلاف رجل إلى مطحنة الفيضان للوصول إلى الممر الذي وجهتهم إليه.

عندما مر أول دوار وزميله، نبهته أن يستمع جيدًا لأوامري، ولا يخاطر تحت أي ظرف من الظروف بالخروج إلى العراء، أو ترك الحُفر للتوجه إلى المعبد إلى أن أصعد معه: «أو تعرف أنني مت قبل أن أصل إليك».

تقدم الضابط لتحيتي ثم تحرك. ابتعد الرجال عني سريعًا، ودخلوا الممر المتشعب الذي كنت آمل أنه يؤدي إلى الأمان. ارتفع الماء عاليًا. تخبط الرجال، وتعثروا، وسقطوا. تمكنت من الإمساك بالعديد منهم وإيقافهم على أقدامهم مرة أخرى، لكن العمل بمفردي كان أكبر من قدرتي على مواجهته. كان الجنود يسقطون تحت سيل المياه الجارف ولا ينهضون ثانية. بعد فترة اتخذ دوار المجموعة العاشرة موقعًا بجواري. كان جنديًّا شجاعًا، اسمه جور تاس، ومعًا أبقينا القوات التي أصبحت الآن خائفة تمامًا، في مظهر نظامي وأنقذنا العديد من الغرق.

انضم إلينا داجور كانتوس، بادوار المجموعة الخامسة وابن

كانتوس كان، عندما وصلت مجموعته إلى الفتحة التي يفر الرجال من خلالها. وبعد ذلك، لم نفقد أي رجل من بين المئات التي بقيت لتعبر من الممر الرئيس إلى الفرعي.

وصل ارتفاع المياه إلى أعناقنا مع مرور آخر مجموعة أمامنا. شبكنا أيدينا ووقفنا ثابتين إلى أن مر آخر رجل إلى الأمان النسبي في الممر الجديد. وهنا وجدنا مطلعًا فوريًّا وحادًّا، بحيث استطعنا بعد مسافة مائة ياردة الوصول إلى نقطة فوق المياه.

واصلنا سريعًا صعودنا إلى المستوى الحاد في بضع دقائق، وكنت آمل أنه سيصل بنا إلى الحُفر العلوية ويتيح لنا دخول معبد إيسوس. لكنني واجهت خيبة أمل قاسية.

سمعت فجأة عن بعد أمامنا صيحة «إطلاق النار»، تلتها على الفور تقريبًا صرخات رعب وأوامر بصوت عال من الدوار والبادوار في محاولة، كما يبدو، لتوجيه رجالهم بعيدًا عن خطر جسيم. وأخيرًا جاء من يخبرنا: «لقد أطلقوا النيران على الحُفر. تحيط بنا النيران من الأمام، والفيضان من الخلف. النجدة، جون كارتر؛ نحن نختنق». ثم اجتاحتنا من الخلف موجة من دخان كثيف، جعلتنا نتعثر عميانًا في تراجع خانق.

ليس أمامنا أي شيء سوى التماس سبيل جديد للهروب. الخوف من النار والدخان أكثر ألف مرة من الخوف من الماء، ولذا توجهت إلى أول دهليز يقودنا خارج الدخان الخانق الذي يجتاحنا.

وقفت على الجانب مرة أخرى، بينما يسرع الجنود خلال الطريق الجديد. من المؤكد أن ألفي رجل تقريبًا يركضون سريعًا، ثم توقف

تدفقهم. لم أكن على يقين من إنقاذ جميع من اجتازوا نقطة منشأ اللهيب. وبالتالي، وللتأكد شخصيًّا أننا لم نترك أيًّا من هؤلاء الشياطين المساكين ليموت بفظاعة دون أن يحصل على مساعدة، جريت بسرعة إلى الدهليز في اتجاه النيران التي أراها الآن مشتعلة على بعد.

كان الجو ساخنًا وخانقًا، لكنني وصلت أخيرًا إلى نقطة أضاءت فيها النيران الممر بما يكفي لأتأكد من عدم وجود أي جندي من هيليوم بيني وبين الحريق- لم أتمكن من معرفة ما كان في الحريق أو على الجانب الآخر منه، كما لم يتمكن أن يعرف أي رجل مر من خلال ذلك الجحيم الهائج من المواد الكيميائية وعاش.

وبعد أن أرضيت شعوري بالواجب، استدرت وركضت بسرعة عائدًا إلى الممر الذي عبره رجالي. لكنني، ويا له من رعب، وجدت أن تراجعي في هذا الاتجاه قد أصبح مسدودًا؛ إذ رأيت حاجزًا حديديًّا ضخمًا يسد فتحة الممر، ومن الواضح أنه قد تم إنزاله من موقعه العلوي بغرض قطع طريق هروبي بشكل فعال.

ما من شك أن الأبناء الأوائل يتابعون تحركاتنا الرئيسة: فليس ممكنًا أن يكون هجوم الأسطول علينا في اليوم السابق، ووقف مضخات أوميان في لحظة نفسية بعينها، هو محض صدفة؛ ولا كان بدء الاحتراق الكيميائي داخل الممر الذي يقودنا إلى معبد إيسوس بسبب أي شيء إلا تخطيط محسوب جيدًا.

ويبدو الآن أن إسقاط البوابة الحديدية لاحتجازي بين الحريق والفيضان يشير إلى أن أعينًا غير مرئية تراقبنا في كل لحظة. ما فرصي إذن

لإنقاذ ديجاه ثوريس، وأنا مضطر لمحاربة أعداء لا يُظهرون أنفسهم أبدًا. وبخت نفسي ألف مرة للانجرار إلى فخ من هذا القبيل، وكان يجب أن أعرف بسهولة طبيعة هذه الحُفر. أدركت الآن أنه كان من الأفضل بكثير أن أحافظ على قوتنا دون مساس، وأقوم بهجوم منسق على المعبد من جانب الوادي، مع الثقة في أن الفرصة وقدرتنا العظيمة على القتال كان يمكن أن تسحق الأبناء الأوائل وتجبرهم على تسليمي ديجاه ثوريس آمنة.

أجبرني دخان النيران على المزيد والمزيد من التراجع عبر الممر نحو المياه، التي أسمع ارتفاعها خلال الظلام. ذهبت الشعلة الأخيرة مع رجالي، ولم يكن هذا الممر مضاء بشعاع الصخر الفوسفوري مثل ممرات المستويات الأدنى. وهذا ما أكد لي أنني لست بعيدًا عن الحُفر العليا التي تقع تحت المعبد مباشرة.

شعرت أخيرًا بالمياه تلتف حول قدمي. كان الدخان كثيفًا خلفي. وكانت معاناتي شديدة. بدا أمامي شيء واحد فقط، وهو اختيار الموت الأسهل الذي يحيط بي. وبالتالي تحركت خلال الممر، وأصبحت مياه أوميان الباردة قريبة مني، فسبحت خلال السواد المطلق تجاه ... ماذا؟

إن غريزة الحفاظ على الذات قوية حتى عندما يعرف المرء -دون خوف وهو قابض على أعلى ملكاته العقلية- أن الموت المؤكد وغير القابل للتغيير يقع أمامه مباشرة. وهكذا سبحت ببطء، في انتظار أن يلمس رأسي قمة الممر، مما يعني وصولي إلى الحد الأقصى من رحلتي وإلى نقطة الغوص إلى الأبد في قبر بلا معالم.

وصلت، لدهشتي، إلى جدار أجوف قبل أن أصل إلى نقطة وصول المياه إلى سقف الممر. هل أنا مخطئ؟ تحسست حولي. كلا، لقد وصلت إلى الممر الرئيس، ولا تزال هناك مساحة للتنفس بين سطح الماء والسقف الصخري أعلاه. استدرت إلى الممر الرئيس في الاتجاه الذي اجتازه كارثوريس ورأس عمود الجنود منذ نصف ساعة. سبحت، وازداد قلبي خفة خلال السباحة. عرفت أنني أقترب تدريجيًّا من نقطة، حيث لا توجد أي فرصة للمياه أمامي لتكون أعمق مما كانت عليه حولي. كنت على يقين بأنني سرعان ما سأشعر بالأرض الصلبة تحت قدمي ثانية، وأن فرصتي ستأتي مرة أخرى للوصول إلى معبد إيسوس، وإلى السجينة الجميلة هناك.

ولكن حتى والأمل في قمته، شعرت بصدمة التلامس المفاجئة عندما اصطدم رأسي بالصخور أعلاها. وهنا حدث لي الأسوأ. لقد وصلت إلى إحدى تلك الأماكن النادرة حيث ينخفض فجأة النفق المريخي إلى مستوى أدنى. أعرف أنه سيرتفع ثانية في مكان ما، ولكن ما قيمة ذلك، ما دمت لا أعرف مدى المسافة التي يحافظ فيها على مستوى تحت سطح الماء تمامًا!

ليس أمامي سوى أمل واحد يائس، وتعلقت به. ملأت رئتي بالهواء، وغطست تحت السطح سابحًا عبر السواد الحبري الجليدي على طول الدهليز المغمور. كنت أرتفع تكرارًا ويدي ممدودة لأعلى، لأتحسس الصخور القريبة المخيبة للآمال فوقي.

لن تتحمل رئتي الضغط عليها لفترة أطول. شعرت أنني سأستسلم

قريبًا، فلا يوجد أي مجال للتراجع الآن بعد أن مضيت كل هذا الطريق. كنت أعرف عن يقين أنني لن أقدر أبدًا على تحمل اقتفاء طريقي الآن إلى الموضع الذي شعرت فيه أن المياه قريبة فوق رأسي. كان الموت يحدق في وجهي، ولم أقدر حتى على أن أتذكر وقتًا شعرت فيه بتنفسه الجليدي من شفتيه الميتتين على جبيني.

بذلت جهدًا محمومًا آخر بقوتي التي أخذت تضعف. ارتفعت بضعف للمرة الأخيرة. تطلعت رئتاي المعذبتان إلى النسيم الذي يمكن أن يملأهما بعنصر غريب ومخدِر، ولكن أنفي شعرت بالأحرى بنسيم منعش من الهواء الواهب للحياة، وتتوق إليه ليدخل إلى رئتي المحتضرة. لقد أُنقِذت.

جلبتي عدة أشواط قليلة من السباحة إلى موضع لمست فيه قدمي الأرض، وسرعان ما أصبحت أعلى من مستوى المياه تمامًا، فركضت كالمجنون على طول الممر بحثًا عن أول مدخل يمكن أن يقودني إلى إيسوس. إذا لم أتمكن من استعادة ديجاه ثوريس، سوف أنتقم على الأقل من وفاتها؛ ولن تُرضيني أي حياة سوى حياة الشر المتجسدة التي كانت سببًا في هذه المعاناة غير المحدودة في برسوم.

وصلت في وقت أسرع مما توقعته إلى مخرج غير متوقع إلى المعبد أعلاه. كان يقع على الجانب الأيمن من الممر، واستمر، على الأرجح، إلى مداخل أخرى إلى الكومة أعلاه.

كنت أعتبر أن أي موضع لا يختلف عن غيره. لا أعرف إلى أين يقودني! وبالتالي، دون انتظار لاكتشافي وإحباطي مرة أخرى، ركضت

بسرعة عبر منحدر قصير وحاد، ودفعت المدخل فانفتح لنهايته.

تأرجحت البوابة ببطء، فانطلقت داخل القاعة قبل أن تُغلق في وجهي. على الرغم من أن الفجر لم يبزغ بعد، فقد كانت الغرفة مضاءة ببراعة. استلقى شاغلها الوحيد ممددًا على أريكة منخفضة في الجانب الآخر، وعلى ما يبدو نائمًا. من الستائر والأثاث الفخم للغرفة، حكمت أنها غرفة معيشة إحدى الكاهنات، ربما إيسوس نفسها.

أصابتني هذه الفكرة بوخز الدم في عروقي. ربما ابتسم لي الحظ ووضع هذه المخلوقة البشعة وحدها ودون حراسة بين يدي. بوجودها معي رهينة، يمكنني إجبارهم على الإذعان لكل طلباتي. اقتربت بحذر من الشخص المستلقي، دون إحداث صوت. اقتربت تدريجيًّا أكثر فأكثر، ولم أكن قد عبرت إلا أكثر قليلًا من نصف الغرفة عندما تحرك هذا الشخص، وعندما قفزت، نهض وواجهني.

في البداية غطى تعبير الرعب ملامح المرأة التي واجهتني، ثم التشكك الذاهل، فالأمل، ثم الشكر والامتنان.

خفق قلبي في صدري وأنا أتقدم نحوها، وفرت الدموع من عيني، واختنقت الكلمات التي كانت لتتدفق في سيل كامل، وأنا أفتح ذراعي وآخذ بينهما مرة أخرى المرأة التي أحببتها – ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم.

* * *

(٢٢)

النصر والهزيمة

«جون كارتر، جون كارتر»، أجهشت بالبكاء وهي تضع رأسها الحبيبة على كتفي. «بالكاد ما يمكنني أن أصدق حتى الآن ما تشهده عيناي. عندما أخبرتني الفتاة، ثوفيا، أنك عدت إلى برسوم، استمعت، لكنني لم أستطيع أن أفهم، فهذه السعادة تبدو مستحيلة لمن عانى في وحدة صامتة طوال هذه السنوات الطويلة. وأخيرًا عندما أدركت أنها الحقيقة، ثم عرفت بعد ذلك المكان الفظيع الذي سُجَنت فيه، تشككت في أنه حتى أنت لن تتمكن من الوصول إلى هنا».

«ومع مرور الأيام، وذهاب القمر مرة بعد أخرى دون أن يحمل حتى أضعف شائعة عنك، استسلمت لقدري. والآن بعد أن جئت، بالكاد ما يمكنني أن أصدق. لقد سمعت أصوات القتال داخل القصر لمدة ساعة. لم أكن أعلم ماذا تعني، لكني تمنيت، ربما هم رجال هيليوم برئاسة أميري».

«قل لي، ماذا عن كارثوريس، ابننا؟»

أجبتها: «كان معي منذ أقل من ساعة، ديجاه ثوريس. من المؤكد أنه

هو الذي سمعت رجاله يقاتلون داخل حرم المعبد».

سألت فجأة: «أين إيسوس؟».

هزت ديجاه ثوريس كتفيها.

«لقد أرسلتني تحت الحراسة إلى هذه القاعة قبل بدء القتال مباشرة داخل قاعات المعبد. وقالت إنها سترسل في طلبي لاحقًا. بدت غاضبة جدًّا ومخيفة إلى حد ما. لم يسبق أبدًا أن رأيتها تتصرف بهذه الطريقة من عدم اليقين وتقريبًا الهلع. أعرف الآن أن ذلك كان يرجع بالتأكيد إلى علمها بأن جون كارتر، أمير هيليوم، قادم لمحاسبتها على سجنها لأميرته».

وصلت إلينا من أجزاء المعبد المختلفة أصوات القتال، واشتباك الأسلحة، والصراخ، وسرعة حركة الأقدام العديدة. كنت أعرف أنهم يحتاجونني هناك، لكني لا أجرؤ على ترك ديجاه ثوريس، ولا أجرؤ على أخذها معي إلى اضطراب المعركة ومخاطرها.

وأخيرًا فكرت في الحُفر التي خرجت منها لتوي. لماذا لا أخفيها هناك إلى أن أتمكن من العودة وإخراجها بأمان وإلى الأبد من هذا المكان الفظيع. شرحت لها خطتي.

للحظة زاد تشبثها بي.

قالت: «لا أتحمل أن أفترق عنك الآن، حتى ولو للحظة، جون كارتر. أنا أرتعد من فكرة البقاء بمفردي مرة أخرى، حيث يمكن أن تكتشف تلك المخلوقة الرهيبة وجودي. أنت لا تعرفها. لا يمكن أن

يتخيل شراسة قسوتها من لم يشهد تصرفاتها اليومية لأكثر من نصف عام. لقد استغرق الأمر مني كل هذا الوقت تقريبًا لأدرك حتى الأشياء التي رأيتها بعيني».

فقلت لها: «لن أتركك إذن يا أميرتي».

صمتت للحظة، ثم جذبت وجهي لوجهها وقبلتني.

قالت: «اذهب، جون كارتر. ابننا هناك مع جنود هيليوم يقاتلون من أجل أميرة هيليوم. يجب أن توجد معهم أينما كانوا. يجب ألا أفكر في نفسي الآن، ولكن فيهم وفي واجب زوجي. أنا لن أقف في طريق ذلك. اخفني في الحُفر، واذهب».

قدتها إلى الباب الذي دخلت خلاله إلى الغرفة من الأسفل. وهناك ضممتها إلى صدري بقوة. بعد ذلك، وعلى الرغم من أن ما أفعله كان يمزق قلبي ويغمرني بأكثر ظلال نُذر الرهبة سوادًا، قدتها عبر العتبة، وقبلتها مرة أخرى، وأغلقت الباب عليها.

ودون أن أتردد أطول من ذلك، أسرعت خارج الغرفة في اتجاه الاضطراب الأعظم. اجتزت بشق الأنفس نصف دزينة من الغرف قبل أن أصل إلى مسرح الصراع الشرس. احتشد السود عند مدخل غرفة كبيرة، في محاولة لمنع المزيد من تقدم مجموعة من الرجال الحُمر نحو الحرم الداخلي المقدس للمعبد.

ولأنني كنت قادمًا من الداخل، فقد وجدت نفسي خلف السود. ودون انتظار حتى لحساب أعدادهم أو مدى تهور مغامرتي، هاجمت

سريعًا عبر الغرفة، وانقضضت عليهم من الخلف بسيفي الطويل الحاد.

وأنا أسدد أول ضربة، هتفت بصوت عال، «من أجل هيليوم!». ثم أمطرت المحاربين الذاهلين بهجماتي وهم يتساقطون واحدًا تلو الآخر، بينما تشجع الحُمر في الخارج بصوتي، وبصيحاتهم «جون كارتر! جون كارتر!» ضاعفوا جهودهم بفعالية بحيث قبل أن يتمكن السود من التعافي من ارتباكهم المؤقت، كانت صفوفهم قد تحطمت، واقتحم الرجال الحُمر القاعة.

إذا شهد مؤرخ متخصص المعركة التي دارت داخل تلك الغرفة، كانت لتُكتب في حوليات برسوم كذكرى تاريخية عن ضراوة وشراسة شعبها المحب للحرب. لقد حارب في ذلك اليوم خمسمائة رجل، الرجال السود ضد الحُمر. لم يطلب أي رجل الرحمة أو يمنحها. قاتلوا كأنما باتفاق مشترك، قاتلوا كأنما يقررون لمرة واحدة وإلى الأبد حقهم في العيش، وفقًا لقانون البقاء للأصلح.

كنا نعلم جميعًا أن المواضع النسبية لهذين العِرقين في برسوم سوف تتحدد وإلى الأبد على نتائج هذه المعركة. إنها معركة بين القديم والجديد، لكني لم أشك ولو لمرة واحدة في نتيجتها. حاربت وكارثوريس إلى جانبي، من أجل رجال برسوم الحُمر وتحررهم الكامل من العبودية الخانقة لخرافة بشعة.

انطلقنا ذهابًا وإيابًا عبر الغرفة، إلى أن غاص الكاحل عميقًا في الدم على الأرض، وتساقط الرجال الموتى بغزارة، حتى أننا كنا نقف أحيانًا على أجسادهم ونحن نقاتل. وخلال تأرجحنا نحو النوافذ الكبيرة التي

تطل على حدائق إيسوس، التقى بصري بمشهد أثار موجه من الابتهاج الداخلي.

صحت: «انظروا!، يا رجال الأبناء الأوائل، انظروا!».

توقف القتال للحظة، وتحولت كل الأعين في الاتجاه الذي أشرت إليه. لم يكن بإمكان أي رجل من الأبناء الأوائل أن يتخيل أبدًا المشهد الذي رآه.

وقف عبر الحدائق، من جانب إلى جانب، خط مرتعش من المحاربين السود، بينما يتجاوزهم ويجبرهم على العودة للوراء حشدًا كبيرًا من المحاربين الخُضر يمتطون منفرجي الساقين حيوانات الثوات القوية. ثم رأينا محاربًا أكثر شراسة وتجهمًا من زملائه، يتقدم راكبًا من الخلف إلى الأمام، وعندما وصل أطلق بعض الأوامر الشرسة لفيلقه الرهيب.

كان تارس تاركاس، جيداك ثارك. وعندما أخفض رمحه العظيم ذي الأربعين قدمًا المعدنية، شاهدنا محاربيه يحذون حذوه. وعندئذ فهمنا أمره. تفصل عشرون ياردة الآن الرجال الخُضر عن الخط الأسود. وبكلمة أخرى من الثاركي العظيم، وانطلاق صرخة المعركة مدوية مرعبة، بدأ المحاربون الخُضر هجومهم. تماسك الخط الأسود لدقيقة، ولكن لدقيقة فقط- ثم اخترقت الوحوش المخيفة التي تحمل فرسانًا مرعبين الخط بالكامل.

بعدهم جاء جندي تلو الآخر من الرجال الحُمر. انطلق الحشد الأخضر لتطويق المعبد. وتولى الرجال الحُمر ما بداخل المعبد، ثم

واصلنا معركتنا المتقطعة؛ لكن أعداءنا تلاشوا.

كانت ديجاه ثوريس أول ما تبادر إلى ذهني. ناديت كارثوريس وأخبرته أنني عثرت على والدته، وانطلقت وابني بالقرب مني نحو الغرفة التي تركتها فيها. وتبعتنا قوة صغيرة ممن نجوا من الصراع الدموي.

لحظة أن دخلت الغرفة، عرفت أن شخصًا كان فيها بعد أن غادرتها. كان الحرير ملقى على الأرض، في موضع مختلف عن موضعه السابق. تناثر أيضًا خنجر وبعض الحلي المعدنية، كأنما تم تمزيقها ممن كان يرتديها خلال قتال. لكن الأسوأ من ذلك كله، أن الباب المؤدي إلى الحفر حيث أخفيت أميرتي، كان مفتوحًا جزئيًّا.

قفزت نحوه، وفتحته بقوة، وهرعت داخله. اختفت ديجاه ثوريس. ناديت اسمها بصوت عال مرارًا وتكرارًا، ولكن دون استجابة. أعتقد أنني في تلك اللحظة كنت على وشك الجنون. لا أتذكر ما قلته أو فعلته، لكني أعرف أن غضبًا مجنونًا استبد بي للحظة.

صرخت: «إيسوس! إيسوس! أين إيسوس؟ ابحثوا عن معبدها، على ألا يصيبها أي رجل بضرر إلا جون كارتر. كارثوريس، أين شقق إيسوس؟».

صاح الصبي: «من هذا الطريق». ودون انتظار لمعرفة أنني سمعته، انطلق بسرعة فائقة متوجهًا إلى الأجزاء الداخلية من المعبد. بقدر ما كان يسرع، كنت إلى جواره أحثه على زيادة السرعة.

وصلنا أخيرًا إلى باب ضخم منحوت، ومن خلاله اندفع قبلي

كارثوريس. رأينا في الداخل مشهدًا مثل ذلك الذي رأيته من قبل داخل المعبد – عرش إيسوس، والإماء مضجعات، وحول العرش صفوف من الجنود.

لم نعط للرجال حتى فرصة للحركة، فقد انقضضنا عليهم بسرعة. بضربة واحدة أجهزت على اثنين من الصف الأمامي. ثم بمجرد وزن وقوة جسدي، أسرعت مخترقًا الصفين الباقيين بالكامل، وقفزت إلى المنصة بجوار العرش المنحوت من خشب السورابوس.

كانت المخلوقة المثيرة للاشمئزاز تجلس القرفصاء مرتعبة، وحاولت الهروب مني والقفز إلى الفخ وراء ظهرها. لكنها هذه المرة لم تكن لتخدعني بأي حيلة تافهة مثل هذه. أمسكت ذراعها بقوة قبل أن تنهض كاملًا، وعندما رأيت الحرس يبدأون في هجوم منظم ضدي من جميع الجوانب، سحبت خنجري وأمسكته بالقرب من ذلك الصدر الخسيس، وأمرتهم بالتوقف.

«تراجعوا!»، صحت عاليًا. «تراجعوا! أول قدم سوداء ستوضع على هذا المنبر ستتسبب في إرسال خنجري إلى قلب إيسوس».

ترددوا للحظة، ثم أمرهم ضابط بالتراجع. من الممر الخارجي، اجتاحت قاعة العرش في أعقابي مجموعتي الصغيرة من الناجين، ألف رجل أحمر بقيادة كانتوس كان وهور فستوس وزودار.

صرخت للشيء بين يدي: «أين ديجاه ثوريس؟».

لدقيقة طافت عيناها بعنف حول المشهد أسفلها. أعتقد أن الأمر

استغرق منها دقيقة؛ لكي يترك الوضع الفعلي أي انطباع عليها- لم تستطع في البداية إدراك أن المعبد قد سقط قبل هجوم رجال العالم الخارجي. ثم أدركت بفظاعة أيضًا، ماذا يعني ذلك بالنسبة لها- فقدان السلطة، الإذلال، كشف الغش والخداع الذي مارسته لفترة طويلة على شعبها.

كان هناك شيء واحد فقط مطلوبًا لاستكمال حقيقة الصورة التي كانت تراها، وقد أضافه أعلى نبلاء مملكتها -أعلى كاهن في دينها- رئيس وزراء حكومتها.

صاح: «إيسوس، إلهة الموت والحياة الأبدية، انهضي بغضبك المقدس الجبار، وسددي بموجة واحدة من يدك كلية القدرة ضربة الموت لهؤلاء الكفار! لا تسمحي لأي منهم بالهرب. إيسوس، إن شعبك يعتمد عليك. يا ابنة القمر الأصغر، أنت فقط من تملكين كل القوة. أنت فقط تستطيعين إنقاذ شعبك. انتهى كلامي. ونحن ننتظر إرادتك. وجهي ضربتك!».

وعندئذ أصابها مس من الجنون. مجنونة تصرخ وتتمتم وهي تتلوى في قبضتي. عضت وخدشت وحفرت بمخالبها في غضب عاجز. ثم ضحكت ضحكة غريبة ورهيبة تُجمد الدماء. صرخت الفتيات الإماء على المنصة وانكمشن مرتعدات. قفزت إليهن وصرت بأسنانها، ثم بصقت عليهن من شفاهها المزبدة. يا ربي، كان مشهدًا مروعًا.

وأخيرًا، هززتها، على أمل أن أعيدها للحظة إلى العقلانية.

صحت مرة أخرة: «أين ديجاه ثوريس؟».

تمتمت هذه المخلوقة الشنيعة وهي في قبضتي بكلمات غير مفهومة، ثم ظهر وميض مفاجئ ماكر في تلك الأعين المتقاربة البشعة.

«ديجاه ثوريس؟ ديجاه ثوريس؟»، ثم ثقبت آذاننا مرة أخرى تلك الضحكة الغريبة الحادة.

«نعم، ديجاه ثوريس- أعرف. وثوفيا، وفايدور ابنة ماتاي شانج. كلهن أحببن جون كارتر. ها-آه! هذا مضحك. إنهن معًا، سوف يستغرقن في التأمل لمدة سنة داخل معبد الشمس، ولكن قبل أن تنتهي السنة تمامًا لن يحصلن على مزيد من الطعام. هو-أوه! يا له من ترفيه إلهي»، ثم لعقت الزبد المتساقط من شفتيها القاسيتين. «لن يحصلن على مزيد من الطعام - باستثناء بعضهن بعضًا. ها-آه! ها-آه!».

أصابني رعب الفكرة بالشلل تقريبًا. بهذا المصير الفظيع حكمت المخلوقة في قبضتي على أميرتي. ارتعدت من ضراوة غضبي. وهززت إيسوس، إلهة الحياة الأبدية، كأنما أهز جحر فئران.

صرخت: «الغِ أوامرك! أطلقي سراح الفتيات اللاتي حكمتِ عليهن بهذا المصير، وإلا ستموتين!».

«فات الأوان. ها-آه! ها-آه!»، ثم بدأت في تمتمتها وصراخها مرة أخرى.

طار خنجري، من تلقاء نفسه تقريبًا، نحو ذلك القلب العفن. لكن شيئًا أبقى يدي، وهذا ما أسعدني. فمن الفظاعة أن أقتل امرأة بيدي. لكن مصيرًا أكثر ملاءمة أصاب هذه الإلهة الكاذبة.

«أيها الأبناء الأوائل»، صرخت، متحولًا إلى من يقفون داخل الغرفة، «لقد رأيتم اليوم عجز إيسوس- الإلهة عاجزة. إيسوس ليست إلهةً. إنها امرأة عجوز قاسية وشريرة، خدعتكم وتلاعبت بكم لعصور. خذوها. لن يلوث جون كارتر، أمير هيليوم، يده بدمها»؛ وبهذه الكلمات دفعت المتوحشة الجامحة من منصة عرشها- وهي التي كانت قبل أقل من نصف ساعة تحظ بتقديس عالم كامل كأنها إلهة- إلى براثن شعبها الذي خانته ويتطلع إلى الانتقام منها.

بحثت عن زودار بين ضباط الرجال الحُمر، وطلبت منه أن يقودني بسرعة إلى معبد الشمس. ودون انتظار لمعرفة المصير الذي سيسفر عنه انتقام الأبناء الأوائل من تلك الإلهة، اندفعت من القاعة مع زودار وكارثوريس وهور فستوس وكانتوس كان، وعشرات من النبلاء الحُمر الآخرين.

قادنا الرجل الأسود سريعًا خلال غرف المعبد الداخلية، إلى أن وقفنا داخل الفناء المركزي- وهو مساحة دائرية كبيرة، مرصوفة برخام شفاف ناصع البياض. ارتفع أمامنا معبد ذهبي مُشيد بأغرب تصميم وأكثرها خيالية، ومُطعم بالماس والياقوت الأحمر والأزرق، والفيروز، والزمرد، وآلاف الجواهر المريخية مجهولة الاسم، التي تتجاوز في رقة ونقاء آشعتها أثمن جوهرة على كوكب الأرض.

«من هذا الطريق»، صاح زودار وهو يقودنا نحو مدخل نفق يفتح على فناء بجوار المعبد. وما إن وصلنا إلى نقطة الهبوط، حتى سمعنا دويًّا عميقًا لانفجار من معبد إيسوس الذي غادرناه لتونا، ثم دخل رجل

أحمر - داجور كانتوس، بادوار المجموعة الخامسة- من بوابة قريبة، وطلب منا أن نعود.

صاح: «أحرق السود المعبد. وهو يحترق الآن في آلاف من الأماكن. أسرعوا إلى الحدائق الخارجية، أو ستضيعون».

وهو يتحدث رأينا الدخان ينطلق من عشرات النوافذ المطلة على فناء معبد الشمس، وتطوف بعيدًا فوق أعلى مئذنة لدى إيسوس ظلال متنامية من الدخان.

صحت للرجال الذين رافقوني: «عودوا! عودوا! الطريق! زودار؛ أشر إلى الطريق واتركني. سوف أصل إلى أميرتي».

«اتبعني، جون كارتر»، أجاب زودار، ودون انتظار ردي انطلق إلى داخل النفق تحت أقدامنا. وفي أعقابه جريت إلى أسفل خلال نصف دزينة مستويات من الدهاليز، إلى أن قادني أخيرًا عبر طابق مستوي رأيت في نهايته غرفة مضاءة.

منعتنا قضبان ضخمة من المزيد من التقدم. رأيت خلفها أميرتي التي لا تُضاهى، ومعها ثوفيا وفايدور. عندما رأتني هرعت نحو القضبان التي تفصلنا. كانت الغرفة قد دارت بالفعل في طريقها البطيء بحيث كان جزء فقط من فتحة جدار المعبد هو ما يواجه القضبان في نهاية الممر. كان الفاصل ينغلق ببطء. وخلال فترة زمنية قصيرة، لن يوجد سوى شق صغير، ثم سيُغلق هذا أيضًا، وستدور الغرفة ببطء لمدة سنة برسومية طويلة إلى أن تمر الفتحة بجدارها مرة أخرى بنهاية الممر لمدة يوم قصير.

ولكن، في الوقت نفسه، ما الأشياء الرهيبة التي قد تحدث داخل تلك الغرفة!

صرخت: «زودار! ألا توجد أي قوة لوقف هذا الشيء الفظيع الدائر؟ ألا يوجد من يحمل سر هذه القضبان الرهيبة؟».

«أخشى أننا لن نتمكن من إحضارهم في الوقت المناسب، ومع ذلك سأذهب وأحاول. انتظرني هنا».

بعد أن غادر، وقفت وتحدثت مع ديجاه ثوريس. مدت يدها الحبيبة عبر تلك القضبان القاسية بحيث يمكنني الإمساك بها حتى آخر لحظة.

اقتربت ثوفيا وفايدور أيضًا. وعندما رأت ثوفيا أننا نرغب في البقاء وحدنا، انسحبت إلى الجانب الآخر من الغرفة. لكن ابنة ماتاي شانج لم تفعل ذلك.

قالت: «جون كارتر، هذا هي المرة الأخيرة التي ستشاهدني فيها. قل أنك تحبني، فأموت سعيدة».

أجبتها بهدوء: «أنا لا أحب سوى أميرة هيليوم. أنا آسف، فايدور، ولكن هذا ما قلته لك منذ البداية».

عضت شفتيها واستدارت بعيدًا، ولكن ليس قبل أن أرى عبوسها الأسود والقبيح تجاه ديجاه ثوريس. ابتعدت قليلًا، وإن لم يكن بالقدر الذي أرغبه، فلدي الكثير من الأسرار التي أود قولها إلى حبي الضائع منذ فترة طويلة.

وقفنا لبضع دقائق نتحدث بنبرات منخفضة. أخذت الفتحة تزداد

تقلصًا. وستصبح خلال فترة زمنية قصيرة صغيرة جدًّا حتى لتسمح بمرور جسد أميرتي النحيل. أوه، لماذا لم يسرع زودار. كنا نسمع فوقنا أصداء باهتة لاضطراب كبير. كان العديد من الرجال السود والحُمر والخُضر يشقون طريقهم خلال حريق معبد إيسوس المشتعل.

جلب تيار هوائي من أعلى أبخرة الدخان إلى أنوفنا. زاد الدخان سُمكًا خلال وقوفنا في انتظار زودار. والآن نسمع صياحًا في نهاية الممر البعيدة، وأقدامًا تسرع.

«تراجع، جون كارتر، تراجع!»، صاح صوت، «حتى الحُفر مشتعلة».

وفي لحظة اخترق عشرات الرجال الآن الدخان الذي يُعمي الأبصار إلى جانبي. رأيت كارثوريس، وكانتوس كان، وهور فاستوس، وزودار، مع عدد قليل آخر ممن تبعوني إلى فناء المعبد.

صاح زودار: «لم يعُد هناك أمل، جون كارتر. حارس المفاتيح مات، والمفاتيح ليست معه. وأملنا الوحيد هو إخماد هذا الحريق، والثقة في أنك بعد سنة سوف تجد أميرتك على قيد الحياة وبصحة جيدة. لقد أحضرت قدرًا كافيًا من الطعام لهن. عندما ينغلق هذا الشق، لن يصل الدخان إليهن، وإذا سارعنا إلى إخماد النيران، سيصبحن في أمان».

أجبته: «اذهب أنت إذن، وخذ الآخرين معك. سأظل أنا هنا بجوار أميرتي إلى أن يحررني موت رحيم من كربي. لست حريصًا على العيش».

عندما كنت أتكلم، كان زودار يقذف بعدد كبير من علب صغيرة داخل زنزانة السجن. لم تعد فتحة الشق المتبقي أكبر من بوصة في

العرض. وقفت ديجاه ثوريس بالقرب من الشق بأقرب ما يمكن، تهمس بكلمات الأمل والتشجيع لي، وتحثني على إنقاذ نفسي.

وفجأة رأيت وراءها وجه فايدور الجميل يلتوي في تعبير عن الكراهية الخبيثة. وتحدثت عندما التقت عيني بعينيها.

«لا تتصور، جون كارتر، أنك تستطيع أن ترفض بهذه البساطة حب فايدور، ابنة ماتاي شانج. ولا تأمل أبدًا أنك ستستطيع حمل ديجاه ثوريس بين ذراعيك مرة أخرى. سوف تنتظر السنة الطويلة؛ ولكن عليك أن تعرف أنك بعد انتظارك ستجد ذراعي فايدور يرحبان بك- وليس ذراعي أميرة هيليوم. انظر، إنها ستموت!».

وعندما أنهت حديثها رأيتها ترفع خنجرًا، ثم رأيت شخصية أخرى. كانت ثوفيا. وعندما سقط الخنجر تجاه صدر حبيبتي غير المحمي، كانت ثوفيا بينهما تقريبًا. عاصفة من الدخان تمنع الرؤية طمست المأساة داخل تلك الزنزانة المخيفة- رنت صرخة، صرخة واحدة، مع سقوط الخنجر.

انقشع الدخان، لكننا وقفنا محدقين نحو جدار مصمت. فقد أُغلِق آخر شق، ولسنة طويلة سوف تحتفظ تلك الزنزانة البشعة بسرها عن أعين الرجال.

حثوني على المغادرة.

صاح زودار: «في لحظة سيكون الأوان قد فات. ولكن أمامنا، في الواقع، فرصة ضئيلة لكي نصل إلى الحديقة الخارجية أحياء حتى الآن. لقد أمرت ببدء المضخات، وبعد خمس دقائق ستكون الحُفر مغمورة

بالمياه. إذا لم نكن نود الغرق مثل الفئران في فخ، علينا التعجيل بالصعود والوصول إلى بر السلامة من خلال المعبد المحترق».

«اذهبوا»، قمت بحثهم، «دعوني أموت هنا بجوار أميرتي- ليس لدي أمل أو سعادة في مكان آخر. عندما يحملون جسدها الحبيب من ذلك المكان الرهيب بعد سنة، دعوهم يجدون جسد أميرها ينتظرها».

أما ما حدث بعد ذلك، فليس لدي سوى ذاكرة مختلطة. ويبدو كأنما كافحت مع العديد من الرجال، ثم أخذوا جسدي من الأرض وحملوه بعيدًا. لا أعرف. ولم أسأل أبدًا، ولم يتطفل أي شخص ممن كانوا هناك ذلك اليوم على حزني أو يُذكرني بالأحداث التي يعرفون أنها لن تؤدي في أحسن الأحوال إلا إعادة فتح الجرح الرهيب في قلبي.

آه! لو أمكنني فقط أن أعرف شيئًا واحدًا، يا له من عبء، عبء القلق الذي سيزيحه عن كاهلي! ولكن سواء وصل خنجر القاتلة إلى حضن جميل واحد أو آخر، لن يفصح عن ذلك سوى الوقت.

❊ ❊ ❊